

معهد
الجزيرة للإعلام

وحدنا غطّينا الحرب

PRESS

شهادات صحفية
من قطاع غـزة
والضفـة الغربية

معهد الجزيرة للإعلام، الدوحة، قطر
الطبعة الأولى: **2024**

وحدنا غطّينا الحرب

شهادات صحفيّة من قطاع غزّة والضفة الغربية

تحرير
محمّد أحداد

التدقيق اللغوي
حسين عدوان

تصميم
أحمد فتاح

ISBN: 978-614-431-455-5

الفهرس

كلمة معهد الجزيرة للإعلام

عندما طلبنا من الزميل هشام زقوت، مراسل الجزيرة بغزة، إضافة بعض الفقرات إلى شهادته، كان جوابه:

"يا الله! والله ربنا فقط اللي مخلينا صابرين وقادرين نتحمل ولا غير هيك عبث.. هي شهادة والله مكتوبة بالدموع ومحاولات لنسيان بعض ما جرى، يا ريتك ما طلبت إني أكتب كمان فقرة".

هل يمكن للكتابة عن "المأساة" أن تكون مؤذية إلى هذا الحد؟

من اللحظة الأولى التي قررنا فيها توثيق شهادات الصحفيين الفلسطينيين الذين عاشوا حرب الإبادة الجماعية، كنا مدركين أننا ننبش مسرح جريمة لم تتوقّف، لذا لم نبحث عن شهادات مرتبة أو محكومة بمنهج ما. كنا واعين أن هؤلاء الذين يواجهون القتل العامّ والتجويع والحصار المطبق، ومشاهد الجثث المنتشرة في كل مكان، المحتمين بخيمة ممزقة، الفاقدين لحياة عائلاتهم، لا يتوفرون على ترف التحرير والصياغة الأدبية.

كان الدافع وراء تسجيل هذه الشهادات هو الخوف من أن يدرك الفتكُ الإسرائيلي المزيدَ من الصحفيين، أو أن تخبو الذاكرة، أو يغلفها النسيان، فتضيع حقائق تؤرخ لحرب الإبادة. ليست هذه الشهادات مجرد روايات آنية عابرة، بل وثائق تاريخية تخلد للأجيال القادمة، وتحرر هذه الحرب العبثية من التبسيط المضلل الذي يُختصر في القول إنها بدأت يوم السابع من أكتوبر.

مهما كان تصورنا لحجم المأساة التي يعيشها زملاؤنا في الميدان، فإن الشهادات التي نضعها بين دفتي هذا الكتاب تتجاوز حدود التحمل البشري، وتكاد تتعدّى مفهوم الإبادة الذي نحته فقهاء القانون للجم الجناة الذين ينتظرون المحاسبة. أمّا على صعيد العمل الصحفي نفسه، فلم يشهد تاريخ هذه المهنة أيّ مثال يقترب من نمط الاستهداف الممنهج لجماعة صحفية مهنية، والتنكيل بها، مثلما تسجّله هذه الشهادات.

فها هي أمل حبيب تبحث عن زوجها في ثلاجات الموتى راضية بقدر الله موقنة باستشهاده ثم تجده داخلا إلى المنزل بعد يومين. محمد الصواف أيضا يعود من الموت بمعجزة بعدما سحق الاحتلال عائلته كاملة. لمى الخاطر تحدق في فراغ سجن الدامون الرهيب. أنس الشريف الذي شيع والده وعاد إلى التغطية. معاذ عمارنة الذي استقرت رصاصة في زاوية هشة من رأسه...

في كل مرة كنا نتوصل فيها بشهادة جديدة، كنا نقول: هذه أقسى شهادة، ثم سرعان ما يتبدد هذا الحكم أمام هول المشاهد وحجم التفاصيل المروعة في الشهادة التالية.. الشهادات التالية!

يتولد إحساس قوي بعد قراءة الشهادات أن ثمة رغبة "ساحقة" في تسجيل كلمة وكأنّها ستكون الأخيرة، وتدوين رواية تسعى آلة الحرب الإسرائيلية إلى قمعها إلى الأبد. كان ذلك هاجسا مشتركاً في جميع الشهادات، حيث الخشية من أن يكون الصحفي أو الصحفية "مبرمجا" في بنك أهداف الاغتيالات الإسرائيلية. هذه إذن ليست شهادات ناجين، بل ضحايا محتملين يقترب منهم الموت خطوة أخرى كلما طال أمد هذه الحرب.

مع ذلك، لا نعثر في الشهادات المختلطة بالجرح وبالدم، وبالتراجيديا الجماعية، على رغبة في الاستسلام أو مغادرة الميدان، ففيها نعثر على قصص "الكوافيرة نجوى" التي تجتزئ لحظات فرح من "عرسان الحرب"، وكفاح الأمهات الصحفيات لتعليم أبنائهن، ومواجهة شح الحياة أو انعدام أسبابها، وتوثيق لحظات الاحتفالات بالأعياد والمناسبات.

لا يؤطر هذا البوح العفوي المتحرر من القواعد الصارمة للبث المباشر أو أصول الكتابة الصحفية، الصحفيَّ الفلسطيني في ثنائية "الضرر الجانبي" المجرد من القيمة البشرية أو "البطل الخارق" المستعد للتضحية بحياته، إنما هو صحفي باحث عن الحقيقة فاضح لانتهاكات الاحتلال المستمرة، وحيد وأعزل في الميدان ينقل صوت الضحايا إلى العالم، ظنا منه أنّه قد يتحرّك أو يفعل شيئا.

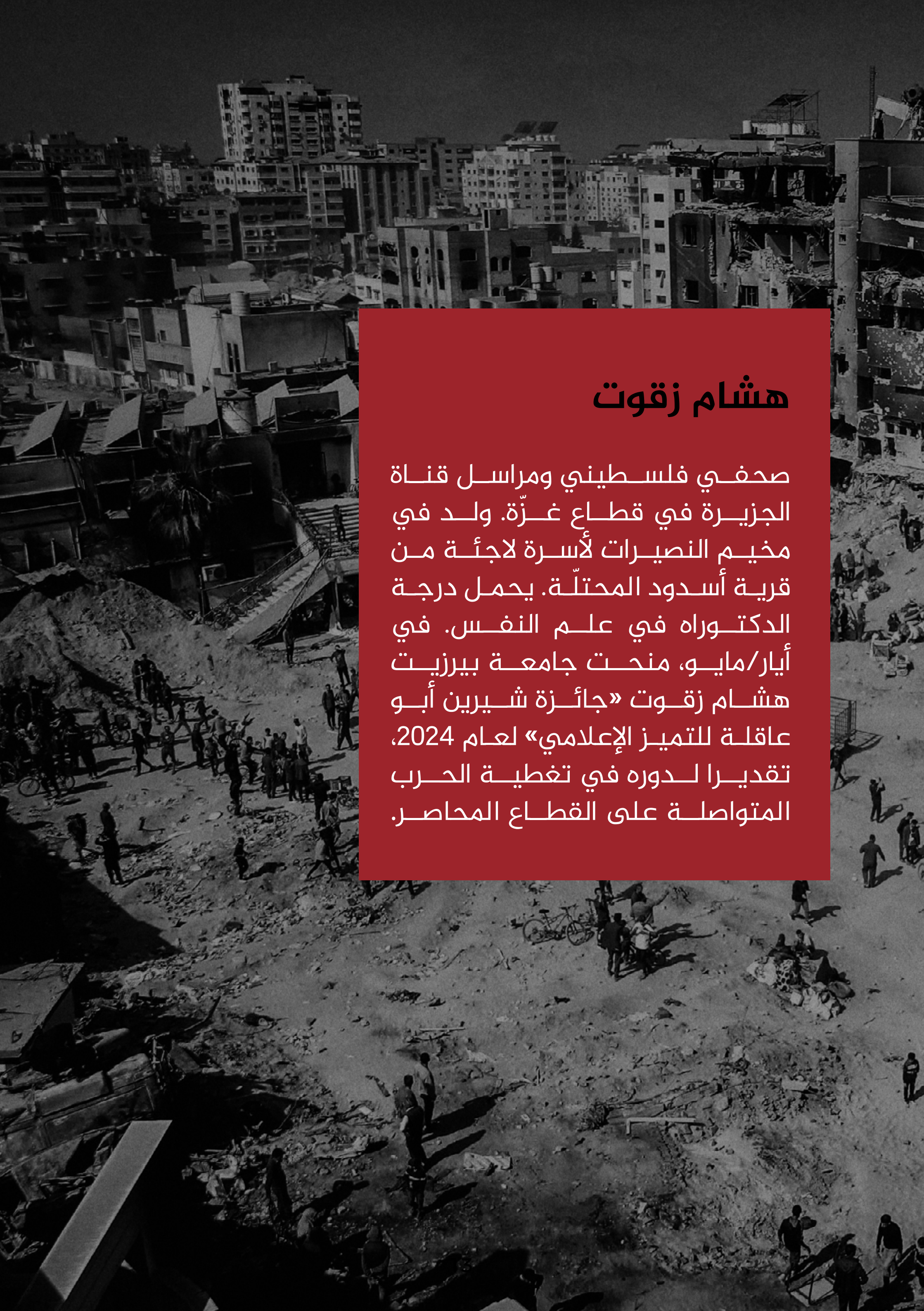
إنهم 16 صحفية وصحفيا، يمثلون الصحفيين الفلسطينيين الذين "وحدهم غطوا الحرب"، بعدما أغلق الاحتلال غزة في وجه الصحافة الدولية، وتخلت عنهم المنظمات الدولية، يسردون تفاصيل، نزعم أن جزءا كبيرا منها سيتعرف إليه القارئ لأول مرة.

لو كان المجتمع الدولي نزيها وعادلا، لشكل هذا الكتاب "دليل إدانة" من الدرجة الأولى يحاكم دون هوادة الجناة وقتلة المدنيين، وإن كان ميزان العدل يخضع لغلبة القوي، ويساوي بين الحقيقة وغطرسة القوّة، فإن هذه الشهادات تحفظ طرفا من الذاكرة الجماعية للجسد الصحفي الفلسطيني وهو يغطي حرب الإبادة الجماعية؛ وهي بهذا المعنى شهادات ضدّ الاضطهاد وضدّ النسيان، وهي ضد الموت، ذلك أنّ الأشياء التي لا نكتبها تموت، كما قال إلياس خوري يوما.



بين الحياة والموت

هشام زقوت



هشام زقوت

صحفي فلسطيني ومراسل قناة الجزيرة في قطاع غزّة. ولد في مخيم النصيرات لأسرة لاجئة من قرية أسدود المحتلّة. يحمل درجة الدكتوراه في علم النفس. في أيار/مايو، منحت جامعة بيرزيت هشام زقوت «جائزة شيرين أبو عاقلة للتميز الإعلامي» لعام 2024، تقديرا لدوره في تغطية الحرب المتواصلة على القطاع المحاصر.

1

بين الحياة والموت

هشام زقوت

صورة الحجارة الملقاة فوق بعضها كأنها سماوات أطبقت فكيها على فرائس الأرض، بكاء العالقين تحت الركام وقد مُزقت أطرافهم أو خُنقوا بالرمال وفتات الحجارة، لهاث الناجين يتحسسون في العتمة أقدامهم وأعناق محبّيهم ليتأكدوا أنهم على قيد الحياة أو سافروا وحان وقت العناق الأخير! أركض أنا وكاميرتي ومصيري، أدور وأدور حول مسرح الموت، أتتبّع الحدث، قبل أن يدكنا صاروخ، وقبل اختراق الأجساد وبدء انتشالها وللمة أكوام اللحم والدم المتناثرة في كل مكان.

أدعي أني أكابر، ولكن هل أستطيع تجاهل مشاهد إخوتي وأصدقائي وجيراني وهم يتقلّبون في الحميم والقصف والفقد؟!

لم يكن صوت إطلاق النار عاديا، ولا حتى القصف العنيف والقريب من مكان إقامتنا في رفح، في السابع والعشرين من مايو/أيار الماضي. فجأة ومن دون سابق إنذار، وبعد أن غابت الشمس بقليل، كثّفت قوات الاحتلال التي كانت متوغلة في الأحياء الشرقية لمدينة رفح من قصفها للأحياء الغربية، تحديدا للحي الذي كنا فيه قرب الشارع الرئيس المؤدّي إلى حي تل السلطان.

مع حلول الظلام، بات القصف أشد عنفا، وبتنا محاصرين من كل الجهات. شاهدنا من شبابيك شقتنا في الطابق الرابع الدبابات الإسرائيلية التي لا تبعد سوى أمتار قليلة عن مكان إقامتنا. عشنا لحظات خوف ورعب، ولم يتحمل

القلب أكثر من ذلك. جمعنا أغراضنا، وانتقلنا إلى الطابق الأرضي وقررنا البقاء فيه؛ فالخروج في مثل هذه الأوضاع يعني الموت المحقق!

ولأنها لحظةٌ تاريخيةٌ لنا، فإنه سرعان ما ينهض الصحفي الكامن فينا: نوثق ما يجري وما سيجري هذه الليلة من دون أن نعرض أنفسنا للخطر؛ فقد تكون آخر صور لنا في هذا المكان، ولعلها تكون الشاهد الوحيد على وجود أحياء هنا!

وفي ظروفنا القاسية اختفت أسلحتنا الصحفية العتيدة، ولم نعد نملك تلك المعدّات والكاميرات التي نحبّها وتحبّنا كأنها جزءٌ من أرواحنا!

أصبح الهاتف، مصدر الأخبار الوحيد، أداة التوثيق والتصوير الأساسية، بعد أن كان وسيلة ثانوية لا أهمية لها أمام كاميراتنا وعدساتنا الحديثة المنتقاة بعناية فائقة!

هذه الحرب مختلفة بكل المقاييس، لا استقرار فيها، ولا مكان آمن، تركنا كثيرا من معداتنا خلفنا في مدينة غزة التي كانت مقرنا الأساسي، على أمل العودة القريبة إليها!

ومع طول المدة والتغطية المستمرة والمتواصلة على مدار الساعة، إضافة إلى الاستهداف المباشر للكاميرات ومن يحملونها، بتنا نفقد أهم عنصر في تغطيتنا. لم نفقد الكاميرا فحسب، بل أيضا ذاك الصحفي العنيد، والمصور الفذ الذي ظل يحافظ على اتزانه ويخاطر بحياته جنبا إلى جنب مع المراسل الذي يتنقل من مدينة إلى مدينة ومن زاوية إلى أخرى، لينقل الأحداث ومعاناة السكان، ليتفاجأ بالاستهداف، وما مصور قناة الجزيرة سامر أبو دقة الذي استُشهد وحُرم من وصول سيارات الإسعاف لإنقاذه إلا واحد من عشرات الصحفيين الذين تعمد الاحتلال استهدافهم وقتلهم.

ومع تواتر استهداف الجزيرة ومصوريها، وصحفيي غزة عموما، وفقدانهم لمعداتهم بسبب القصف وعوامل العمل المستمرة أيضا، وفي ظل منع قوات الاحتلال لدخول معدات جديدة إلى القطاع، كان الموبايل هو المنقذ والخيار الوحيد والأسرع أمام تطور الأحداث وتسارعها في حرب الإبادة الجماعية.

لم يكن، في أول وهلة، استعمال الهاتف سهلا على صحفيٍّ اعتاد "الأناقة" والاحتراف في عمله وتصويره، لكنّنا تأقلمنا كما تأقلمنا على ظروف الفقد والمجاعة والحرمان من أبسط مقوّمات الحياة!

حمل الصحفي الهاتف فكان خير سند له في متابعة الأخبار ونشرها والتواصل الدائم مع العالم وغرف الأخبار؛ فلا حواسيب هنا، ولا مكاتب، فكان خير معين للمصور الذي يتنقل من مكان إلى آخر حيث أصبحت الكاميرا تشكل خطرا على حياتنا، لعدو يخاف أن تفضحه الصورة وتعريه أمام العالم.

غابت الكاميرا التقليدية عن المشهد، وحل مكانها ذلك الجهاز الصغير، من خلاله نلتقط الأحداث ونوثقها، ونتابع الأخبار لحظة بلحظة عبر تطبيقات التراسل الفوري. فعلنا ذلك في زمن يستهدف فيه الاحتلال كل وسيلة لإسكات الصوت والصورة، إذ دُمرت سيارات البث المباشر، فظل هذا الجهاز صامدا، يواصل مهمته المستحيلة، ناقلا الحقيقة من قلب الحدث مباشرة إلى العالم. لم يكن مجرد أداة، بل كان نافذتنا على الحياة، وشاهدنا الذي لا يخضع للقصف أو الإخفاء، ليظل صوت الحق حاضرا رغم كل محاولات الطمس.

ولعل الاحتلال اكتشف حيلنا للاستمرار في العمل الصحفي، فكانت المرحلة الأصعب هي قطع الإنترنت، وكان الموبايل حاضرا أيضا ليحلّ تلك المشكلة الصعبة؛ فمن خلال الشرائح الإلكترونية حصلنا على الإنترنت، وتجاوزنا أخطر

مرحلة حاول الاحتلال خلالها عزل قطاع غزة عن العالم، وتغييب صورة القتل والتدمير عن الشاشات.

أقرب إلى الموت

كانت تغطية الحرب في غزة ولا تزال من أخطر المهام وأقربها إلى الموت والخطر؛ فالصحفي متهمٌ ومستهدفٌ مباشرة، ومضطرٌ دائما إلى إيجاد بدائل لكل شيء مفقود، بدءا من معداته التي يستخدمها للتغطية أو لحماية نفسه حتى يقطع على الاحتلال كل مبرراته لاستهدافه (ولو أنه يستهدف من دون مبررات)، أو بدائل الحياة اليومية.

على مدار عام من هذه الحرب، حلّت الخيمة مكان المباني في غزة كلها، فلا بيوت ولا مؤسسات ولا مقارّ أعمال لمؤسسات صحفية. كنا نحمل خيامنا معنا أينما ارتحلنا بعيدا عن القصف ومناطق الإخلاء، نحملها على عربات الحيوانات والشاحنات، ومشيا على الأقدام!

نحمل الخيام ونقصد المناطق القريبة من البحر الخالية من مقومات الحياة، فلا كهرباء ولا مياه ولا وقود، وما يتبقى من وقود شحيح يصل إلى مؤسسات دولية محددة، نستخدمه في أغراض محدودة ومقننة جدا، لنُجبر على العودة إلى الحياة البدائية.

على مدار عام من هذه الحرب، كانت المستشفيات أو أرصفتها مقارّ لنا، وأمام بواباتها نصبنا خياما في كل مرة سعيا إلى الحصول على بعض الخدمات؛ فهي المكان الوحيد في كل قطاع غزة، الذي يتوفر على الكهرباء، من مولدات تعمل مؤسسات دولية على توفير وقود لتشغيلها وإبقائها على قيد العمل، ومن ثَمّ الحصول على الماء والإنترنت لنضمن على الأقل العودة إلى التغطية.

وبعد الانتهاء من تجهيز مقارّ العمل للعودة سريعا إلى الشاشة، تبدأ معارك مختلفة لتوفير بدائل لكل ما يمنعه الاحتلال من الوصول إلى سكان قطاع غزة، حتى وإن كان بسيطا. لم تكن الحرب نارا وبارودا بريّا وبحريّا وجويّا فقط، بل كانت حربا على كل ما يساعد الفلسطيني على البقاء أو يعينه على التماسك والاستمرار في الحياة؛ فتارة يمنع الاحتلال وصول الدقيق، ثم يعود لإدخاله بعد ضغوط دولية سرعان ما تعود فتخفت؛ إنه سلاح الجوع الذي وظفه الاحتلال ضدنا منذ بداية حرب الإبادة الجماعية.

قد تتغيّر معاني الكثير من مفردات اللغة عند التعبير عن هذا الموت ووصفه؛ إذ يمكن مثلا القول إن الاحتلال "تفنّن" في ممارسة وحشيته وإطباق حصاره علينا، وأنه لم يترك لنا بابا للموت إلا وفتحه، مثلما أغلق كلّ أبواب الحياة وأطبقها علينا تماما. الدواء –على سبيل المثال- الذي هو حقٌّ مشروع لكل الكائنات ليس متاحا لشعب يعاني بسبب آثار الحرب المرض والإصابات البليغة، حتى إن مسكنات الآلام البسيطة لم تعد متوفرة.

عجزنا هذه المرة عن إيجاد بدائل لكل الأدوية، رغم أن الصيدليات فتحت أبوابها في خيام مصنوعة من القماش المقطع، وعاد للعمل أيضا المستشفى الوحيد القابع وسط خانيونس، وآثار الدمار والقصف تحيط به من كل جانب، لتذكرنا في كل مرة، أن الحرب لا تزال مستمرة، وأنه لا ذنب لمن يحاول توفير الدواء أو تقديم خدمة طبية؛ لأنهم يقدمون أقصى جهد لإنقاذ الجرحى من "أهوال" أيام تذكّر فظاعتها بأهوال يومِ القيامة.

حُرِمنا من كل شيء، حتى من مواد التنظيف، لا شامبو ولا صابون ولا معجون أسنان، ولا حتى مسحوق غسيل للملابس، ومع انتشار الأمراض انضافت أعباء جديدة على تغطياتنا الميدانية؛ فإلى جانب القصف وعدم وجود مناطق

آمنة، ظلّت الأمراض تلاحقنا، لأننا نتنقل بين خيمة وأخرى، لننقل معاناة النازحين القابعين في خيامهم، التي تُقصف بين يوم وآخر.

"شتاء وصيف"

يعاني الناس في قطاع غزّة اليوم من تردٍ شامل بظروف حياتهم، لاسيما مع عدم توفّر الملابس اللازمة ومنع دخولها بالكامل. ولا أكتم سرا هنا حين أقول إن ملابسي قد "تهرأت"، وهذا هو حال حذائي الذي نزحت به في المرة الأولى. لم نتوقع أن يمضي هذا الوقت كله من دون العودة إلى ديارنا، أو على الأقل لم نكن نتوقع أن يكون العالم وشعوبه شهودا على هذه الإبادة التي تمارس بحق الفلسطينيين، ولم يعرف لها العالم مثيلا في أزمنة الحداثة وموت الضمير الحي للبشرية.

مر الصيف وجاء الشتاء وحصلنا بالكاد من الأقارب والأصدقاء على بعض الملابس الشتوية لنا ولعائلتنا، وإلى الآن، وقد مر عام من الحرب، لم تدخل إلى القطاع المنكوب أيّ قطعة ملابس أو أحذية تستر جلودنا وأجسادنا المتهالكة من هذا النزيف المستمر.

وعلى ما يبدو، فإن الحياة -لمن بقي على قيد الحياة- في غزة، تزعج الاحتلال وقادته، فقرروا أن من لم يمت بالقصف سيقتلونه إما مرضا، وإما جوعا، وإما قهرا.

كل هذه التفاصيل وغيرها الكثير، يجب أن توثق، لعلها تكون شاهدا على حجم جرائم الإبادة بحق شعب ذاق قساوة الحروب على مدار سنوات طويلة، وها هي حرب جديدة تسعى للقضاء على كل أمل بالحرية والانعتاق من الاحتلال.

وخلال معركة البحث عن البدائل، دارت بداخلي على الدوام معركة خفية أهرب من البوح عن تفاصيلها، وأنتظر نهاية لهذه الحرب المجنونة، لعل العقل قد يجد طريقا للهرب من التفكير، فأسكّن القلب عن الاشتياق؛ إنها معركة لا بدائل فيها، فكل الشركاء فيها قد رحلوا، من أصدقاء وزملاء وأقرباء وجيران، عشت معهم وعايشت أياما مريرة من الحرب.

في السادس من كانون الثاني/يناير 2024، وبعد نحو مئة يوم من التغطية في دير البلح وسط قطاع غزة، قررت وفريقي التوجه إلى رفح في أقصى جنوب قطاع غزة. كان ثمة عدد غفير من الزملاء نصبوا خيمة لاستخدامها مقرا للعمل، منهم حمزة وائل الدحدوح، الابن البكر لزميلنا وائل، وهو الزميل حديث العهد في قناة الجزيرة الذي عايشته عندما كان طفلا فكبر وبات زميلا. وبين الأحضان وكلمات الاشتياق وتقليب الذكريات مضت الليلة الأولى لي في رفح، لم يتركني حمزة لحظة واحدة، وفي ساعات المساء رافقته لخيمة الصحفيين التي كانت مأوى لعدد من صحفيي مدينة رفح. تسامرنا مع رفيقه مصطفى أبو ثريا، وتحدثنا عن ظروف الحرب، وتحليلات المستقبل، وتواعدنا على اللقاء في الأيام المقبلة.

في الصباح، أصر حمزة على أن نُفطر معا، وبعد ذلك قال لي: خذ لي صورة في أول بث مباشر لي من رفح، ونشرها على حسابه على إنستغرام، الذي كان أحد أبرز الحسابات وأنشطها في تغطية الحرب، وغادر مع مصطفى أبو ثريا لتصوير حدث في شمال رفح.

لم أدرك وقتئذ أن حمزة يودعني، ويصور لحظاته الأخيرة معي. اتصل بي أحد الزملاء الصحفيين ليخبرني أن حمزة أصيب في قصف إسرائيلي على سيارة، هرعت إلى المستشفى لأجده مسجىً شهيدا.

كيف يمكن أن أبلغ والده وائل، الذي لم يمض على فقدانه زوجته وأبناءه وحفيده سوى أسابيع قليلة؟ لم أجرؤ على ذلك، حضر وائل وكان مسلّما بأمر ربه كعادته، يسطر دروسا في الصبر.

ولم يطرق الفقد "أبو حمزة" فحسب، بل القائمة طويلة، وجميعهم يحتلون مكانة في القلب. لقد كنت أتفقد في كل مرة تحضر فيها سيارة الإسعاف وجوه الشهداء والجرحى، خوفا من أن يكون قريب أو صديق بينهم.

هذا ما حدث بالضبط عندما قُصِف منزل عمتي في رفح، وصلت الإصابات تباعا إلى مستشفى الكويت، حيث نصبنا خيمتنا، وإذا الشهداء أطفال ونساء، وكثير من الأشلاء: هذا الشهيد أعرفه، وذاك أيضا، وهذا الطفل كذلك، وهذه وهذا، وكان منهم ابن عمتي عبد الفتاح وعائلته كلها، لقد شطبهم الاحتلال من السجلات، وقتل النازحين في منزلهم الموجود في منطقة تسمى زورا بأنها آمنة.

لم تمض أسابيع حتى قصف الاحتلال منزل جدي في حي الدرج بمدينة غزة، دمره وسواه بالأرض، وقتل كل من في داخله؛ زوجة خالي وأبناءها وبناتها وعائلاتهم وأطفالهم، ومنهم من وجد جثمانه، ومنهم من لا يزال مفقودا، ولكن هذه المرة لن أشارك في تشييع الجثامين، لن ألقي عليهم نظرة الوداع الأخيرة، فالحاجز بيننا كبير وخطير، بعد أن شطر الاحتلال قطاع غزة الصغير إلى نصفين، ومنع الوصول إلى مدينة غزة من وسط القطاع وجنوبه.

حتى وأنا أخط هذه الكلمات، حاولت أن أهرب من ثقل الحكاية، ولكني أجد نفسي أعود إلى ذكرى الشهيد والمصور سامر أبو دقة. الدموع تفيض من عينيّ كلما نطقت باسمه، فكيف بي وأنا أحاول كتابة بعض السطور عنه؟ لقد أخبرته يوما، وكأنني أتوقع قدره من دون أن أدري، أنني بت أعرف الشهداء

قبل استشهادهم، من طريقتهم في الحياة، من ملامح وجوههم، ومن ذلك الشعور الغريب الذي يراودني كلما تحدثت معهم، ولم أكن أعلم أنني كنت أتحدث مع واحد منهم حينئذ.

يا الله، أي عجز هذا الذي أصابنا؟ عجزنا أن نسعف سامر وهو ينزف أمام أعيننا لأكثر من ست ساعات، لم نستطع أن نحضر سيارة إسعاف، فقد كان القصف الإسرائيلي يحيط بكل شيء. وهل يوجد عجز أشد من ذلك؟ أن يُستشهد سامر ونحن نقف مكتوفي الأيدي، لا حول لنا ولا قوة؟

أي كلمات في المعجم يمكن أن تلامس عمق هذا الفقد؟ كيف يمكن أن نصف ألمنا على سامر، وعلى باسم وعثمان، وأحمد وعبد السلام، وجميل وفتحي، وسما حمزة، وكثير غيرهم ممن فقدناهم، ومن سنفاجأ بفقدهم حين تنتهي هذه الحرب؟

إنها تفاصيل يومية لصحفي وإنسان من غزة، يتابع يوميا الصور والفيديوهات في كل مسرحٍ للخوف، وما يرافقها من صراخ وقصف، ويقف على الشاشة ليشرح ويقرب للمشاهد ما جرى ويجري، أصف له تلك الأصوات والمشاهد، ولكن في كثير من الأحيان يعجز الصحفي في داخلي عن إعادة ترتيل الوجع أو تدويره.

فهل يمكن أن يُصغي قلب الكون لحكاية صحفيٍّ ينام ويصحو على القصف المدوّي كأنه صيحة الموت الأخيرة؟ هل يستطيع فهم تلك اللحظة التي تكاد تنشقّ الأرض لجبروتها وهولها؟ ثم لا يتوقّف الأمر عند هذا الحد، إذ عليه أن يركض وسط الغبار وتحت ألسنة النيران ورائحة الدم والدخان ليصوّر المشهد كاملا، أو جزءا من الصورة التي لا يمكن أن تحصرها عدسةٌ أو نشرة أخبارٍ أو رواية أدبية مهما كان طولها.

في الناحية الأخرى، أقصد مشهد النزوح المعهود منذ عام، وقد تراكم الألم فوق صدري كما تتراكم ذرات الرمل في مجرى التنفس فتغلقه تماما، كنتُ أسير بين أزقة النازحين وكأنني أجرّ جبالا من الحزن خلفي. أستند إلى قلبي الذي يشتاق إلى من يسنده ويطبطب عليه، أواسي العابرين الموجوعين في كل مكان، والأطفال المعفّرين بالبؤس والحرمان، وكبار السن المكلومين وقد علَّمَت على وجوههم خطوط الزمن الباهت، والنساء والصبايا اللواتي حرمن من معنى الحياة وقيمتها وصار الكدّ والشقاء عنوان المرحلة!

ذاك الشريط الضيق المحصور بين البحر والنار، هو المأوى الوحيد لأهلي وعائلتي وسكان القطاع، وهو الأرض التي أقف عليها أسرد ما أرى من تفاصيل الجوع والازدحام وضيق الحال، وأشعر وأنا أنقل معاناة أهلي في خيامهم وحرائقهم كأن صوت الميكروفون مكتوم، كأنه بلا صوت، أو كأنني طفلٌ يصرخ في الحلم ولا أحد يشعر به!

كيف تستطيع الكاميرا والميكروفون تجسيد فكرة المعاناة بأبعادها وأشكالها كاملة؛ الروحية والجسدية والاقتصادية؟ كيف يصير الماضي عبئا والحاضر رعبا، والمستقبل مجهولا؟!

كيف أقول إن ثلثي الشعب المحاصر يحاصر من جديد في ربع مساحة الأرض وإنه محرومٌ من العودة لبيته أو حتى لركام بيته!؟ كيف أقول إن الخيمة لا تصلح للنوم ولا الاستقرار ولا الانتظار ولا حتى للموت!

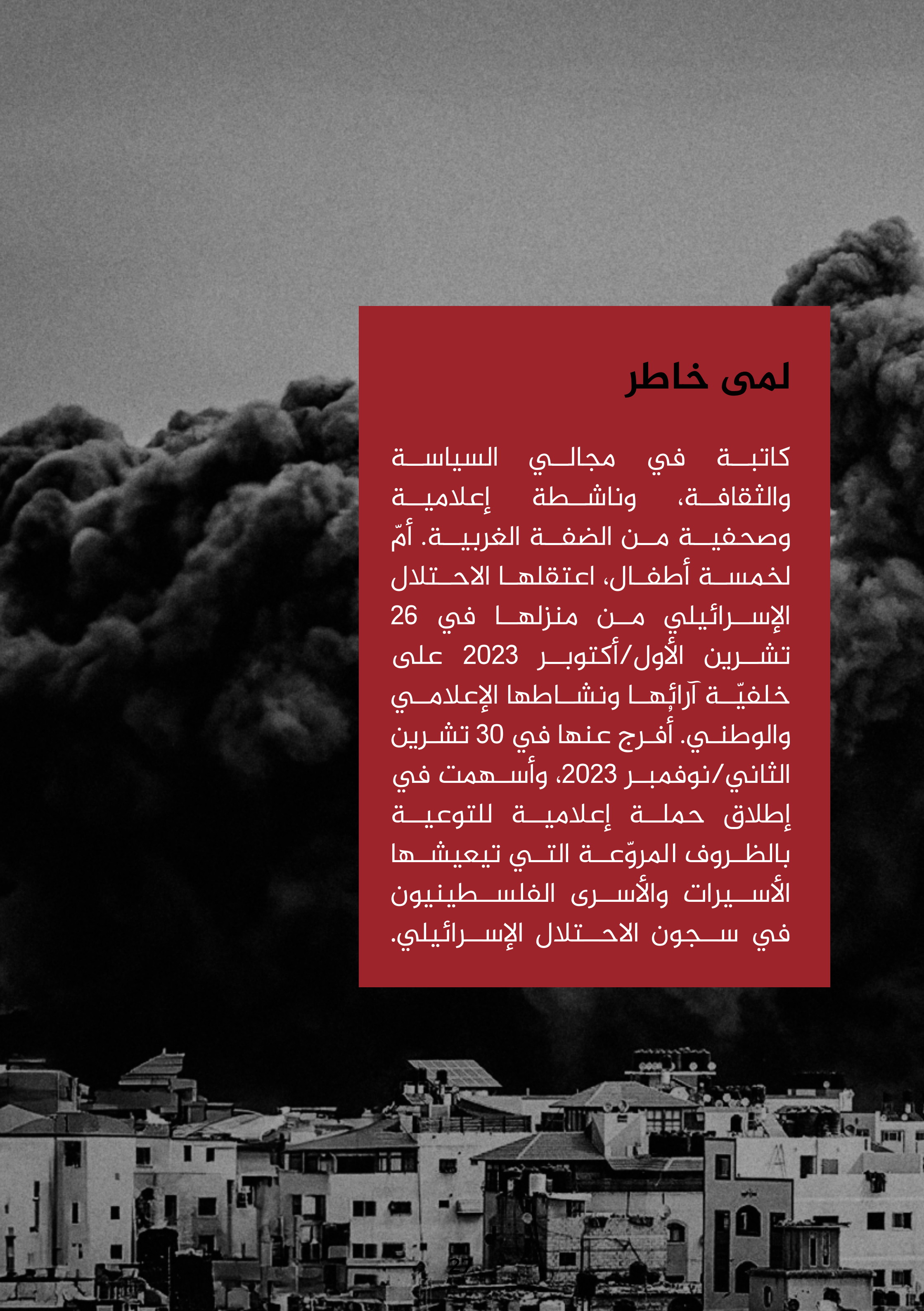
هذه الصورة أنقلها ويتداولها الإعلام العربي والغربي، وهذا التقرير يسرد الحكاية، وهذا الخبر يجيء على شكل شريط في نشرة أخبار متأخرة، وهذا الإنترنت يتحدّث فيه الجميع عن مأساتنا وصمودنا في آنٍ واحد، ولكن...

هذا هو قلبي عالق بين الأمل واليأس، لا يعرف أيّ وجهة يختار! ولكنه يجمع بينهما في الوقت ذاته؛ ربما لأنّ هويتي التي "كانت تسمّى فلسطين وصارت تسمّى فلسطين" اعتادت أن تجمع الأضداد في قلب وصوت واحد، ولأن غزة علّمتنا أن نحيا والموت يحلق فوقنا، وأن نكابر والذكرى تخنق أفئدتنا، وأن نركض خلف الحقيقة لأننا أبناؤها، وقد يسلبها العالم الظالم منّا وينسبها لنفسه جورا وعدوانا، ولا خيار أمامنا إلا أن نعانق الكاميرا ونرفع الصوت ليعلو أكثر، ويتعالى الحق من بقعة النور والعتمة، الموت والحياة، الحب والحرب، غزة!



أن تُحدّقَ في الفراغ

لمى خاطر



لمى خاطر

كاتبة في مجالي السياسة والثقافة، وناشطة إعلامية وصحفية من الضفة الغربية. أمّ لخمسة أطفال، اعتقلها الاحتلال الإسرائيلي من منزلها في 26 تشرين الأول/أكتوبر 2023 على خلفيّة آرائها ونشاطها الإعلامي والوطني. أُفرج عنها في 30 تشرين الثاني/نوفمبر 2023، وأسهمت في إطلاق حملة إعلامية للتوعية بالظروف المروّعة التي تيعيشها الأسيرات والأسرى الفلسطينيون في سجون الاحتلال الإسرائيلي.

2

أن تُحدّقَ في الفراغ

لمى خاطر

كأنهما كانا سجنين مختلفين، أو في ظل كيانين مختلفين؛ ذاك الذي وصلتني وأنا فيه رسالةٌ عبر البريد من ابنتي مطلع عام 2019 وفيها عبارة أدمعت عينيّ وصدعت قلبي: "أهلا أمي من الرصيف الآخر من الشتاء، ذاك الرصيف البارد الذي وقفتُ عليه وحدي، أنتظر مظلّة قلبك لتحميني من برد الغياب"، وذاك الذي سُجنت فيه أواخر عام 2023، في ظل حرب الإبادة على غزة، وما تفرع عنها من انتهاكات انتقامية في كل الساحات الفلسطينية. وقد كان للسجون قسط كبير من العذاب والتنكيل في الشهور الطويلة الماضية؛ إذ تبدّل حالها بصورة كلية منذ السابع من أكتوبر، فظهر كيان الاحتلال عاريا من كل مساحيق الأخلاق وأقنعة مراعاة حقوق الإنسان، وكأن هذه الحرب أعادت تذكيرنا بأصل هذا الكيان وجوهره، وأحالت أنظارنا إلى بحر الدماء الذي أسّس عليه وجوده في فلسطين.

كان السجن في كلتا الحالتين هو نفسه، الدامون[1]، على قمة جبل الكرمل في حيفا، وفيه تُعتقل الأسيرات الفلسطينيات جميعهن، المصنّفات "أمنيّات"؛ أي معتقلات على خلفية النشاط الوطني. في هذا السجن، أمضيت معظم فترة اعتقالي الأولى بين عامي 2018 و2019، وكل فترة اعتقالي الثانية التي كانت بتاريخ 26 تشرين أول/ أكتوبر 2023، أي بعد نحو عشرين يوما من بدء معركة طوفان الأقصى.

---

[1] يقع في حيفا في جبال الكرمل، على أراض تابعة لخربة الدامون المهجّرة عام 1948. أصبح هذا السجن منذ تشرين الثاني/نوفمبر 2018 السجن المركزي لجميع الأسيرات الفلسطينيات. تؤكّد تقارير عديدة أن الأسيرات في سجن الدامون يعشن في ظروف قاسية ومشدّدة، تضاعفت عليهنّ منذ عملية "طوفان الأقصى".

غير أن سجن الدامون، ومثله كل السجون، لم يعد على الحال الذي كان عليه قبل الطوفان؛ فإن كانت الرسائل فيما سبق تهوّن علينا شيئا من البعد عن عائلاتنا وهي تصلنا منهم عبر البريد، فإنها اليوم باتت ممنوعة تماما ومثلها كل أشكال التواصل مع الأهل من زيارات أو اتصالات. لقد جعل الاحتلال السجن حبسا للفلسطيني عن كل شيء، وعن العالم الخارجي أولا بكل ما يحدث ويتفاعل فيه من أخبار وأحداث، وصولا إلى حظر الأوراق والأقلام، وما يموج معها من ذكريات وأُمنيات، ولعلي أعود لاحقا إلى شيء من التفصيل بخصوصها وحكاياتي معها.

لكنّ ذهني الآن يرحل إلى لحظات وصولي الأولى إلى مركز تحقيق عسقلان في آب/ تموز 2018، حين بادرني المحقق بالقول: "نحن لم نعتقلك بسبب كتاباتك، إنك لو نفذت عملية استشهادية على الورق فلن يكون هذا سببا كافيا لاعتقالك". أنا صحفية فلسطينية، ورغم أن كتاباتي ونشاطي في هذا المجال ظلّت حاضرة في معظم جولات التحقيق لاحقا، فإنني أستذكر في المقابل ضباط الشاباك الستة الذين أُجبِرنا على مقابلتهم يوم التحرير في صفقة تشرين الثاني/ نوفمبر 2023، التي جرت بين كتائب القسام وكيان الاحتلال، وقد تحررتُ ضمن الفوج السادس فيها. كانت تهديدات أولئك الضباط تتطاير في كل اتجاه، ولكن فحواها واحدة: ممنوع أن تكتبي حرفا واحدا في أي مكان بعد خروجك، وإلا فسنعيد اعتقالك ونضاعف لك عقوبة السجن، ولا تظني أنك محظوظة لخروجك في الصفقة!

ربما كنتُ سأظل حبيسة القضبان حتى كتابة هذه السطور لو لم أخرج في صفقة "الحرية"؛ ذلك أن ضابط الشاباك الذي اقتحم منزلي رفقة عشرات الجنود ليلة الاعتقال توعدني بمدة اعتقال طويلة، بل إنه صرخ في وجه زوجي متوعّدا: "لا تنتظر زوجتك لأنها لن تخرج هذه المرة، وتزوج غيرها وانس أمرها!". حينئذ، وبعد أسبوعين من اعتقالي، رجعوا إلى زوجي واعتقلوه هو الآخر، ولم يخرج إلا بعد ثمانية شهور.

ليلة الاعتقال

في ليلة الاعتقال أدركت أننا أمام مرحلة جديدة، عنوانها إطلاق يد الاحتلال في ممارسة ما يحلو له من اعتداءات وانتهاكات، في السجون وخارجها؛ "إسرائيل" بعد السابع من أكتوبر فقدت عقلها تماما، أو ظهرت كما هي على وجه الحقيقة.

أيقظتني يومئذ ابنتي نحو الساعة 2:30 فجرا بعد أن سمعت وقع خطوات الجنود حول منزلنا في مدينة الخليل، في الضفة الغربية، ولم أكد أنهض وأرتدي حجابي سريعا حتى وجدت الجنود في غرفة نومي، ثم وضعوني مع زوجي وأولادي في الصالة وبدؤوا تفتيش المنزل وتخريبه وتكسيره بصورة همجية، وكانوا يصادرون كل ما يجدونه من مجلات وكتب ومقتنيات إلكترونية، ويحضرونه ويضعونه أمامنا على الأرض، كانوا جميعا ملثمين، باستثناء ضابط المنطقة الذي ظل يصرخ ويهدد طوال الوقت ويطلق سيلا من الشتائم القذرة لنا وللمقاومة ورموزها. من ضمن ما قاله لي: "لقد كنتِ مسرورة يوم السابع من أكتوبر، وسنحاسبك على ذلك"، قلت له: "هل ستحاسبني على مشاعري؟"، فأجاب: "سنحاسبك على كل شيء، الآن كل شيء تغير، السجن سابقا كان نزهة، وقبل ذلك كنت أسيرة، واليوم أنت أسيرة حرب، ولا يوجد أي حقوق لك"، ثم التفت إلى زوجي قائلا: "وأنت سنحاسبك لأنك تسمح لها بأن تفعل ما تريد ولا تمنعها، لو أنها زوجتي لضربتها وخلعت رأسها"، فردّ عليه زوجي: "إن كنتم تضربون نساءكم فنحن لا نضربهن، وزوجتي حرة في فكرها وأفعالها".

كنتُ أفكر بسخرية في تلك الرداءة التي بدا عليها ضابط الاحتلال، وهو الذي يمثّل دولة تدعي صون حقوق المرأة والمساواة بينها وبين الرجل في كل شيء،

واحترام القيم الليبرالية، كيف لا يتورّع عن استخدام خطاب ذكوري بائس لكي يحاول قهر امرأة عدوة له، بتحريض محيطها الاجتماعي عليها؟ يسعى السجّان إلى دفع الرجال في محيط المرأة ليكونوا سجانين لها من نوع آخر، في سلوك يتكرر مع الأسيرات الفلسطينيات جميعهن؛ إذ يقع الضغط على الرجل ليمارس بدوره ضغطا عليها، أو يمنعها من النضال أو الكتابة، فيتخلص من دورها داخل مجتمعها وضمن قضية التحرر.

بعد نحو ساعتين من التخريب والتهديد والصراخ، فتشتني إحدى المجندات واقتادوني خارج المنزل من دون السماح لي بتوديع عائلتي أو حتى دخول الحمام، أو شرب الماء، أو أخذ بعض الملابس. مشيتُ والسلاح موجه إلي نحو مئتي متر إلى أن وصلتُ إلى الناقلة التي ستحملني إلى السجن، وقبل دخولها عصبوا عينيّ وقيّدوا يدي، ثم رموني على أرضية الناقلة، وبقيت على هذه الحال، حتى وصلتُ إلى محطة الاعتقال الأولى في معسكر قرب مستوطنة كريات أربع في الخليل، وكنتُ طوال الطريق منشغلة باستجماع نفسي وضبط مشاعري، وأستعين بالدعاء وآيات القرآن حتى أجهز نفسي لمواجهة القادم المجهول، وقد توقعتُ أن يكون قاسيا ومختلفا عن كل ما سبق.

أنزلوني إلى ذلك المعسكر وبقيت على وضعية التقييد وعصب العينين، واقتادوني مسافة شعرت بطولها، قبل أن يدخلوني إلى مكان لم أتبيّن ملامحه، ثم ما لبثت أن سمعت صوت أحدهم (قدرتُ أنه ضابط شاباك) يتحدث إليّ. بدأ حديثه بالصراخ بشأن السابع من أكتوبر، وأراد استجواب قناعاتي عمّا حصل، ثم قال فجأة: "في هذه الغرفة يوجد 20 جنديا، سأتركهم يغتصبونك كما فعلت جماعتك بالنساء اليهوديات في مستوطنات الغلاف". صعقني ذلك التهديد، وأيقنتُ أن كل ما رأيته من وحشية وحقد يمكن أن يؤدي بهم فعلا إلى تنفيذ تهديداتهم، ولكنني استجمعت شجاعتي وقلت له: "أنتم تكذبون، لا يوجد أي حالة اغتصاب جرت في مستوطنات الغلاف، هذه كلها

افتراءات لكي تبرروا بها همجية جنودكم، وتزرعوا فيهم نزعة الانتقام". ثارت ثائرته وبدأ بالصراخ قائلا: "إن كنت تنكرينها فسأحضر ابنتك التي رأيناها في المنزل لأغتصبها أمامك، أو لعل الأفضل أن أذهب الآن وأحرق منزلك مع أولادك كلهم"!

عند تلك اللحظة رفضتُ الكلام، فهددني إن بقيتُ صامتة بأن يتركني على الأرض مقيدة ومعصوبة العينين إلى أن أتكلم، وقد رأيتُ وقتئذ أن الأفضل تجنب خوض أي نقاش سياسي معهم في هذه المرحلة التي فقدوا فيها عقولهم، ولا يرضيهم إلا أن يرى الفلسطيني الأمور كلها بعيونهم، لكنني ما كنتُ لأصمت أمام الادعاءات الكاذبة بشأن اغتصاب الإسرائيليات أو حرق الأطفال يوم السابع من أكتوبر، وهي دعاية تصديتُ لها في كل مراحل اعتقالي حين كانت تُقذف دائما في وجوهنا.

بعد نحو ساعة أو أكثر من جلسة التهديد والصراخ هذه، أدركت أن الهدف منها الترهيب والكسر؛ كسر النفس والإرادة، وخدش الحياء بفعل شتائمهم القذرة، وقبل أن يقتادوني خارج المكان قال لي الضابط: "هناك شيء واحد فقط يمنعنا من تنفيذ ما سمعت، وهو أننا لا نملك إذنا بذلك من الحكومة، ولكن تأكدي أنه سيأتي اليوم الذي تذهب فيه هذه الحكومة وتأتي أخرى تسمح لنا بأن نفعل بكم ما نشاء"! "والآن تنتظرك جولة أخرى في معسكر عوفر، و(سأوصيهم) بك جيدا".

بعد ساعات، وفي حدود الثامنة صباحا، نُقلت إلى معسكر وسجن عوفر[2]، قرب مدينة رام الله، وهذا المعسكر مجمع كبير جدا، فيه سجن ضخم يعتقل

---

[2] هو سجن عسكري إسرائيلي مُقام على أراضي بلدة بيتونيا غرب مدينة رام الله في الضفة الغربية المحتلة، وفيه محكمة عسكرية ومركز توقيف وعدة أقسام لاحتجاز آلاف الأسرى. وثقت تقارير حقوقية عديدة تعرّض الأسرى الفلسطينيين في عوفر إلى معاملة انتقامية وحشية، من ذلك إتاحة الماء 45 دقيقة فقط خلال اليوم، ومنع الغذاء الجيد والكافي، وذلك بقصد نشر الأمراض بين الأسرى، من بينها "الجرب"

فيه آلاف الفلسطينيين، ومركز تحقيق كبير، ومجمع محاكم عسكرية. في سجن عوفر أدخلوني إلى زنزانة باردة خالية من أي شيء، وأنا مقيدة ومعصوبة العينين، ولكنني تمكنت من ملاحظة بعض معالمها من أسفل العصابة. بعد حوالي نصف ساعة فُتح باب الزنزانة وأدخلوا أسيرتين، لم أعرفهما في البداية، وقد لاحظت اتساخ ثيابهما بالأتربة، ثم عرفتُ أنهما رقية عمرو ومريم سلهب، من الخليل أيضا، واعتُقلتا في ليلة اعتقالي نفسها. كانتا متعبتين للغاية، والقيود تحز معصميهما على نحو مؤلم. أخبرتني مريم أنهم تركوها على الأرض في معسكر كريات أربع ووجهها إلى التراب عدة ساعات، وكانوا يدعسون على ظهرها كلما حاولت رفع وجهها لتتمكن من التنفس.

رغم ضيق الحال نفسيا وجسديا نتيجة التعب والقيود وما واجهناه من تعامل وحشي في الساعات السابقة، فإن اجتماعنا في زنزانة واحدة بثَّ داخلنا شيئا من الأنس، وكان علينا أن نتحايل على عصابة العينين والقيود لكي نرى بعضنا، ورحنا ننادي على السجانين لكي نتمكن من الذهاب إلى الحمام، وبعد ساعة أو أكثر سمحوا لنا بذلك، لكنهم لم يزيلوا سوى عصابة العينين، مع وضع قيود اليدين من الأمام، وكان يجب أن تستخدم الواحدة منا الحمام وهي مقيدة.

لاحقا شرعوا بتحويلنا إلى التحقيق. كانت البداية بي، رأيت في طريقي غرف التحقيق كلها ممتلئة بالأسرى، ويتعرضون للشتم والتنكيل، وسمعت أحد المحققين يطلب من أحد الشباب أن يشتم الذات الإلهية ويسبّ حماس والسنوار بعبارات نابية. في غرفة المحقق الذي استجوبني رأيت ملفا كبيرا على مكتبه، وبدأ سرد مجموعة من التهم عليّ منها التحريض على "إسرائيل" في وسائل الإعلام ومواقع التواصل، وتمجيد "المخربين" (المقاومين) والمشاركة في المظاهرات الداعمة لغزة. كذلك وضع بين يديه مجموعة كبيرة من الأوراق قال إنها كتاباتي بعد السابع من أكتوبر، وإنه أخذها من مواقع التواصل. أنكرت

كل اتهاماته ومعها تلك الأوراق، وعندئذ بدأ فحص جوالي الذي صادروه عند اقتحام المنزل، لكنه لم يجد عليه أي تطبيق لمواقع التواصل، فاتهمني بحذفها مسبقا، وقال إن هذا لن يفيدني في تجنب السجن.

بعد انتهاء التحقيق، وكان هذه المرة قصيرا جدا مقارنة بذلك الذي حدث في اعتقالي الأول واستمر 35 يوما في مركز تحقيق عسقلان، جرى نقلي فورا إلى سجن الشارون[3]. وفي الممر، وقبل خروجي، لمحت أم عاصف البرغوثي[4]، صُدمتُ جدا لاعتقالها، وأدركتُ أنّ هناك حملة على النساء في الضفة الغربية تلك الليلة.

يقع سجن الشارون قرب نتانيا في وسط فلسطين تقريبا، وهو مخصص للجنائيين الإسرائيليين، ولكن فيه عدة زنازين سيئة جدا تعدّ معبر اعتقال مؤقتا للأسيرات الفلسطينيات، يمكثن فيه عدة أيام قبل نقلهن إلى سجن الدامون. في سجن الشارون، اقتادوني مع أسيرة مقدسية التقيتها هناك في سراديب عديدة وصعدنا درجا طويلا ثم مشينا في ممر إلى آخر زنزانة فيه، أوقفونا أمامها ثم فتحوا بابها وأخرجوا منها سجينا إسرائيليا مريضا وفي حالة مزرية من القذارة، ثم أدخلونا مكانه وأقفلوا بابها. لم أستوعب الأمر قط وقد رأيت حال الزنزانة؛ فهي مليئة بمختلف القاذورات وليس فيها مكان نظيف لنجلس عليه، والمرحاض فيها مكشوف وقذر، ومساحتها لا تتجاوز 1.5×2.5م. فبدأتُ أطرق على باب الزنزانة ولكن من دون أي استجابة من السجانين. بدا لي وكأننا منفيتان في مكان بعيد ولكن داخل السجن

---

[3] سجن الشارون أو هشارون، من السجون الكبيرة والحديثة نسبيا، يقع في وسط فلسطين المحتلة، قرب مدينة نتانيا، وهو مخصص للجنائيين الإسرائيليين، ويحتوي كذلك على عدة زنازين تعرف باسم (المعبار) أو الاعتقال المؤقت، مخصصة للأسيرات الأمنيات الفلسطينيات، يتم احتجازهن فيه وسط ظروف صعبة وسيئة عدة أيام، منذ الاعتقال وحتى نقلهن لسجن النساء المركزي (الدامون) في حيفا.

[4] هي أرملة المناضل والأسير المحرر الراحل عمر البرغوثي، ووالدة كل من الشهيد صالح البرغوثي والأسير عاصم البرغوثي وأخت الأسير المحرر والمبعد إلى غزة جاسر البرغوثي وشقيق زوجها عميد الأسرى الفلسطينيين في السجون الإسرائيلية، نائل البرغوثي.

نفسه، أردنا تنظيف الزنزانة ولكن لم يكن ثمة ماء، فرحت أطرق مجددا على الباب، وكان في الزنزانة المجاورة لنا سجين مدني عربي من النقب، فتولى مهمة الطرق الشديد على باب زنزانته والمناداة حتى يأتي السجانون. ثم بعد مدة طويلة جاؤوا، وتحدثوا معنا من نافذة الزنزانة. طلبنا أغراضا للتنظيف، وبطانيات نظيفة فرفضوا. انقضت ساعتان أو أكثر، ففتح السجانون باب الزنزانة، وأدخلوا رقية ومريم. لم أستوعب حينئذ كيف سنمكث نحن الأربع محشورات في زنزانة صغيرة، فصرخت في وجه السجانة، فردّت بحقد: "سنحضر المزيد أيضا"!

من الصعب بيان المشاعر التي تملّكتني تلك اللحظة؛ كانت خليطا من الغضب وتوقّع مزيد من مفاجآت مروّعة ذات طبيعة مجهولة لنا حتّى مقارنةً بالتنكيل السابق الذي نالنا شخصيا أو سمعنا عنه. بيد أن السبيل الوحيد المتاح كان هو محاولة التجلد وضبط الانفعال وعدم الفزع، والتفكير بما يجب فعله لنتمكن من المكوث في الزنزانة أو تنظيفها على الأقل. نادى علينا السجين العربي من زنزانته وعرض أن ينظف زنزانته لأن الماء موجود فيها، ثم يطلب من السجانين نقلنا لها، على أن ينتقل هو لزنزانتنا، بطبيعة الحال وافقنا شاكرات له ذلك الموقف، وبعد أن فرغ من تنظيفها راح يزعق على السجانين بأعلى صوته؛ ذلك أن زنازيننا كانت بعيدة وفي آخر ممر علوي، وعندما حضروا عرض عليهم فكرة النقل وشرح لهم السبب، ولكنهم رفضوا بشدة نقلنا للزنزانة النظيفة، وكان واضحا أنهم تعمدوا وضعنا فيها بعد قطع المياه عنها. مع حلول المساء أحضروا أم عاصف إلى الزنزانة مع أسيرة مقدسية أخرى، ثم جاءت المياه للزنزانة فتمكنا من تنظيفها بالحد الأدنى، وبتنا فيها نحن الست! لكن كنا نتناوب على النوم، ونواجه صعوبة بالغة في استخدام المرحاض؛ إذ يجب أن تغطي أسيرة المكان ببطانية كي تتمكن أخرى من استخدامه.

انقضت أربعة أيام ونحن على تلك الحال من الضيق والاختناق في زنزانة صغيرة، مع شح الطعام ومواد التنظيف، ثم تقرّرَ نقلنا إلى سجن الدامون، ولكن بعد تعريضنا للتفتيش العاري بالتناوب في سجن الشارون من ثلاث مجندات، ورافق ذلك سيل من الشتائم والتهديدات بالقتل والإبعاد إلى غزة.

دخلنا سجن الدامون بعد رحلة نقل شاقة في سيارة "البوسطة"؛ وهي سيارة نقل المعتقلين، وقوامها حديدي كليا، ولا يتاح للمعتقل رؤية شيء خارجها في أثناء عملية النقل[5]، أي إننا ما كنا نرى شيئا من طبيعة جبل الكرمل في رحلة صعودنا إليه لكي نعتقل في هذا السجن الموجود أعلاه، وهو سجن يعود إلى أيام الانتداب البريطاني، ويقال إنه كان إسطبلا للخيول، ثم جرى تحويله لاحقا إلى سجن.

حين دخلتُ إلى قسم 3 في سجن الدامون، وهو قسم الأسيرات، كانت نورهان عواد أول من رأيت، وكانت في الساحة لتتابع احتياجات الأسيرات، وهي مهمة تنفذها الأسيرات عادة بالتناوب، أما بقية الأسيرات فيبقين في الزنازين أو غرف الاعتقال طوال الوقت، باستثناء ساعة واحدة فقط كل يوم يسمح لهن فيها بالخروج إلى الساحة. عانقتُ نورهان وأحسست بثقل في قلبي؛ فهي وغيرها من أسيرات الأحكام العالية سبق أن التقيتهن في اعتقالي الأول قبل سنوات، ثم خرجتُ وتركتهن خلفي، وها أنا أعود وهن ما زلن فيه. كانت نورهان قد اعتادت سابقا أن تقول كلما دخلت أسيرة إلى السجن ثم خرجت: "يرحلون ونبقى" تعبيرا عن حال سجنهن الطويل، الذي يستقبلن ويودعن خلاله أفواجا من الأسيرات ويبقين على حالهن يحلمن بالحرية ويتابعن أخبار الصفقة التي تنتعش حينا وتغيب معظم الوقت.

---

[5] البوسطة هي وسيلة نقل تستخدمها إدارة السجن لنقل الأسرى من سجنهم إلى مكان محاكمتهم، وهي رحلة مضنية قد تستغرق ساعاتٍ عدّة ويتخللها الكثير من التعذيب والرعب على الأسري. تعمّد الاحتلال في تصميم وسيلة النقل هذه أن تكون مؤذية للأسرى جسديا ونفسيا، فشبابيكها مغلقة بسياج ومقاعدها من حديدٍ مُخرّم، وينقل فيها عدد كبير من الأسرى كلّ مرّة.

في سجن الدامون كان كل شيء قد تغيّر بعد الحرب، فقد عُزلت الأسيرات عزلا مركّبا: الأول عن العالم الخارجي وعن مختلف أشكال التواصل، سواء التواصل مع الأهل بالزيارات التي مُنعِت أو الاتصالات الشحيحة التي حُظرت نهائيا، مع مصادرة كل الأجهزة الكهربائية وكذلك أجهزة الراديو، التي كانت الأسيرات يتابعن عبرها أخبار الخارج أو يستمعن عبر أثيره إلى برامج الأسرى التي يرسل خلالها الأهل بأصواتهم تحياتهم وأشواقهم إلى أبنائهم وبناتهم الأسرى.

أما العزل الثاني فكان داخل غرف الاعتقال، وهي اليوم أشبه بالزنازين لخلوها من كل المقتنيات باستثناء الحد الأدنى من الملابس والبطانيات والفرشات، وللاكتظاظ الشديد فيها؛ إذ باتت كل غرفة تحوي ضعف سعتها على الأقل، فالغرفة التي كانت مخصصة لستِّ أسيرات باتت تستوعب 11 أو 12 أسيرة، ويبقين فيها 23 ساعة متواصلة يوميا، في لحظات طويلة بطيئة ومرهقة، فليس ثمة راديو أو تلفاز أو كتب أو أوراق أو أقلام أو أدوات مطبخ، كل هذه وغيرها من مقتنيات باتت محظورة رغم أن الأسرى عادة كانوا يشترونها في السجن من مالهم الخاص خلال اعتقالهم، وكنتُ أعبّر عن هذه الحال بقولي: "نحن هنا نحدّق في الفراغ وحسب"، والوقت هنا عدوّنا الأول، فلا هو يمضي بسرعة، ولا في هذه الزنازين ما يعين على قضائه وتناسي ثقله سوى الفراغ، وحتى الأحاديث المتنوعة بين الأسيرات عن أي شيء تغدو مع الوقت عبئا نفسيا يذكِّر الأسيرة بكل ما هي محرومة منه.

تجويع وانتهاكات

أما الطعام فكان شحيحا ورديئا، كنا نعد ملاعق الأرز التي تأتي على وجبة الغداء حتى نضمن توزيعا عادلا لها بيننا، ونضطر إلى أكل بعض ما كنا نرغب عنه في الخارج، مثل النقانق غير المطهوة جيدا أو البيض المسلوق البارد الذي تحول صفاره إلى اللون الأزرق. وحتى مع هذا الشح في الطعام، كانت بعض

الأسيرات تجد سلوتها في رمي حصتها من البيض لقطط السجن الكبيرة التي كانت تجوب الساحة، رغم أن إطعامها ممنوع في قوانين السجن، وقد تواجه الأسيرة عقوبة لفعلها ذلك.

بعد الحرب، تعرضت الأسيرات للقمع مرات عديدة من السجانين، وفي بعض الأحيان كُن يُرشَشْن بالغاز أو يُعتدى عليهنّ بالضرب رغم أن هذا كان أمرا نادر الحدوث سابقا وقد يتسبب بثورة في سجون الشباب، ولكن مع واقع العزلة الحالي الذي يطبق على السجون جميعها فإن مثل هذه الانتهاكات تحدث وتمضي من دون أن يسمع بها أحد، إلا في حال تمكن أحد المحامين من إخراج تفاصيل مثل هذه الأحداث بعد زيارته لإحدى الأسيرات، أو إذا تحررت أسيرة ونقلت الخبر للإعلام. وفي المقابل باتت وسيلة معرفة أخبار العالم الخارجي لدى الأسيرات هي إما وصول أسيرة جديدة للسجن، وإما لقاء أسيرة بمحاميها، رغم أن معظم المحامين يمتنعون عن نقل الأخبار الخارجية حتى لا يُعاقبوا من إدارة السجن بالمنع من لقاء الأسيرات.

بعد أيام من وجودي في سجن الدامون، تلقيت قرارا باعتقالي الإداري لمدة ستة أشهر، وهو قرار يظلّ قابلا للتجديد عدة مرات في العادة، وخلال تلك الأيام زارني أحد المحامين في السجن، وأخبرته بكل ما تعرضت له خلال اعتقالي وخصوصا التهديد بالاغتصاب والتعرض للتفتيش العاري، وبعد أن انتشرت شهادتي في وسائل الإعلام، استدعتني مخابرات السجن للتحقيق. كان ضابط الشاباك غاضبا وسألني عن سبب إدلائي بتلك الشهادة، فأخبرته أنني تحدثت بناءً على ما جرى معي بكل دقة خلال مراحل اعتقالي كلها، وقلت له: ما دامت هذه سياستكم في السجون فلماذا تخشون من معرفة العالم بها؟ قال: هذا سجن وليس فندقا، قلت له: وأنا من حقي أن أتحدث بكل ما جرى معي. في إثر ذلك، عوقبت بمنعي من لقاء المحامي، ولكن ذلك لم يحملني على الندم على إخراج شهادتي تلك، ولا على تغيير قناعاتي بضرورة أن يتحدث كل

أسير عن تفاصيل تجربته في الاعتقال وما ناله من أذى وانتهاكات مختلفة، ولا سيما الأسرى الذين اعتقلوا بعد الحرب.

كنتُ دائما أرى أن توثيق تجربة السجون أمر مهم جدا، سواء عبر الكتابة أو غيرها، واليوم أرى أن أهمية الأمر تضاعفت بعد الحرب، وخصوصا للأسيرات، وبعد أن بدأ الاحتلال يتمادى في تعمد انتهاك خصوصيتهن منذ لحظة الاعتقال الأولى وحتى الإفراج عنهن، وبعد أن صار تعرض معظم الأسيرات للضرب والتنكيل أمرا عاديا، وقد سمعتُ شهادات عديدة من أسيرات تعرضن للضرب في سجن الشارون وفي غيره من مراكز الاعتقال؛ فهناك أسيرة تعرضت للضرب 12 ساعة متواصلة، وأخرى مُزق حجابها خلال ضربها، وهناك أسيرة من مخيم بلاطة في نابلس وصلت إلى السجن بعدي بأيام، وكانت قد أنجبت طفلتها حديثا، وقد اعتُقلت معَ زوجِها خلال اقتحام المخيم، وتعرضت لضرب مبرح، سبب لها آلاما مريرة في البطن والظهر ونزيفا في الرحم، ولكنها لم تتلق في السجن أي علاج. كذلك كانت هذه الأسيرة عاجزة عن تناول أي شيء من الطعام هناك بسبب حالتها الجسدية والنفسية الصعبة وبكائها الدائم على طفلتها الرضيعة التي تركتها خلفها، إلى أن خرجت في صفقة التبادل بعد أسابيع من اعتقالها.

في اعتقالي الأول كنت أحرص على تدوين يومياتي وأحوالنا في السجن بكل تفاصيلها، وأسجل مشاعري وأفكاري وكل متعلقات تجربتي، وكنا نجد سبيلا لإخراج ما نكتب خارج السجن. كنت أدرك جيدا أن للكتابة داخل السجن معنى وأثرا مختلفا عن الكتابة عنه بعد التحرر. أما اليوم، فقد صارت الكتابة داخل السجن جريمة، والمداهمات شبه اليومية لغرف الاعتقال كانت تأتي على كل شيء مكتوب فيها، ولعل هذا من أكثر الأمور التي أرقتني؛ فالورقة والقلم داخل السجن كنز كبير هذه الأيام، ولا سيما لأسير صحفيّ يمتهن الكتابة. كنت قد حصلتُ على دفتر بقي من الأغراض

التي نجت من المصادرة أول الحرب، وكنت أدون فيه أفكارا مركزة وعبارات مفتاحية، لعلها تعينني لاحقا على استحضار عموم التجربة بمشاعرها وحالاتها النفسية وأثرها علينا، حتى لا تذوي مع الأيام تفاصيلها، ولا سيما أنّ شحّ أدوات الكتابة لم يكن يتيح الاسترسال في التدوين داخل السجن. نجحت في إخفاء تلك الأوراق القليلة طيلة أيام اعتقالي، وقررت أن أحملها معي يوم تحرري.

في صباح يوم الدفعة السادسة من الصفقة، التي خرجتُ ضمنها، بتاريخ 29 تشرين الثاني/ نوفمبر 2023، دخل مدير القسم إلى ساحة السجن وحذر الأسيرات بلهجة صارمة من إخراج أي شيء معهن، وهدد بمعاقبة أي أسيرة يعثرون معها على قصاصة ورقية مهما كان محتواها. ولأنه لم يكن يجري تبليغنا مسبقا بأسماء من سيتحررن في كل دفعة، فقد اعتدنا يوميا على تجهيز أنفسنا منذ الصباح الباكر لكي نكون مستعدين في حال كان سيُفرج عنا. في ذلك اليوم، كان من ضمن ما جهزته لأخرجه معي تلك الأوراق، ولكن بعد تهديد السجان ترددت في إخراجها، ففتحتها وقرأت محتواها عدة مرات، واضطررتُ آسفةً إلى تمزيقها ورميها في القمامة، وما زلت حتى اليوم أحاول عبثا تذكر شيء مما ورد فيها!

كانت أمنيات الصفقة وتوقعاتها تداعب لسنوات أحلام آلاف الأسرى والأسيرات، وكنت أرى خلال اعتقالي الأول كيف تلمع عيون أسيرات الأحكام العالية إذا ما ورد ذكر لمحادثات الصفقة عبر الأخبار، وعندما حان أوانها أخيرا كانت مجللة بدم غزير وأوجاع كثيفة، وبمشاعر الجزع على غزة، وهي تواجه هذه الإبادة الجنونية المستمرة. تحررتْ في صفقة تشرين الثاني/ نوفمبر 2023 أسيرات الأحكام العالية جميعهن، باستثناء شاتيلا أبو عيادة، من كفر قاسم، وهي محكومة 16 عاما وتبقى من حكمها نحو ثماني سنوات. كان الإنجاز كبيرا بالنسبة للأسيرات اللواتي حلمن طويلا بتلك اللحظة، لكنه لم يكن مرئيا وسط

الأهوال التي أصابت غزة خلال الحرب وأصابت معها قلوبنا وأعطبت قدرتنا على التفاعل مع لحظات الفرح.

كان يوم الإفراج طويلا ومرهقا، حرص السجانون وضباط المخابرات على استنزافنا نفسيا وجسديا حتى آخر لحظة. نُقلنا من سجن الدامون إلى سجن عوفر، ومكثنا في زنازينه نحو 12 ساعة على البلاط وسط البرد الشديد، ليتم تحريرنا أخيرا فجر اليوم التالي، حوالي الساعة الثانية فجرا، بعد سيول من عبارات التهديد والوعيد التي حملها لنا ضباط مخابرات الاحتلال، ولكننا رغم ذلك كنا نشاهد جيدا حجم اغتياظهم من الصفقة بسبب اضطرارهم إلى الإفراج عنا قبل انقضاء أحكامنا.

حين فك السجانون أخيرا قيودنا وأقلنا باص الصليب الأحمر، بدأنا فورا بإنشاد ترنيمة مشهورة للأسرى:

"روحك ما يهمها اعتقال.. مهما طال السجن وطال.. خيتا تحريرك همي.. وبسجنك لا ما تهتمي.. قسما لو صفوا دمي.. ما تظلي في هالعتمة.."

توقعنا أن تكون الشوارع مقفرة بعد مغادرتنا حدود سجن عوفر، وألا يكون هناك أحد في استقبالنا، ثم تفاجأنا بالحشود والأعلام والرايات الخضراء. لم نستطع حبس دموعنا، أدركتُ حينئذ حجم جلال اللحظة؛ لأنها صُنعت رغم أنف المحتل، حتى وإن تنازعها شعوران: الألم لمصاب غزة وأهلها، والفخر بصنيع المقاومة.

اليوم، وبعد أشهر من تحرري، عاد سجن الدامون وامتلأ بالأسيرات، وهذا سيبقى حالنا ما لم نظفر بالتحرر الكامل، لا فرحة كاملة، ولكن مغالبة ومجابهة، وصبر وتحديات، وركام من الدماء والأشلاء، تُبذل على دروب التحرير، وتبذل

مثلها أعمار في السجون، ولا سبيل لتجنبها قبل إدراك الخلاص الجمعي لشعبنا وأمتنا.

لم يغادرني السجن رغم مرور كل هذه الأيام، تسطع تفاصيل أيامه ولياليه حينا في ذاكرتي، ثم تخبو حينا آخر، أحاول إضاءتها بقراءة شيء مما دونته خلال اعتقالي الأول، تصافح عيناي تلك العبارات التي كانت أول ما كتبته بعد إنهائي مرحلة التحقيق المضنية: "إن ما ينغرس فيك في لحظات اليقين الكبرى لا تجتثه يد البطش، ولا تجفف ماءه شمسُ الفيافي.. ثمة أشياء لا يتوب عنها الفؤاد، ولا تنتزعها منه أعتى المباضع وأحدّها.. إنها ليست فقط "أشياء لا تُشترى" بل أيضا لا تُباع ولا يلمسُ دِفأها ودَفقَها في قلبك سواك".

اليوم أتحسس موقع هذه اليقينيات في قلبي وأجتهد في إبقائها وقّادة، وأدرك أننا كلنا في هذه البلاد نحتاج إلى أن نتمسك بها، ونقبض عليها، حتى لا تهزمنا العتمة، ولا تحاصر وعينا، وتشوه إدراكنا، ولكي نظلّ قادرين على التجدد بعد مراحل الألم والنوازل الكبرى، وتظلّ أهدافنا الكبرى مرئية ومستحضرة، حتى والتعب يدمي أقدامنا وأعمارنا، ويفطر قلوبنا، ويُفسد إحساسنا بالحياة.

وبعد.. تلك سطور مقتضبة، على ما يبدو فيها من تفصيل، لا تقول كل شيء، ولا يسعها ذلك، لكنها تضيء شمعة على حياة مظلمة ومنسية هناك، خلف جدران السجون، ولعلها تظل جهدا متواضعا على هامش المقتلة الكبرى في غزة، لكنها تدوّن في ظلها، وتستمد من دروسها دوام الإحساس بمعاناة أهلنا، ومحاولة التجلد وتجاوز المحن الخاصة، والزهد بأي حلم دنيوي بحياة طبيعية سقفها بنادق المحتل، وحدودها قضبان سجونه.



عام
خارج الحياة

مرام حميد



مرام حميد

صحفية ومراسلة موقع الجزيرة باللغة الإنجليزية في قطاع غزة. أسهمت في تغطية قصص الفئات الأكثر تهميشا وضعفا في قطاع غزّة قبل الحرب وأثناء الحرب.

3

عام خارج الحياة

مرام حميد

كلما شرعت في الكتابة عن الحرب، لا تكاد تختلف كلماتي ولا عباراتي في وصف قساوة المشاهد اليومية وهولها، الفرق كان في عداد الوقت فقط.

كتبت عن أول أيام الحرب، عن شهر من الحرب، شهرين، مئة يوم، ستة أشهر، ثم ثمانية وعشرة، ثم أكتب اليوم عن العام الأول الذي يغلق أبوابه. ويا له من عام!

اختلفت المسميات، وما كنا لا نريده أن يصبح أمرا واقعا أضحى كذلك رغم إرادتنا. لا يسير شيء وفق إرادتنا من الأساس.

أصبحت أعبئ استمارة تحديث بيانات الصحفيين الدوري، وأكتب في خانة عنوان السكن، عنوان النزوح الحالي: "دير البلح، بجانب الدوار"، بدلا من "مدينة غزة، دوار فلسطين". لقد تغير عنواني قسرا، تغير طريق العودة إلى المنزل وطريق الذهاب إلى العمل.

نحاول، منذ عام، إنكار أننا اعتدنا، ولكن الحقيقة هي أننا اعتدنا "رغما عنا". أصبح والدي يصف مكان نزوحنا بـ"بيتنا"، وأسمعه يصف سكان المنطقة بـ"جيراننا"، أما عن المنطقة فيقول عنها "حارتنا".

في عام واحد، اختلفت المسميات والعناوين التي اعتدنا عليها طوال حياتنا، نُسِفت ذكرياتنا وممتلكاتنا، وبيوتنا، وعاداتنا اليومية، وأفكارنا، وطرق عيشنا، وروتيننا اليومي، وطريقتنا في تأدية المهام. ذابت شخصياتنا وتحولت، خبرنا تجارب ومواقف لم يخطر لنا أن تواجهنا من قبل.

غيرتنا الحرب، تبدلت شخصياتنا لشيء لم نتبينه بعد، ولا نعرف ماذا نسميه، والمأساة أن الحرب لا تزال مستمرة، ولكن اعتدنا، وهذه سُنّة الحياة.

أمشي في الشارع يوميا، وسط زحام الباعة المتجولين، ومتصلي إنترنت الشوارع، وسيارات النقل والعربات التي تجرها الحيوانات، اكتظاظ شديد وبؤس وغلاء غير طبيعي وندرة في كل أنواع السلع.

اعتاد الناس على هذه الحياة التي لا تشبه الحياة. أينما أسألهم يخبروني أنهم "يُمَشُّون حياتهم". يخجلون أو يرفضون ربما أن يقولوا إنهم اعتادوا. في نظر كثيرين، الاعتياد على هذا الظلم هو هزيمة وتماهٍ مع الأحداث، وكثيرا ما أحاول تهوين الأمور عليهم وأقول إنه لا خيارات متاحة لأي أحد منا.

مخيم أرض شراب- دير البلح

بعد عام من الحرب، صرت أمشي في الشارع ويلحقني الأطفال الذين زرت مخيماتهم وكتبت عن قصص ذويهم، تحييني الأمهات والسيدات، يخجلن من مصافحتي أحيانا لأنهن لا يبدون نظيفات كما اعتدن في بيوتهن "قبل عام".

أمُرّ بجانب الخيم، يصرخ أحد الأطفال على أمه في الداخل: "يمه الصحفية مرام إجت". وأحدهم يقول: "الأستاذة مرام إجت". لقد حفظوا وجهي على

مدار "العام". أحيي الجميع مَن أعرف ومَن لا أعرف بابتسامة وحديث يومي يتقاطع مع موضوعات القصص الصحفية التي أعمل عليها.

أكسر جمود اللحظة، وصعوبة ملاحظتي لحياة الخيام المهترئة والسيدات بملابس الصلاة البالية، والأطفال بملابس غير نظيفة وشعر منكوش، بكلمة واحدة: "بعين الله يا جماعة"، ليرد الجميع علي مع تنهيدة طويلة: "بعيييين".

في كل زيارة للمخيم، يزداد الوضع تعاسة، ويزداد حال الناس صعوبة. يخبرني الناس بكثير من قصصهم ومشكلاتهم وأوجاعهم وحتى مناوشاتهم الشخصية، وفي الزيارة السريعة أمر على بعضهم لأسمع آخر التحديثات.

تخبرني تلك السيدة بتفاصيل وجهها المتعبة وهي ترتب خيمتها، عن مشكلات كبيرة بين ابنتها "المخطوبة" وخطيبها الذي يصر على الزواج منها خلال الحرب، ولكنهما ترفضان -الأم والابنة.

تضيف الصبية الحسناء على كلام أمها بينما تقف أمام باب الخيمة: وين أتزوج يا أستاذة مرام، ما انتي شايفة الوضع خيمة وظروف صعبة، لن أوافق يمة! أومئ برأسي مؤيدة لها وأنا رابضة على حجارة، وأقول لها: صح لا توافقي أبدا.

تقدم لي أم محمد القهوة التي غلتها لتوها على موقد الحطب، أرتشف رشفتين على عجالة وأعتذر بسبب كثرة المهام. تدعو لي بالتوفيق والسداد وتهمس في أذني بخجل: "خليني في بالك" في إشارة لأي مساعدة نقدية أو عينية، أطمئنها بـ "إن شاء الله هناك خير قادم"، وأمضي.

أكمل جولتي الصحفية وأنا أسأل الناس من أين نزحوا وكم مرة تحملوا عذاب النزوح من مكان إلى آخر. يجيب الناس بتأثر "تشنططنا"، وهي كلمة

باللهجة الفلسطينية تلخص المعاناة وبهدلة النزوح ذهابا وإيابا ما بين الشمال والجنوب والوسط.

يجيب الناس على أسئلتي بحزن ويأس، كما هو الحال دائما، منتظرين أي بصيص من المساعدة. يتجمع بعض السكان من الخيام المجاورة، محاولين التعبير عما يختلج في صدورهم. يقول أحدهم بمرارة: "لا أحد يهتم لأمرنا هنا، نحن منسيون."

ثم يتابع طريقه نحو خيمته غاضبا، وهو يلقي بكلماته: "انظري إلى حياتنا، انظري إلى تلك القمامة المتكدسة والمجاري هناك"، يشير نحو أكوام النفايات المتناثرة حول الخيام، التي تفوح منها رائحة كريهة، محاطة بمياه الصرف الصحي التي تجري من حولها.

هذا المشهد وحده كاف ليسد الشهية عن كل الحياة، فما بالك بمن يعيشون حوله صباح مساء منذ ما يقارب العام!

"حشرات أكلت أجسادنا وأجساد أطفالنا، أمراض وصداع لا نشفى منه"، تقول إحدى السيدات التي تقضي يومها وهي تبحث عن مساحة ظِل هربا من أشعة الشمس الحارقة.

أما زوجها -الذي لا يحب الكاميرات والإعلام- فيقتصد في الكلام قائلا: "نحن ميتون على قيد الحياة".

غالبا ما يرد الناس بهذا الشكل عندما أقدم نفسي وأطلب منهم الحديث لأخذ أقوالهم. يعتذرون في البداية عن الكلام، متذرعين بأنهم لا يثقون بالإعلام أو لا يرغبون في التعامل معه، ولكن بمجرد أطرح عليهم السؤال الأول، ينفتحون

كالسيل الجارف، ويروون مأساتهم بتفاصيل مؤلمة.

"كوافير نجلاء"

في الشهور الأولى للحرب، بدت الحياة مشلولة. كانت الحرب مسعورة على نحو لا يوصف، وتوقفت معها الحياة لشهور متواصلة ولم يكن للناس خبرة التصرف في الحرب الطويلة بعد.

كنا "نُمشّي" أيامنا بشقّ الأنفس؛ القليل من الطعام، لا إنترنت، لا كهرباء، لا شواحن ولا وقود: طبخ على النار والحطب وانقطاع عن العالم وضربات متواصلة حولنا وفي الخلفية صوت الراديو. كانت مشاهد مجتزأة من العصور الوسطى.

بعد نحو شهرين، وقد اشتد عود الناس في مواجهة الحرب قليلا، قررت أن أصطحب ابنتي ذات الثمانية أعوام لـ"الكوافيرة" لتحظى بقصة شعر جديدة لها.

كنت كمن يسأل عن شيء غريب -على استحياء- في المنطقة مع إجابة ضمنية: "ليس وقته"، والحقيقة أدركت أن الوضع لا يسمح والحزن يعم الأجواء، ولكن للضرورة أحكام.

أخبرتني سيدة عن مكان لـ "كوافيرة" قريبة تفتح يوميا لساعات قليلة خلال الحرب، أخذت عنوانها وذهبت ظهر اليوم التالي.

استقبلتنا السيدة في "كوافير نجلاء" التي تعمل من منزلها خلال الحرب بحفاوة. كانت شديدة اللطف مع ابنتي ومعي وللحظات شعرت أنني "فَصَلت" نفسيا

عن جو الحرب قليلا رغم استمرار أصوات الضربات من حولنا، إلى أن سألتها بفضول الصحفية في داخلي:

"هل يأتي إليك زبائن خلال الحرب؟" لتأتيني الإجابة ممزوجة بضحكة مدوية: "طبعا ويوميا!"، ثم أكملَتْ: "فترة الحرب هي أكثر فترة عملت فيها في حياتي!".

صدمتني إجابتها ولجمتني عن الحديث للحظات، ثم واصلت أسئلتي بالفضول نفسه:

"ماذا عن الخدمات التي تقبل عليها النساء خلال الحرب؟" لتجيبني: "كل شيء؛ تنظيف الوجه والحاجبين، قص الشعر، إزالة شعر الجسم، صبغة شعر وأطراف، "هايلايت"، بعضهم مكياج وهكذا".

فاجأتني الإجابة قليلا. "صبغة ومكياج خلال الحرب؟!" ضحكت "الكوافيرة" وهي تمسك خصلة جديدة من شعر طفلتي لتقصها وهي تجيب بلهجة غامزة: "ما بك؟ وهل تتغير طبيعة النساء في حرب أو غير حرب؟" في إشارة إلى أن النساء يعتنين بجمالهن في كل الأوقات.

زيارة "الكوافيرة" ذلك اليوم غيرت في داخلي العديد من المفاهيم. لا أنكر أنني امتلأت بالبهجة وأنا أسرح بخيالي في نساء غزة الأنيقات، المرتبات اللاتي يحرصن على جمالهن وإطلالتهن، أسوة بنساء العالم. المرأة هي المرأة في كل العالم.

ثم ما لبث أن سيطر علي الحزن والمرارة، وأنا أفكر كيف ظَلَمت الحرب نساء غزة، وأفقدتهن جمالهن و بريقهن، فتحملن مسؤوليات لا تطيقها الجبال بعدما كن معززات مكرمات.

تكررت زياراتي "للكوافيرة" خلال الحرب، وفي كل مرة كانت تحدثني عن جديد القصص المضحكة والمؤلمة عن زبوناتها.

"كل يوم لدينا عروس أو أكثر يأتين ليتزينّ لزفافهن"، تقول قاطعة سؤالي: "ماذا عن تجهيزات زواجهن، سكنهن، ظروفهن؟ ماذا يرتدين يوم زفافهن؟ ما هي الطقوس وما هي الزينة؟".

بحسب "كوافيرة الحارة"، فالعرائس خلال الحرب يكتفين بـ "مكياج العروس" مع تسريحة شعر بسيطة، ومنهن من تصر على ارتداء فستان الزفاف الأبيض بعد رحلة بحث عجيبة، وبعضهن يكتفين بارتداء ثوب مطرز بسيط، أما عن المراسم، فهي عبارة عن جلسة عائلية سريعة وبعض الصور التذكارية من دون طبل أو موسيقى، ويأخذها العريس إلى بيته أو خيمته أو ما توفر لهم.

"بلا طبل ولا زمر" هو الثابت في أفراح الحرب التي في معناها استمرار في الحياة، ولكنها تتجرد من معنى الاحتفال وسط كل هذا الحزن والألم.

أما عن إحدى القصص الأليمة للعرائس اللواتي زرن "الكوافيرة" فكانت لعروس عشرينية استشهد كل أفراد عائلتها في الحرب بمن فيهم والداها، بينما فقد عريسها الذي هو ابن خالتها كل عائلته أيضا في قصف آخر.
"كلاهما بقي وحيدا بعدما استشهدت عائلته، فقرر ابن الخالة الزواج من ابن خالته ليأنسا ببعضهما".

زواج رغم الإبادة.. زواج بسبب الإبادة

تبدأ قصص الزواج في العالم بالحب والفرح والخطبة والاحتفالات، أما في غزة فتبدأ بمأساة الفقدان والوحدة.

العروس -الناجية الوحيدة- رفضت أي زينة أو ارتداء فستان أبيض، رغم محاولة "الكوافيرة" إقناعها واعتبار زينتها هدية لها، ولكن حزن العروس وانكسارها كانا أكبر.

اكتفت بتصفيف شعرها وبعض العناية بالبشرة متفقة مع عريسها المكلوم على ألا يقيما أي مظاهر للاحتفال.

"القصص كثيرة، رأيت كثيرا من السيدات وسمعت كثيرا من القصص الحزينة خلال الحرب"، تضيف الكوافيرة نجلاء وهي تلملم بقية الشعر المقصوص على الأرض.

كلما عدت من زيارة "الكوافيرة نجلاء"، أسلك الطريق المؤدي لمنزلي الأطول مسافة، كنت دائما أريد أن أطيل مسافة المشي كي أستوعب ما يُحكى لي من تفاصيل إنسانية صادقة، وحياة للناس "الغلابة" تحت الحرب لا تغطيها الكاميرات ولا ترويها مقالاتنا الإخبارية.

كنت دائما أفكر في صياغة مناسبة لقصة ومقترح تغطي هذه الزوايا الضاجة بالإنسانية، ولكن كفة قصص الدم والمجازر المستمرة كانت الأرجح.

هل أسارع في كتابة قصة الطفلتين اللتين بترت أقدامهما في قصف منزلهما؟ أم قصة تلك الشابة الرائعة التي فقدت كل عائلتها وقدرتها على المشي في قصف أيضا؟

هذا صراع آخر تتعارض فيه الأولويات: أولوية القصة لمن توجد حياته على المحك، لمن فَقَد وفُقِد، وليس لتفاصيل "جانبية" مثل "كوافيرة نجلاء".

وهكذا مضى عامي من الحرب، كل القصص أولويات وبعض القصص كالشمعة في الظلام والضوء في العتمة، ولكن لم تحن استراحة المقاتل بعد.

" التعليم بالسر"

أكثر ما كان يستنزفني ويزيدني حنقا وحزنا في الحرب هو حرمان طفلتي من التعليم.

كانت كل آمالي معلقة بطفلتي التي تدرس في إحدى المدارس الخاصة، تحظى بعلامات دراسية مميزة وبدأت عامها في الصف الثالث حتى جاءت الحرب لتوقف حياة الجميع. توقف التعليم وسكن الناس النازحون في المدارس وضاع العام الدراسي.

لا أستطيع مغادرة البلاد، ولكن سببي الأول -إن استطعت- هو اللحاق بركب التعليم لطفلتي التي ملت من الجلوس في المنزل دون أي نشاط.

بطريقة ما حصلت ابنتي على حقها في التعليم، وبطريقة ما أيضا وفرت الإنترنت في "المنزل" بعد جهد شاق جدا، وكانت لكثير من الناس أياد بيضاء في ذلك.

بعد الساعة الثالثة مساء يوميا، كنت أعلن حالة الطوارئ في المنزل. تجلس بانياس أمام هاتفي المحمول أو جهاز الحاسوب وتتصل ببرنامج الـ Micro-soft Teams للدخول إلى جدول الحصص اليومي.

في كثير من الأحيان أكون خارج المنزل أعمل في المستشفى، لم يكن أي شيء ينسيني ميعاد حصص ابنتي، وأبقى على اتصال مع كل مجموعات الواتس

أب، أرسل كل شيء تباعا لزوجي أو لأختي في المنزل لترتيب دخول بانياس إلى حصص الأونلاين.

كثيرا ما واجهنا صعوبات في الاتصال بالإنترنت، ومشكلات في الاتصال والتحميل، ولكننا لم نتراجع يوما. كنت أرى ورقة التعليم لطفلتي كأنها ورقتي الرابحة الأخيرة والوحيدة في الحرب.

بقينا على هذه الحال خمسة شهور، انهال فيها زجاج الشباك مرة على بانياس بينما تحضر حصصها عن بعد، وهربنا أكثر من مرة للإخلاء، وعلت أصوات القذائف من حولنا، ولكننا لم نتراجع ولو لمرة واحدة. كتبنا الواجبات وسلمناها على الواتس أب، طبعنا الكتب الدراسية بأسعار باهظة، وبالنهاية: فعلناها ونجحنا! ابنتي في الصف الرابع.

نحن لا نستحق إلا الحياة والفرح، وقلوبنا عامرة بالحب والحياة. أريد أن أمشي وأصرخ في الشارع: أوقفوا الحرب، لقد تعب الناس.

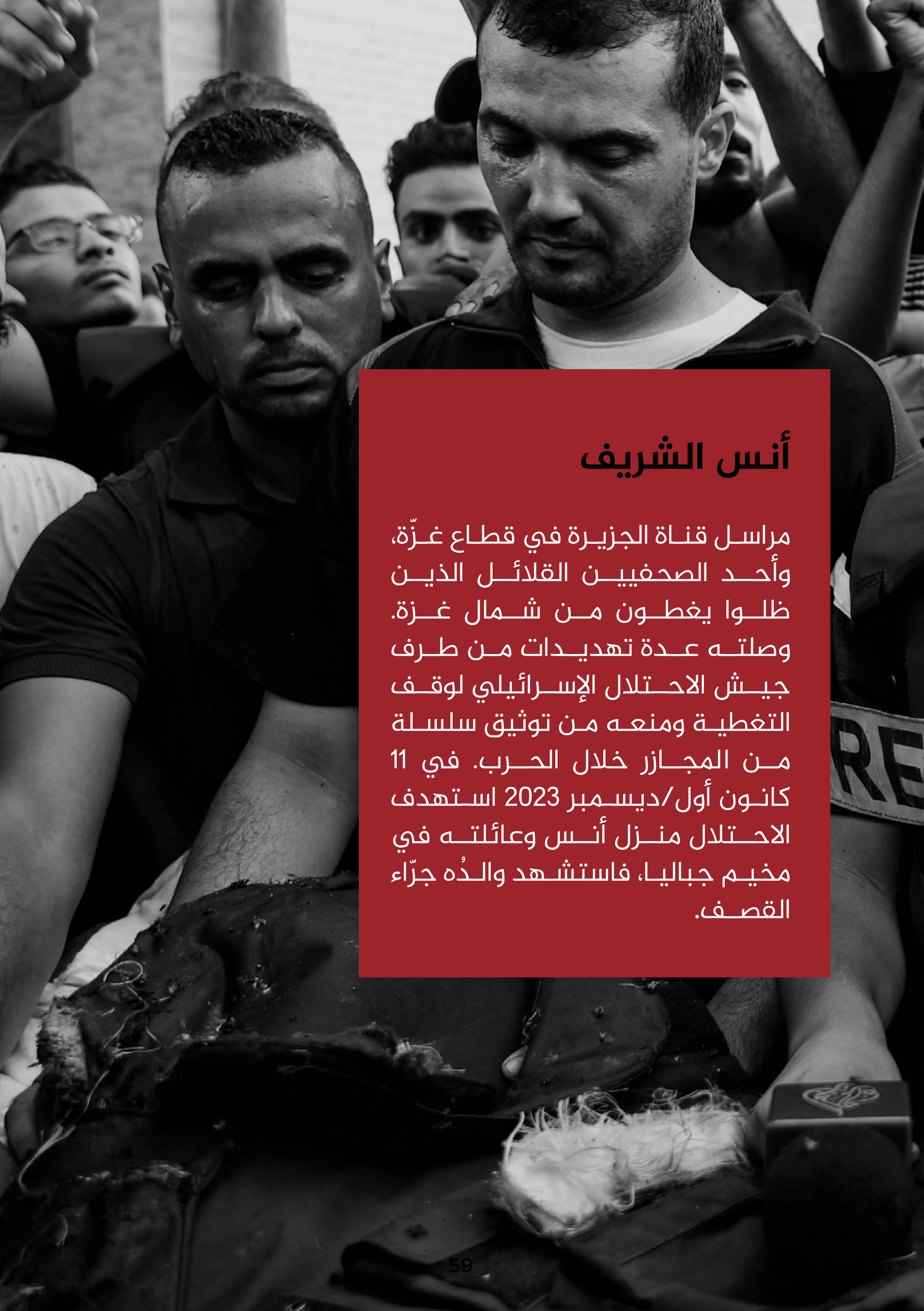
هذا ملخص عام من التجول بينهم وبين معاناتهم: لا نريد شيئا سوى أن تتوقف الحرب. تعب الناس من ذكرياتهم والمقارنة المريرة بما كانوا عليه من قبل. بعضهم حافظ على رباطة جأش تمكنه من التأقلم والابتكار، وبعضهم عاش مستسلما ومتعبا بما يكفي وسط أحمال لا تطيقها الجبال، وبعضهم يملك الطاقة ولا يملك الإمكانات؛ فكل شيء أصبح باهظا بدرجة تفوق التصور.

كل شيء: من حفنة الملح، إلى مسمار الخيمة، إلى غطاء النايلون، حتى حبة البطاطا والبندورة وساعة الإنترنت في الشارع، كل شيء سعره في ارتفاع إلا قيمة الإنسان هنا؛ دمه وأشلاؤه وجثته.

هذا ملخص آخر للحرب أيضا، لا قيمة للإنسان هنا، لا قيمة لآلامه ولا لأحلامه ومستقبله ولمعاناته ولا حتى لمشاعره. يشعر الناس أن العالم يراهم حطبا يحترق، وينسى العالم أنهم مثلهم من لحم ودم!

هل من أمل أن تتغير الصورة، ولو بعد عام؟


قلت الحقيقة
فقتلوا والدي
أنس الشريف



أنس الشريف

مراسل قناة الجزيرة في قطاع غزّة، وأحد الصحفيين القلائل الذين ظلوا يغطون من شمال غزة. وصلته عدة تهديدات من طرف جيش الاحتلال الإسرائيلي لوقف التغطية ومنعه من توثيق سلسلة من المجازر خلال الحرب. في 11 كانون أول/ديسمبر 2023 استهدف الاحتلال منزل أنس وعائلته في مخيم جباليا، فاستشهد والدُه جرّاء القصف.

4

قلت الحقيقة فقتلوا والدي

أنس الشريف

بعد عام كامل من تغطية حرب الإبادة على غزة، عام من النزوح والجوع، والقصف والدمار، والمجازر التي لم تتوقف، لا أستطيع أن أصف حجم الألم والمعاناة التي عايشناها، ولا أعلم صراحة من أين أبدأ سرد هذه التجربة وأين أنتهي. ربما سأحتاج أياما، بل شهورا وسنوات، لأحكي هذه القصة بكل تفاصيلها.

أصل الحكاية

بدأت القصة منذ اللحظة الأولى لاندلاع حرب الإبادة الجماعية على غزة. في ذلك الوقت، بدأت عملي مراسلا صحفيا لتغطية الأحداث الميدانية، بما في ذلك القصف المستمر والمجازر التي يرتكبها الاحتلال الإسرائيلي. تواصل معي الزميل تامر المسحال، وطلب مني البدء بتصوير تقارير وبثها لصالح الجزيرة. لم تكن المهمة سهلة، ولا سيما أنني كنت مصورا صحفيا لسنوات عديدة ولا أملك خبرة سابقة في مجال المراسلة التلفزيونية. ومع ذلك، اتخذت قرارا حاسما بالمضي قدما في هذا الطريق، لنقل معاناة الشعب الفلسطيني في شمال القطاع إلى العالم.

كنا ننتقل من منطقة إلى أخرى، وكلما ظننا أننا في أمان، وجدنا أنفسنا في مواجهة خطر أكبر. نزحنا أكثر من عشرين مرة، محاصرين في المستشفيات والأزقة والشوارع. نجا بعضنا بمعجزة، بينما فقدنا العديد من الزملاء الأعزاء،

منهم إسماعيل الغول ورامي الريفي، وغيرهم ممن قدموا أرواحهم فداء للوطن والقضية. إنهم أبطال ضحوا بأنفسهم لنقل الحقيقة، وكانوا رمزا للشجاعة والتضحية.

اليوم، كل من يزاول هذه المهنة يوجد في دائرة الخطر من دون ضمانات حماية جادة، وربما وأنا أكتب هذه الكلمات، قد أكون مستهدفا أنا وزملائي في أي لحظة على نحو متعمد، رغم أننا نرتدي ما يثبت أننا صحفيون.

"إسماعيل الغول"

أصر إسماعيل الغول على البقاء في شمال القطاع لتغطية الأحداث، وكان هدفا "مشروعا" في أدبيات الاحتلال، حين استُهدف بصاروخ إسرائيلي متعمد، ولم تحمه القوانين الدولية ولا بزته الصحفية. علاقتي بإسماعيل تتجاوز الزمالة؛ فقد جمعتنا صداقة ممتدة: حضر زفافي في عام 2016 وحضرت زفافه، وعملنا معا في عدد من المؤسسات الصحفية، ومع بداية الحرب، جمعتنا الجزيرة مرة أخرى، فرفضنا النزوح إلى الجنوب وأصررنا على البقاء لتغطية الأحداث من غزة والشمال. كان أخًا وصديقا ورفيقا لا يعوض، وقد رأيته آخر مرة قبل يوم من استشهاده. كنا نخطط للقاءٍ في غزة، ولكن بدلا من ذلك، وصلني اتصال يُخبرني بأن استهدافا قد وقع في شارع الجلاء.

حينئذ تواصلت مع إسماعيل لتأجيل لقائنا؛ إذ كانت لديه تغطية قرب موقع الاستهداف، وبينما توجه إسماعيل لتغطية القصف، صُدمت حين عرفت أن المنزل المستهدف هو منزل شقيقتي، والمؤلم أن عائلتي كلها هناك. غطى إسماعيل الحدث، وأعد تقريره عن المجزرة، ثم ساعد عائلتي وعائلة شقيقتي، بمن فيهم الأطفال الذين نجوا من القصف بأعجوبة، في الانتقال إلى مكان أكثر

أمانا (أقول هذا مجازا). بعد ذلك عاد إلى مقر إقامته في مستشفى المعمداني. كنت في منطقة الصفطاوي بمدينة غزة عندما تلقيت نبأ استهداف إسماعيل. هرع إليّ الزميل محمد شاهين، مراسل "الجزيرة مباشر"، وهو يصرخ: "قصفوا إسماعيل!" فخرجت حافي القدمين، من دون أن أستوعب تماما ما يحدث، متوجها بسرعة إلى موقع الحادث. عندما وصلت إلى مستشفى المعمداني، وجدت إسماعيل وقد ارتقى شهيدا، بجوار زميلنا رامي الريفي، وكلاهما قد فارق الحياة بطريقة مروعة.

استشهاد إسماعيل كان صدمة هائلة لي، لم أشعر بقسوة الحرب كما شعرت بها بعد فقدانه. غيابه تركني مثقلا بالحزن والألم؛ لقد فقدت أخا وزميلا، ومع ذلك أجد نفسي ملزما بالاستمرار في تنفيذ وصيته، بنقل الحقيقة ومواصلة ما بدأه، كي نكمل رسالته وننقل معاناة شعبنا إلى العالم.

في غزة، المأساة لم تستثنِ أحدا، لم يكن هناك فارق بيننا نحن الصحفيين وبقية الناس، وعشنا الخطر بكل تفاصيله: النزوح، والحصار، والجوع الذي نال من أجسادنا، كنا جزءا من الشعب، نعيش المعاناة نفسها ونواجه التهديدات ذاتها. الاحتلال لم يفرق بين أحد؛ الجميع كانوا أهدافا، رجالا ونساء، أطفالا وصحفيين. ورغم هذا الألم المستمر، شعرنا بمسؤولية كبرى تجاه نقل الحقيقة؛ فقد كانت الأمانة التي نحملها أكبر من أي خوف أو تهديد، ورغم المخاطر لم نتوانَ لحظة عن مواصلة رسالتنا.

أشلاء وأشلاء

لا يوجد في غزة مكان آمن، الجميع يعيش تحت تهديد الموت في كل لحظة. عائلات كاملة تُمحى من السجلات، وأخرى لا تزال مدفونة تحت الأنقاض. المصابون يفارقون الحياة في المستشفيات بسبب نقص الرعاية، وقد رأينا

الأيتام والأرامل، وشهدنا مقتل زملائنا من الصحفيين، والأطباء، والمهندسين، والمعلمين، واعتقال آخرين.

عشنا مشاهد لا يمكن وصفها أو نسيانها، رأينا المجازر تُرتكب يوميا بحق الأطفال والنساء والعائلات، وشاهدنا الجرحى تُبتر أطرافهم من دون تخدير، والأطفال يُدفنون تحت الأنقاض وهم يستغيثون. سمعنا أصوات الأطفال ينادون آباءهم لإنقاذهم من بين النيران، ولكن لا أحد كان قادرا على ذلك. رأينا مئات الجثث المتكدسة، مشاهد ستظل محفورة في ذاكرتي إلى الأبد.

من ضمن كل المجازر التي عايشتها، تظل مجزرة مدرسة التابعين هي الأشد إيلاما؛ في إحدى ليالي الفجر، تلقيت اتصالا يعلمني بوقوع مجزرة جديدة، ومن دون أن أعبأ بارتداء حذائي، خرجت بسرعة بملابس البيت، متجها إلى مكان الحادث رغم المخاطر المحدقة.

عند اقترابي من المدرسة، كانت الجثث متناثرة على الطريق المجاور: دخلت المدرسة لأجد نفسي وسط أشلاء وجثث مبعثرة في كل مكان. مع كل خطوة كنت أشعر بثقل الفاجعة؛ إذ لم يكن هناك موضع قدم خالٍ من جثث الضحايا. في ظلام حالك، لجأنا إلى كشافات لنرى ما حولنا، وعندما بدأت الصورة تتضح شيئا فشيئا، تجمدت في مكاني، واضعا يدي على رأسي، مشدوها أمام هول ما رأيته. في تلك اللحظة، عجزت عن التعبير؛ لأن المشهد كان أكبر من أن تصفه الكلمات.

كنا أمام خيارين مؤلمين: هل نحافظ على حرمة الجثث والأشلاء المتناثرة، أم نضطر إلى المشي بينها لتوثيق هذه الجريمة؟ وكان خيارنا الصعب هو السير فوقها لتسجيل هذا المشهد المروع. أشلاء الأطفال والنساء وكبار السن والشبان مختلطة ومرصوصة على الأرض؛ لأنهم كانوا مصطفين جنبا إلى

جنب لأداء صلاة الفجر. هذه المجزرة تركت جرحا عميقا في نفسي، ولا يمكن نسيانها.

من المشاهد الأخرى التي لا تزال عالقة في ذاكرتي، تلك اللحظات التي كنا نسمع فيها استغاثات الناجين العالقين تحت الأنقاض، أصواتهم كانت تصل إلينا، بينما الدفاع المدني يقف عاجزا عن إنقاذهم بسبب نقص الإمكانات. أن يموتوا ببطء تحت الركام، من دون قدرة على مساعدتهم، هو مشهد يصعب وصفه، ولا يمكن للكلمات أن تعبّر عن قسوته.

نتحدث عن هذه المشاهد ونحن ندرك جيدا أنه لا مكان آمن في غزة. المستشفيات، والشوارع، ومراكز النزوح، والمنازل، والمدارس، وحتى الخيام، كلها أهداف محتملة. لا ملاذ ولا مأمن، والخطر يحيط بنا في كل لحظة. ورغم ذلك، نحن مجبرون على توثيق ما يجري، حتى لو كان الثمن حياتنا؛ إنها حرب مفتوحة، مجازر متواصلة، قصف لا ينقطع، إبادة ممنهجة للسكان.

نحن الصحفيون نعيش هذه الكارثة مثل الجميع، نواجه التهديدات نفسها، ونتحمل المخاطر ذاتها، ولكننا نعلم أن صوتنا هو سلاحنا الأقوى، ورغم أن حياتنا قد تكون الثمن فلن نتوقف عن توثيق الحقيقة. هذا واجبنا، ومسؤوليتنا تجاه شعبنا ومعاناته، وهو ما يحفزنا على الاستمرار مهما كان الخطر.

ثمن التغطية

خلال هذه الحرب، تلقيت عدة رسائل تهديد من ضباط الاحتلال الإسرائيلي، كانوا يحاولون الضغط عليّ لوقف عملي مع الجزيرة، ويطالبونني بالتوقف عن التغطية والنزوح إلى جنوب القطاع، ولكن هذه التهديدات المستمرة لم

تردعني عن مواصلة رسالتي. كان خياري واضحا منذ البداية؛ قررت، بدعم من عائلتي ووالدي، ألا أغادر شمال القطاع، وأن أستمر في تغطية الأحداث مهما كان الثمن.

حتى عندما اقترب الخطر واجتاحت قوات الاحتلال الإسرائيلي مخيم جباليا من الجهة الغربية، وحاولَتِ التوغل داخله، بقيت في المكان لأوثق الاجتياح والمجازر التي ارتكبتها هناك. في خضم هذا الاجتياح، حاصرت القوات الإسرائيلية الأهالي والنازحين في أحد مراكز الإيواء، واعتقلت بعضهم وأجبرت الآخرين على الخروج تحت وابل من الرصاص. ورغم خطورة الموقف، كنت قريبا، أوثق كل شيء. بعد دقائق من انتهائي من إعداد تقرير عن هذه الأحداث وبثه على شاشة الجزيرة، وصلني خبر قصف منزلي ومنزل عائلتي.

كان هذا الثمن باهظا، ربما اعتقد الاحتلال أن استهدافه المباشر لعائلتي سيوقفني، ولكنه لم يعرف أن استشهاد والدي لم يكسرني؛ بل زادني إصرارا على المضي قدما في الطريق الذي اخترته. كانت تلك وصيته لي؛ أن أواصل أداء واجبي، وأن أكون صوتا ينقل الحقيقة مهما كانت الظروف.

لا أخفي عنكم أنني شعرت بصدمة عميقة رغم أني كنت مدركا تماما أن الاحتلال سينتقم مني ومن تغطية الجزيرة، وأعرف أيضا أنهم مجبولون على الغدر، وكان وقع نبأ استشهاد والدي نتيجة قصف متعمد، أشدَّ مرارة وألما. لا أستطيع وصف مشاعري في تلك اللحظة؛ فقد كنت أراه نادرا خلال الحرب التي امتدت خمسين يوما (لحدود تلك اللحظة)، وربما التقينا مرة أو اثنتين فقط. كان الشوق إليه يملأ قلبي، وأشعر أنه رحل وهو يشتاق لي أيضا، من دون أن نلتقي من جديد، وفي المرة الثالثة التقيت به شهيدا. اجتاحني شعور لا يوصف من الحزن؛ فقد كنت أتمنى لقاءه حيا، ولكنني ودعته بفخر وإيمان بقضاء الله وقدره.

ورغم ألم الفقد، وقفت أمام الكاميرا بعد دقائق من استشهاد والدي لأغطي نبأ استشهاده ومراسم دفنه. لم أتردد في مواصلة عملي؛ لأنني كنت مدركا أن إيصال معاناتنا إلى العالم هو واجب لا يمكن التراجع عنه، حتى عندما أصبحتُ جزءا من هذه المأساة. واصلت التغطية رغم حزني؛ لأنني أعلم أن صوتنا يجب أن يصل مهما كان الثمن.

تسببت هذه الحرب في فقدان مقومات الحياة جميعها، وشهادتي على ما عشته ورأيته قد لا تكون كافية لوصف الواقع بدقة، ولكنها تعكس جزءا من المأساة التي سحقت الأخضر واليابس، والحجر والشجر، وكل جوانب الحياة. الظروف التي واجهناها خلال تغطية الحرب لا يمكن مقارنتها بأي شيء آخر، ولا أعتقد أن أي صحفي في العالم قد عايش ما مررنا به خلال هذه السنة. إلى جانب الاستهداف المستمر، كانت المجاعة تنهش أجسادنا ببطء خلال شهور الحرب.

كنا أنا وزملائي الصحفيين نسعى جاهدين للبحث عن أي شيء يسد جوعنا، ولكن لم نتمكن حتى من الحصول على كيلوغرام واحد من الطحين. أحيانا كنا نحصل على بعض المكسرات أو الحلوى، ولكنها كانت تنفد سريعا، حتى أصبحت أبسط الأشياء نادرة. لأربعة أيام متواصلة، لم نستطع الحصول على وجبة طعام واحدة، وغالبا ما كنا نخرج أمام الكاميرا ونحن جائعون ومنهكون. أدرك أنني لم أستطع وصف كثير من المجازر التي شهدتها، وأنني كذلك لم أستطع التعبير عن شهور المجاعة التي مررنا بها؛ فهذه التجربة تحديدا لا يمكن سردها كقصة، ولا يمكنني وصف كيف يعيش الناس، وكيف يعاني زملائي وأبناء غزة تحت وطأة القصف والجوع معا.

ها هنا، أعترف أنني وجدت نفسي في كثير من الأحيان في حالة من اللامبالاة، أتجول بين الأشلاء وجثامين الأطفال والنساء. تعايشت مع هذا الواقع

الفجع، وأحيانا مرّت عليّ مشاهد لا أستطيع تحملها، ولكنني كنت أضغط على نفسي لأوصل الرسالة.

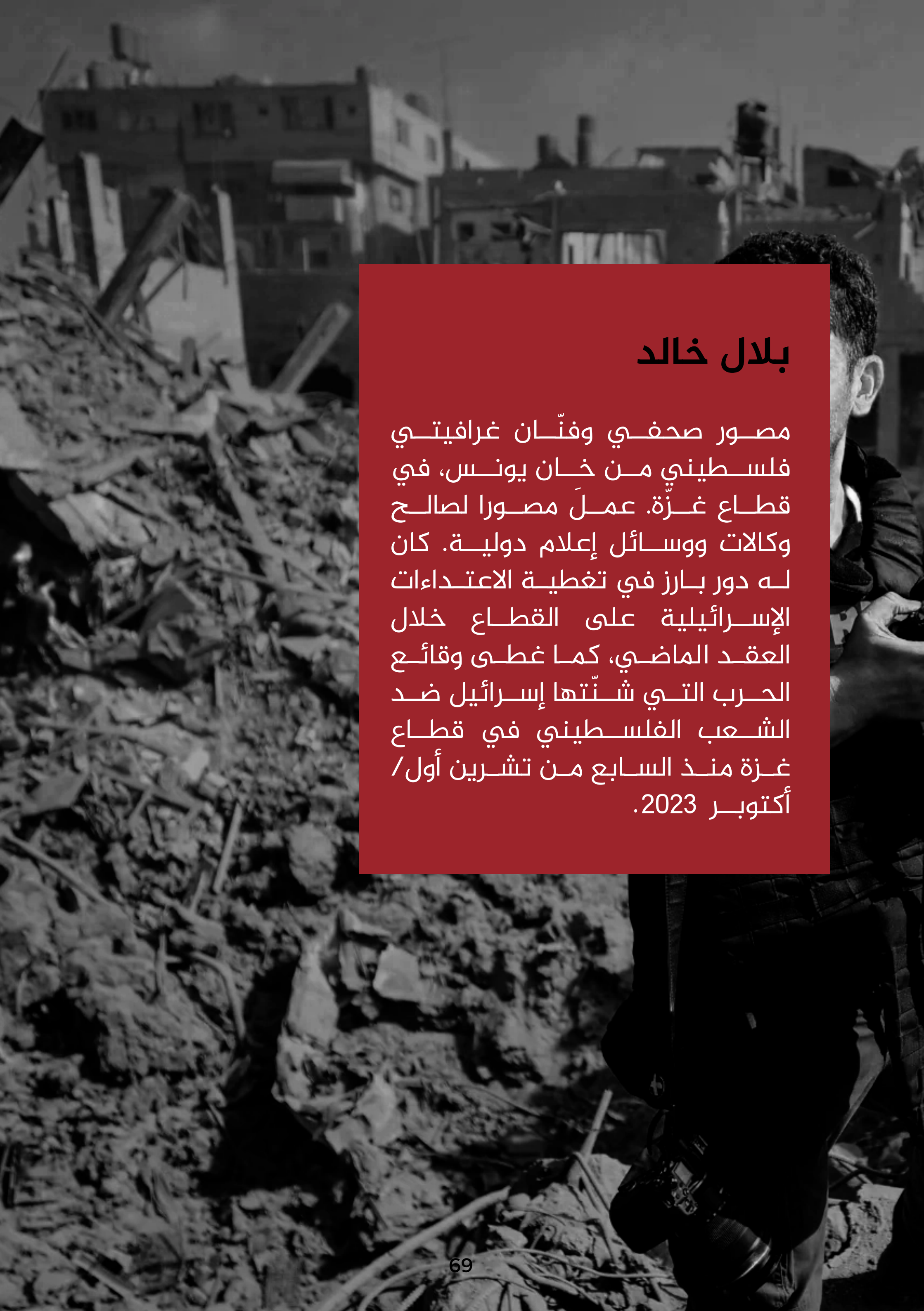
قد يرى البعض أنه لا ينبغي علينا المخاطرة بحياتنا من أجل الحدث والصورة، ولكننا نعلم أنه من دون هذه المخاطرة، لن يعرف العالم ما يحدث هنا، وواجبي قبل أن يكون وطنيا هو ديني وأخلاقي؛ أن أنقل معاناة أبناء غزة وما يحدث لهم. رغم أن كثيرا مما وثقناه من مجازر شنيعة قوبل بالصمت، فإن هناك مجازر أخرى وُثّقت وحظيت بدعم العالم لنصرة ضحاياها ولو بالقليل.

لقد مرّ عام مرير منذ بداية حرب الإبادة التي لم تتوقف حتى الآن. وما زلت على الطريق نفسه، أواصل نقل ما يجري بصدق، لأُري العالم ما نراه ونعيشه كل يوم. قد يتساءل البعض لماذا أستمر في التغطية رغم أن شيئا لم يتغير ولم يُوقف هذا الدمار. جوابي بسيط: ربما يكون هناك مشهد أو حدث أو صورة مما وثّقته قادرة على إحداث الأثر المطلوب، لتصبح تلك اللحظة هي الشرارة التي تنهي هذه الحرب يوما.



صور الموت في غزّة

بلال خالد



بلال خالد

مصور صحفي وفنّان غرافيتي فلسطيني من خان يونس، في قطاع غزّة. عملَ مصورا لصالح وكالات ووسائل إعلام دولية. كان له دور بارز في تغطية الاعتداءات الإسرائيلية على القطاع خلال العقد الماضي، كما غطى وقائع الحرب التي شنّتها إسرائيل ضد الشعب الفلسطيني في قطاع غزة منذ السابع من تشرين أول/ أكتوبر 2023.

5

صور الموت في غزّة

بلال خالد

يوم السابع من أكتوبر لم أكن في غزة، كنت في الدوحة أتابع الأحداث عبر التلفزيون ووسائل التواصل الاجتماعي مثل بقية العالم، لكن في اليوم نفسه، شعرت بأن ما يحدث ليس تصعيدا عاديا، وأيقنت أننا على أعتاب حرب طاحنة؛ حرب لم تعرفها المنطقة من قبل.

"مسيرة العودة"

نحن أهل غزة لدينا حدس خاص، علمتنا الحروب السابقة كيف نقيم الأمور. في الماضي، يبدأ التصعيد بأحداث صغيرة، كبالونات حارقة يطلقها الشبان خلال مسيرات العودة، لتتبعها غارات محددة وسقوط شهداء، ولكن هذه المرة كان الوضع مختلفا؛ فالأخبار تحدثت عن عمليات أسر وهجمات واسعة النطاق. بصفتي صحفيا، كنت واثقا أن رد جيش الاحتلال سيكون مختلفا عن كل ما عهدناه من قبل؛ لذا حجزت تذكرتي وغادرت الدوحة، في رحلة لم أخطط لها، فلم يكن قد مر على وجودي في العاصمة القطرية سوى عشرين يوما.

كان القرار حاسما ولم أتردد للحظة، فقد شعرت، وأنا الصحفي الفلسطيني، أن مكاني الحقيقي هناك، في قلب الحدث. نحن لا نختار الصحافة فقط مهنةً نمارسها، بل لأننا نحمل رسالة أكبر. لنكن أكثر وضوحا: ندخل هذا المجال لأننا نؤمن بأننا جزء من النضال، وأننا نسهم من خلاله في الدفاع عن قضيتنا،

ولكن ما دفعني بقوة للعودة هو السبب الأهم: عائلتي تعيش في غزة، والدي، ووالدتي وإخوتي. في تلك اللحظات الصعبة، كنت أريد أن أكون معهم، لقد جربت التوتر والخوف خلال الحروب السابقة، وحتى لو استمر ذلك يوما أو يومين فقط، فقد كان الشعور مرهقا؛ حالة من عدم اليقين تسيطر علي، وأنا لا أعرف ما يحدث. فكيف لي أن أتحمل متابعة هذه الحرب من بعيد، وعائلتي تتعرض للخطر؟ إنه شعور يفوق القدرة على الاحتمال.

وصلنا إلى مصر في المساء، وكان علينا الانتظار حتى الصباح عند المعبر، حيث غص المكان بالحشود. دخلنا غزة حوالي الساعة العاشرة مساء. المشهد عند المعبر كان مختلفا عن كل مرة؛ ساد الصمت والهدوء المكان على غير العادة، بينما كانت طائرات الاستطلاع تحلق في السماء وأصوات الانفجارات تتردد في الأفق. هكذا كان الاستقبال: مرحبا بك في غزة.

"يوم قيامة"

لم أنعم بترف الوقت لألتقط أنفاسي أو أتأمل ما يجري من حولي. توجهت فورا إلى الميدان، أحمل كاميرتي بيدي. أول قصة وثقتها كانت مجزرة عائلة دلول؛ كنا في طريقنا من خان يونس إلى مدينة غزة، قبل أن يتم تقسيم المدينة بين الشمال والجنوب، أنا وزميلي ياسر قديح كنا في السيارة عندما تعرضنا فجأة لاستهداف بالقرب من شارع صلاح الدين. توقفنا بسرعة وركضنا باتجاه الموقع المستهدف. أمامنا منزل تهدم كاملا على ساكنيه، وعملية الإنقاذ بدأت. تأملنا طويلا في عملية انتشال امرأة وابنتها... لا أعرف كيف أصف المشهد!

أذكر بوضوح تلك اللحظة؛ المرأة التي انتُشلت كانت ترتدي زي الصلاة، ثوبا أسود وأخضر، كانت هي وابنتها متعانقتين أو جالستين بجوار بعضهما، وكان

وجه الأم متجها نحو ابنتها الصغيرة، أيديهما ممدودة خارج الأنقاض، بينما السقف المنهار غمر أجسادهما. كان انتشالهما صعبا للغاية، في ظل قلة المعدات ونقص فرق الدفاع المدني التي كانت منشغلة في مواقع أخرى.

بذل أهل المخيم كل ما بوسعهم لانتشال الضحايا، مستعينين بما توفر لديهم من أدوات بسيطة وإرادة قوية. أتذكر الصورة التي التقطتها في تلك الأيام العصيبة؛ كانت مشهدا يظهر تجمع أهالي المخيم كلهم، متكاتفين لرفع عمود إسمنتي ضخم. كان ذلك المشهد رمزا حيا للتعاون والشجاعة، يجسد روح التضامن التي تسري في نفوسهم، وكأنهم يقولون للعالم: رغم الألم والفقد، فنحن هنا، نصمد ونقف معا.

بدأت العمل مع وكالة الأناضول التركية، ثم انتقلت للعمل مع قناة الجزيرة الإنجليزية، وأيضا مع وكالة "أ. ف. ب" الفرنسية و ABC News.

خلال الحرب، التقطت العديد من الصور المؤثرة، لكن واحدة منها ظلت محفورة في ذاكرتي؛ صورة لرجل يحمل طفلة انتُشلت من تحت الأنقاض، وهو يصرخ بألم "نتنياهو قاتل الأطفال". كانت الصورة مؤثرة جدا؛ إذ بدت الطفلة كما لو أنها لا تزال على قيد الحياة، ما ضاعف من قوة المشهد وجعل الألم الذي تحمله الصورة يمسّ القلوب.

صحيح أنني مصور صحفي، وأن مهمتي الأساسية هي توثيق اللحظة وإيصالها للعالم، لكنني دائما أشعر بأن واجبي الأول هو مساعدة الضحايا، قبل أن أرفع الكاميرا وألتقط الصورة.

عندما أعمل في الميدان، يكون أول ما أفكر فيه هو مساعدة الضحايا. بالنسبة لنا، نحن المصورين الصحفيين، علينا دائما أن نكون سريعين في التصرف، نضع

الكاميرا في وضع الاستعداد، ونظل متأهبين لأي لحظة. ما إن نسمع صوت انفجار أو نداء استغاثة، حتى نبادر إلى طلب المساعدة أو نسهم بأنفسنا حتى تصل فرق الإنقاذ. في كثير من الأحيان، نكون أول الواصلين إلى مواقع الدمار، قبل وصول الإسعاف والدفاع المدني. حينئذ، نجد أنفسنا نبحث بين الأنقاض، ننتشل الجثث أو نحاول إنقاذ من بقي حيا.

بصفتي مصورا صحفيا، أحيانا يصبح من الضروري ترك الكاميرا جانبا. الصحافة في جوهرها هي صوت الإنسان، لكن عندما يحتضر الإنسان أمام عينيك، فإن الصورة تفقد أهميتها مقارنة بحياته. أتذكر هذا بوضوح خلال مجزرة التاج في غزة يوم 25 أكتوبر 2023، عندما استُهدف مربع سكني في شارع الجلاء بأكثر من عشرة صواريخ وبراميل متفجرة، ما دمر 13 طابقا وسوّى المكان بالأرض. المشهد كان أشبه بزلزال مدمر في منطقة مكتظة بالسكان، حيث انتشرت الجثث في كل مكان، ملتصقة بالأنقاض ومغطاة بالغبار الرمادي. كنا نتعثر بها بينما الحرائق تحاصرنا من كل جانب، وكأننا نعيش فعليا أهوال يوم القيامة.

واحدة من المشاهد التي لن تمحوها ذاكرتي أبدا هي يد طفلة تتدلى من تحت الأنقاض، بينما تتعالى صرخات النساء من الأبراج. كان الموقف مرعبا ومؤلما إلى درجة أنني وزملائي لم نستطع حتى رفع الكاميرات لتوثيق ما نراه.

هذا الإحساس بالعجز عن التصوير رافقني مرات عديدة، خصوصا حينما تأتي العائلات المنكوبة بعد استشهاد أحبائهم. كيف يمكنني وصف هذا الألم؟ كيف يمكنني الإمساك به أو التعبير عنه بالكلمات؟ لا أظن أن الكلمات تستطيع استيعاب الإحساس. هي لحظات تبدو كما لو أنها مقتطعة من يوم القيامة نفسه، حيث تختلط الفجيعة مع الدمار في مشهد من الصعب أن ينسى.

قصص وصور في كل مكان

ووسط هذه القيامة يجب أن أعثر على الزاوية المناسبة، على القصة الأكثر تأثيرا. ثمة قصص لن أنساها مثل قصة عائلة دهستها دبابة، ظلت تحاصر بيتهم وتدكه ليلة كاملة. وصل الأطفال مكسورين إلى المستشفى ليعتقلهم جيش الاحتلال، وقصة المرأة التي استشهدت هي ووليدها بعد أن وضعته بفترة قصيرة. هناك أيضا قصص لعائلات كاملة استشهدت في وقت قصير، وكل قصة تحمل طابعا مختلفا وتعبر عن معاناة فريدة. نحن لا نتعامل مع هذه الأحداث بوصفها قصصا فقط؛ لأننا نعرف عائلات بأسمائها، مثل عائلة حمدان وعائلة أبو محيص وعائلة غانم. كل عائلة خسرت عددا من أفرادها، والمجزرة تترك أثرا مختلفا في كل مكان.

بعد مرور فترة من حرب الإبادة الجماعية، بدأت أدرك بعمق قوة الصورة وتأثيرها الهائل، خصوصا مع ازدياد التضامن العالمي مع قطاع غزة عبر وسائل التواصل الاجتماعي. آنذاك، تحولت صوري، وصور أخرى، إلى رموز قوية في المظاهرات والاحتجاجات التي اجتاحت العالم، لتستخدم كجرافيتي وملصقات في الشوارع في قارات مختلفة.

إحدى الحركات الفنية التي أثرت بشكل كبير كانت حركة "Unmute Gaza"، التي استُلهمت من صوري في أعمالها الفنية، ما أدى إلى انتشار واسع لحملة تضامنية عبر القارات. كان من المذهل رؤية كيف تحولت الصور إلى وسيلة قوية للتعبير عن الألم والمقاومة، وكيف أنها جمعت أصواتا متعددة حول العالم في نداء واحد للعدالة والحرية.

كان الهاجس الذي يسيطر علي ليس مجرد توثيق لحظة عابرة تلتقط الخبر اليومي، بل السعي وراء صور تخلدها الذاكرة الجماعية وتلاحق الجناة، وتظل

شاهدة على مجازر الإبادة. كنت أبحث عن تلك اللحظات التي تختزن في طياتها معاني الحياة والموت؛ مشاهد الوداع المؤلم، والعناق الأخير، وومضات الحياة المنبثقة من قلب الموت مع حرصي الشديد على احترام خصوصية الناس، ولا سيما النساء اللواتي قد ينكشف حجابهن في لحظة ضعف. في تلك اللحظة، يصبح المرء ملزما بأن يراعي حرمتهن، كذلك كنت أحرص على التقاط صور صادقة من دون أن يشعر الأشخاص بذلك؛ لأن ردة فعلهم قد تتغير إذا علموا بوجود كاميرا.

في صباح ما، كنت أستيقظ منهكا تماما من تصوير المجازر التي لا تنتهي، خصوصا عندما يوقظني صوت الانفجارات في الثالثة صباحا لأكتشف أن المجازر لا تزال مستمرة. كان الجدول مزدحما بشكل لا يصدق؛ إذ ننتقل من جنازة إلى أخرى، وفي كل مرة كانت هناك قصة مختلفة لكل شهيد، تحمل في طياتها الألم والمعاناة.

في بعض الأيام، نصور ما يصل إلى 300 شهيد، ولم يكن من السهل استيعاب ما يحدث. التعامل مع الجثث، واستنشاق رائحة الدماء خلال النهار، ثم الانتقال ليلا إلى مواقع القصف، كل ذلك يحمل معه ثقلا نفسيا هائلا. كنا نتحرك فور سماع أي استهداف، نوثق كل شيء بعين العدسة، في محاولة لالتقاط الواقع القاسي الذي يعجز عن وصفه أي كلام.

"ضريبة الصورة"

تعرضت للاستهداف مرارا خلال الحرب. في إحدى المرات، وبينما كنت ألتقط مشاهد القصف في منطقة ما، فوجئت بأن المبنى المجاور استهدف على نحو يبدو متعمدا. في الصور والفيديوهات، يمكن رؤية الشظايا تتساقط علينا كالأمطار. فقدنا اثنين من طاقم الدفاع المدني، وكان هذا الاستهداف مجرد

مشهد قصير من مشاهد الخطر الذي أحدق بنا؛ إذ كانت تحركاتنا بين غزة والمدينة تتعرض باستمرار للاستهداف المباشر من المدفعية والطيران والطائرات المسيرة.

خلال حرب الإبادة الجماعية، تعرض منزلنا لثلاثة استهدافات متعاقبة، ما يبرز بوضوح نية تخويفي. أصبح ثابتا لدينا أن استهداف بيوت الصحفيين كان هدفا بحد ذاته.

لقد كنا شهودا على استهداف زملائنا مؤمن الشرافي، ومحمد أبو القمصان، ووائل الدحدوح، ومحمد أبو حطب. كنا شهودا على تعرضهم للنار بمعية عائلاتهم. هكذا، وإذا لم تكن أنت الهدف المباشر، فإنهم يسعون لإلحاق الأذى النفسي بك، والضغط عليك لتوقف عملك. كانوا يركزون على استهداف النخبة من المفكرين والأطباء والمهنيين، بغرض تدمير جيل كامل وإزالة أي أثر يمكن أن يسهم في فضح الجرائم أو إعادة بناء الحياة في قطاع غزة. أي شخص يرتدي درع الصحافة والخوذة يُعد هدفا مشروعا، لدرجة أن بعض الأشخاص كانوا يتندرون بالقول: لا تقف جنب الصحفي ولو أن الموت في غزة موزع بالتساوي!

كانت التهديدات تواجهنا دائما: يتصلون بشخص معين، بصحفي بعينه، ويقولون له: "أنت، وأنت، وأنت، وفلان وفلان وفلان، كنتم اليوم في المكان الفلاني. انتبهوا". ليس الأمر -بالتأكيد- من باب الحرص، بل هو أسلوب في التهديد، يوحي لك بأنهم مدركون تماما لما تفعله ويراقبون تحركاتك.

ليس هذا فقط، بل كانت بيوت عائلاتنا تُقصف مباشرة، ومن المستحيل أن تستنتج أنه كان قصفا عشوائيا؛ إذ نجت عائلتي مرتين من صاروخين.

لم يثنني التخويف والرسائل التي تصلني من جيش الاحتلال عن ممارسة عملي، وهكذا اشتغلت مع الصحافة الأمريكية، وكنت أشتغل مع محررين، واعيا جدا بخطهم التحريري وانحيازه للرواية الإسرائيلية؛ لذلك كنت أحاول أن أوصل الصورة الأقوى المعبرة عن حرب الإبادة الجماعية.

وهنا أريد أن أتحدث عن نقطة جوهرية، وهي أن منصات التواصل الاجتماعي ورغم كل التقييدات أتاحت لنا متنفسا جديدا نصل به إلى العالم ونواجه به السردية الإسرائيلية.

الإعلام يقدم دائما جزءا من الصورة، لكنه غالبا ما يكون مسيسا ومتأثرا بأجندات معينة، بينما وسائل التواصل الاجتماعي تقدم لنا الصورة الحقيقية من الميدان، مباشرة من المؤثرين والصحفيين والمواطنين الفلسطينيين أنفسهم. إنها المنصة التي تشجع على التظاهر والتعبير عن الدعم العالمي، مثلما رأينا عندما تظاهر الطلاب في أمريكا احتجاجا على ما يحدث في غزة.

عندما تشاهد مقابلة على التلفزيون أو عبر قناة أمريكية، غالبا ما تصمم لتتماشى مع سياسات القناة، ولكن عندما تتابع مباشرة من الميدان، تسمع القصة كاملة وبصدق؛ لأن الفلسطينيين هم من ينقلون رسالتهم بأنفسهم. ومع ذلك، فإن وسائل التواصل الاجتماعي، رغم أنها تمنحنا منصة حيوية، فإنها تمارس أيضا رقابة صارمة على المحتوى. حسابي مقيد حتى اليوم، وقد قُيّد أكثر من ستين مرة. كلما نشرت منشورا، يُحذف وتُقيّد صفحتي، ولكننا لم نتوقف عن النشر، وكانت لدينا دائما حسابات احتياطية في قطاع غزة لأننا نعرف أن ميتا ومنصاتها تحارب المحتوى الفلسطيني. هذه الرقابة تشكل واحدة من الصعوبات العديدة التي نواجهها في تغطيتنا.

الموت والحياة

انصب تركيزي خلال الحرب على جوانب الإبادة جميعها، من القصف العشوائي والنزوح، إلى الوداعات المدمية والفقدان المفجع، وصولا إلى الإصابات المروعة ونقص الكوادر الطبية، والأزمات الإنسانية مثل المجاعات ونقص المياه والخدمات الصحية في قطاع غزة. لم نُغفل أيضا مشاهد الحياة اليومية؛ كيف يستقبل الناس شهر رمضان في الخيام، وكيف يزينون بيوتهم البسيطة ويقيمون أفراحهم رغم ظروف الإبادة.

صورنا الناس وهم يتزوجون في مدارس الأونروا وفي الخيام، ورصدنا كيف يحولون خيامهم إلى بيوت مؤقتة، وكيف يجتمعون حول مائدة السحور في خضم أوضاع قاسية. كانت جهودنا موجهة لتوثيق صمود أهل غزة وإصرارهم على إحياء الحياة رغم كل ما يحيط بهم من دمار وظروف صعبة. هذه المشاهد التي تبرز القوة الداخلية لشعب غزة تزعج الاحتلال، الذي لم يكن يستطيع تحمل رؤية روح الحياة تتجلى في ظل الإبادة.

أتذكر شخصا كان يعمل في معهد موسيقى وقرر أن يقدم دروسا موسيقية للأطفال في مدارس الأونروا بشكل منتظم، وهي مبادرة تعكس درجة التحدي والإصرار أمام الاحتلال. لم يقتصر الأمر على تعليم الأطفال الأساسيات فقط، بل شمل أيضا تقديم دروس في الموسيقى والفن، بما في ذلك ورش لتعليم الأطفال الرسم والفن تحت الشمس وفي الخيام.

كنا نوثق هذه المشاهد كلها، نلتقط لحظات التحدي والأمل وسط الدمار. حاولنا تسليط الضوء على الجرائم، توثيق كل جريمة وفكرة وكل شهيد، وكذلك قصص الحياة التي تنبض بالأمل والصمود. كانت هذه المبادرات

الفنية والتعليمية، رغم ظروف الإبادة، تشكل رمزا قويا لروح المقاومة والإبداع التي يواصل الناس في غزة إظهارها.

الصورة أقوى دائما في نقل معاناة الناس لأنها تعبر عن المشهد كاملا. أحيانا، الكتابة لا تعطي الصورة حقها في الوصف، ولا يمكنك التعبير بالكلمات عن الصوت، أو لحظة الفراق، أو عن الأيدي المتشابكة، أو بقع الدم التي تلطخ أيادي الآباء وأبنائهم، أو عن حجم المبنى الذي سحق الأشخاص في داخله، وكيف كانوا محاصرين في زوايا وأركان مختلفة. من المستحيل وصف كل هذا بدقة بالكلمات. القصص المختصرة التي تحملها الصور تقدم المشهد الأكبر بشكل أفضل من الكتابة، وكل شخص يجد في الصورة قصصا داخلية تعبر عن تجارب مختلفة.

في بعض الأحيان، أكتشف قصة جديدة عندما أراقب الصورة وأجد شخصا آخر يروي لي عن خلفية الصورة. كلما زدت في تكبير الصورة، تكشفت تفاصيل أكثر فأكثر، مثل صورة لمشهد تشييع في المستشفى تظهر في خلفيتها امرأة تعد الخبز. ما يمكن قوله عن تلك الصورة هو أنه من الصعب تخيل حجم التناقض فيها، وهو شيء لا يمكن نقله بالكلمات.

الآن، وحرب الإبادة الجماعية تختم سنتها الأولى، ما زلت أتذكر كل التفاصيل تقريبا. لا يمكن أن أتحدث عن صورة واحدة أو مشهد واحد أو مأساة واحدة، لكن دعوني أنهِ هذه الشهادة بهذه القصة:

في بداية الحصار، كنا في مستشفى ناصر، حيث كنا، نحن فريق الجزيرة، من بين آخر الفرق الصحفية التي غادرت المكان. كان المستشفى محاصرا من ثلاث جهات، ورافقنا فريق من الصحفيين الآخرين.

وصلت إلى المستشفى طفلة على متن عربة يجرها حمار، وكانت مصابة في رجلها، تصرخ طوال الطريق. دخلت المستشفى وتوقعت أنه ثمة من يعتني بها، ولكن بعد نصف ساعة تقريبا، وجدت الطفلة ملقاة على الأرض، وقد كتب لها الطبيب ورقة تطلب إجراء تصوير بالأشعة، لكن أين الأطباء؟ لقد غادر معظمهم بسبب تهديدات الاحتلال، بينما بقي قليلون فقط لتقديم الرعاية الطبية.

سألت الطبيب عن الطفلة، فأخبرني أنها بحاجة إلى صورة أشعة، وأننا نحتاج إلى شخص لنقلها إلى الغرفة المخصصة لذلك. تطوعت لأخذ الطفلة، وعندما دخلنا الغرفة رأيت أختها وأخاها الصغيرين جالسين على الأرض. رأوا الطفلة وقالوا: "هذه أروى". كانت الطفلة ملقاة على الأرض، ترتدي سترة رمادية وكمامة، وعندما رفعت عينيها، وقعت في عيني. كان مشهدا صادما: الطفلة التي انتشرت صورتها، ترتدي القناع وعينها سوداء بسبب ضغط الدم. ولأول مرة شعرت بأن ما رأيته من دمار وأشلاء لا يمكن مقارنته بالألم الذي شعرت به بسبب هذه الطفلة.

لم تكن الطفلة تدرك حجم الكارثة التي حلت بها. في براءتها، تحدثت عن الحادث وكأنها تحكي قصة عادية، وعندما سألتها، "ماذا حدث لكم؟ ولماذا عيونك هكذا؟" أجابت ببساطة: "كنا نائمين في الليل، فجاءت الدبابة وصعدت على بيتنا"، مرت الدبابة ثلاث مرات فوقهم وهم نائمون، دمرت أجسادهم وأبويهم تحت وزنها الثقيل. كان والدهم، قبل أن يسمع صوت الدبابة، يحاول إبعادهم وتوديعهم، وفي النهاية استشهد.

رغم أوجاعهم، كان واضحا أن الطفلة وإخوتها لا يعون ما حدث، كانوا يلعبون بقطعة بلاستيكية غير مدركين بعد أن والدهم لن يعود أبدا. تساءلت بمرارة: "من سيرعى هؤلاء الأطفال؟" كانوا في المستشفى، وعندما علمت

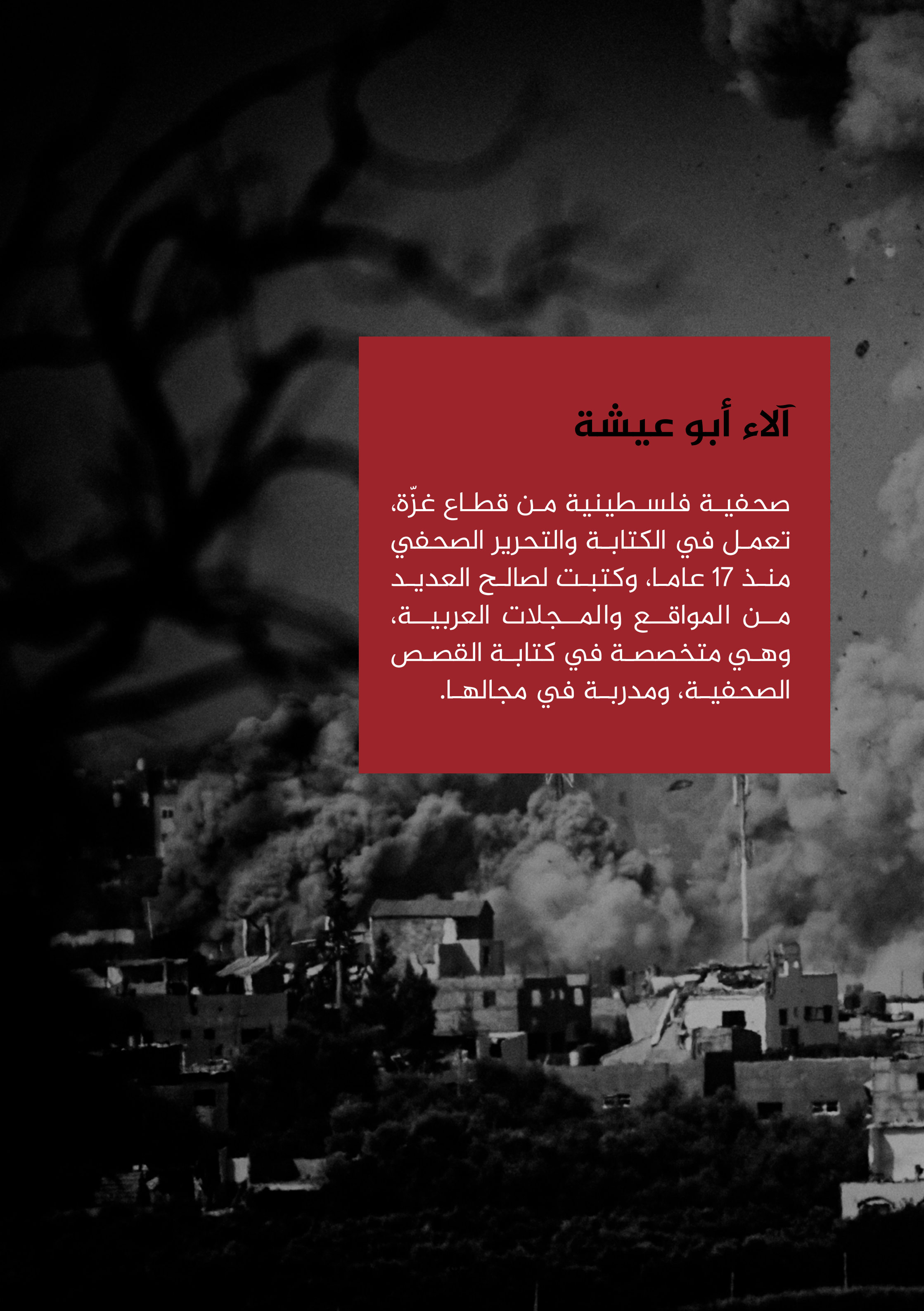
أنهم سيبقون هناك، ذهبت إلى منزلي وجلبت لهم بعض الملابس والطعام. كنت أزورهم كل ساعة أو ساعتين، أتابع حالتهم مع الأطباء، وأساعد الطفلة الصغيرة ذات الساق المكسورة، فأدخلها إلى الحمام وأبقى معها.

تلك اللحظات المأساوية تجعلني أتساءل بعمق: "لماذا؟ ما ذنب هؤلاء الأطفال؟" كانوا صغارا لم يروا من الحياة سوى القليل، ورغم ذلك، عاشوا أهوالا لا يمكن تصورها. والدتهم في الخارج تعالج أخاها المريض بالسرطان، بينما فقدوا والدهم. من سيعتني بهم؟

هذه القصة أثرت فيّ بعمق، وظللت أفكر فيها لأيام؛ نظرا لعدم وجود طبيب عيون لمتابعة حالة الطفلة، نشرت صورتها ونسقت مع العديد من الجهات. تواصلت مع وزارة الخارجية القطرية، والحمد لله، نُقلت الطفلة وإخوتها إلى قطر، حيث تلقوا العلاج اللازم، وهي الآن سليمة.. سليمة الجسد على الأقل.

تلك الرائحة..
ذلك الصوت

آلاء أبو عيشة



آلاء أبو عيشة

صحفية فلسطينية من قطاع غزّة، تعمل في الكتابة والتحرير الصحفي منذ 17 عاما، وكتبت لصالح العديد من المواقع والمجلات العربية، وهي متخصصة في كتابة القصص الصحفية، ومدربة في مجالها.

6

تلك الرائحة.. ذلك الصوت

آلاء أبو عيشة

كل ما في هذه التجربة عشوائي. تماما كتلك الأحداث التي صرَعَتنا جميعا يوم اتخذت المذابح غزة موطنا لها، وتركَتنا نستعدُّ لدورنا في الموت فُرادى. نكتب على سيقان أبنائنا وأذرعهم أسماءهم الكاملة، ليُلملِمَ الناجون "أشلاء الحكاية".

الجمعة، الثالث عشر من أكتوبر/تشرين أول للعام 2023، جثم أمرٌ بالإخلاء فوق صدر المدينة، وجرفني برفقة مئات الآلاف إلى فصل جديد من فصول "نكبتنا" الطويلة! طريق ممتد من رؤوس العِباد، قُتل فيه الزيتون على أغصانه، وانحنت ظهور المباني، وفاحت رائحة "الموت" تحصد الأرواح بلا رحمة.

في الطريق إلى جنوب الوادي (وادي غزة) -وفق أمر الإخلاء الإسرائيلي الأول- مضى الناس رجالا ورُكبانا يدفنون رؤوسهم بين أكتافهم على وقع ضربات الأحزمة النارية، ويسرعون الخطى! إلى أين؟ لا أحد يجيب... لا أحد يعرف! أذكر رجلا كان يحمل فوق ظهره همّ المدينة ويبكي: "40 سنة حتى بنيت بيتي.. بلحظة هدّوه". وصبية عُرسُها كان بعد أيامٍ تصيح: "استشهد العريس". أطفال يتشبّثون بطرف ثوب أمهم ويهرولون حاملين حقائبهم المدرسية المزدحمة بكل شيء إلا بالكتب والألعاب. يبكون، وينادون والدهم الذي ذهب ليشتري الخبز صباحا.. ولم يعُد!

بين تلك المشاهد السريالية مرّت مُسنة عبر الطريق نفسه، و"لم تَمُر"! كانت تطوي ساقيها على ظهر شاحنة وتبكي. تصفع خديها وتتوسل لابنها أن تعود!

تصرخ في وجوه الخائفين خلف تلك العجلات الكبيرة: "تغلطوش غلطة أهالينا"، ثم تشير لهم بكفيها: "ارجعوا يما.. ارجعوا".

كيف كان علينا أن نسمع؟ كيف كان يمكن أن نعي، وقتئذ، أنَّ ما قالته "حق"؟ كيف كان علينا أن نفكّر بينما "الموت" يفتح لنا فمه واسعا في مدينة غزة، أننا نمضي في طريق لا نعلم له نهاية؟! كنا كلنا نمثل في "التغريبة الفلسطينية الجديدة" دور خالد تاجا، الذي ظن أن الرحيل لن يطول، وأن الحكاية كلها "يومين وراجعين".

وصلنا رفح. في أقصى جنوبي القطاع، وعلى بعد نحو سبعمئة متر من الحدود مع مصر حططنا الرحال (أنا وزوجي وأطفالي الأربعة). لم أنم ليلتئذ، وأنا أُصغي لهلوسات طفلتي الكبرى تُقى (11 عاما)، التي كانت تنادي صديقتها "ميار" بين كلام كثير لم أفهمه.

"ميار" استُشهدت نائمة في فراشها، تحديدا قبل خمسة أشهر من بدء "الإبادة"! رحلت في أثناء قصف إسرائيلي طعن ظهر الأمان في جُنح الليل، وكانت أول شهيدة في عدوان دامَ خمسة أيام، بدأ في التاسع من أيار/مايو عام 2023.

انجلى الصبح عن دموع جفّت على خدّ تُقى. فتَحَت عينيها وباغتتني بسؤال: "ماما، هو اللي بيشتاق لحدا، ممكن ربنا يجمعه فيه بوقت قريب؟" وضعتُ يدي على قلبي، تحجّرت نبضاته! لم أتفوّه بكلمة. كنتُ فقط أحترق!

في الطابق السادس داخل عمارة تتراقص على وقع انفجارات الصواريخ والقذائف قضيت خمسة أشهر. لا أبالغُ حين أقول إنني انعزلت هناك عن العالم كله. لم أكن –حرفيا- أسمع إلا أصوات الانفجارات تشقّ هدأة الليل،

واسم "ميار" في كوابيس تُقى، وارتجاف الدمع في مقلتَي تلك المسنّة: "ارجعوا يما".

لم أكن أشتمُّ إلا "يحموم" الحطب المحترق، تُشعلُهُ النساء لإنضاج العجين على أسطح البيوت التي لم تصل إليها القذائف، ودخان (زيت القلي) المُكرّر ينبعث من عوادم سيارات الأجرة بعدما منع الاحتلال دخول الوقود إلى قطاع غزة، ورائحة الدم تفوح من بين سطور القصص والتقارير التي كانت تصلني للنشر في شبكة "نوى"، التابعة لمؤسسة "فلسطينيات" الإعلامية النسوية، حيث أعمل مُحررة صحفية.

بين أربعة حيطان، وبانقطاع تام للكهرباء والإنترنت، وأحيانا لشبكة الاتصالات، كنتُ أوثّق الإبادة خلف الكواليس. أجلد ذاتي كل لحظة لأنني لم أنزل إلى الميدان لأقرأ روايات الموت في عيون الفاقدين. لم أعِش التجربة على الأرض، ولكنني اكتشفت في لحظة إدراك، أنني عشتُ تجارب الصحفيين/ات كلهم/ن ممن كتبوا/ن ونُشرت موادهم/ن في "نوى".

كنتُ أشتم رائحة الموت في كل وصف لشهيد مسجّى، وأُنصت لخفقات قلوب الثكالى وهنّ يتحدّثن عن آخر كلمة قيلت، وآخر الضحكات. كنتُ مثل أي صحفيةٍ.. نازحة، أعيش حُلم العودة مع كل يوم يمر، خلف شاشة كانت تُعلِن احتضارها كل أربع ساعات.

أستعير حاسوبا جديدا، تلفظ بطاريته أنفاسها الأخيرة، فأُرسلهُ للشحن في منزل زميلتي في المؤسسة نفسها "منى"، التي تمتلك ألواح طاقة شمسية. بعد عدة ساعات يعود الجهاز ببطارية كاملة، وفي جيب حقيبته "فلاش ديسك" مكتظ بملفات وصلت للتحرير حديثا تستخرجها منى من البريد الخاص بالمؤسسة.. عنوان الوصول لـ"نوى".

أضغط على زر التشغيل بتثاقل، أتخيّلُ نفسي كموظفٍ في السبعينيات يضع منديلا تحت طربوشه ويتأبط صحف الصباح، ويهش "ذباب وجهه" بمِذبّةٍ (منشّة) قديمةٍ ويمضي. أعتدل في جلستي على الأرض، وأتذكر مكتبي الكبير المنقوش في صدر غرفة الضيوف الأنيقة، المزدحمة بقطع الأنتيكا. أضع الحاسوب على وسادة، وأُقلّب ملفات القصص والتقارير التي كتَبَتْها صحفيات يعملن معنا بالقطعة.

إنها قصص مختلفة، تجمعها روح واحدة "كأنهنّ يكتبن وصية مودّع ولا ينقلن حكاية". أتساءل لأول مرة منذ 17 عاما من العمل الصحفي عن جدوى الكتابة في عصر "الحياد"؟ وأبدأ..

في تحرير قصص "الإبادة" لم أكن أكتب، بل أقطر حزني بين السطور من دون إخضاعه لفلسفة تحريرية معينة، أو نظريات كتابة. كنتُ صريحة في أهدافي المختصرة: أشجان الإنسان "الصغيرة" أهم آلاف المرات من قوانين الكتابة مهما بدت رائعة الانضباط فوق الورق.

أعترف أني شديدة الضعف أمام الكلمة القوية، أمام عبارة تنادي دموعي من قعر القلب فتلمس ما يدور هناك. أُحِس بالكلمة مثل إحساسي بالخطر، أو بالأمل أو بالضيق، وأقفُ من "رمادية" النقل، إلى صف الضحية؛ الضحيّة الإنسان، الذي لا ذنب له في كل ما يحدث على الأرض سوى أنه ابن غزة، ثم أكتشف –أخيرا- أننا نكتب؛ لأن الكلمة أطول عمرا، أدقُّ وصفا، تثبّتُ حروفها في صخرة العمر، وتعود لمن يدعوها.. ولو بعد حين.

بين القهر النازف من السطور، شعرتُ مِرارا بأنني أتعلّم للتوّ الكتابة! أضعُ رأسي بين يديّ وأطيل النظر، أمرُّ على أشواك "المتن" حافية، وأترك على الكلمات "دمي" ليدلني على طريق العودة! قصص لا يصدّقُها عقل للجيش "الأكثر

أخلاقية في العالم"، أقلُّها رعبا تلك التي تحكي أن "كلبا بوليسيا اغتصب أسيرا في "سديه تيمان" (المعتقل الإسرائيلي الأسوأ سمعة)" وفق شهادة مواطن أُفرج عنه جنوبي القطاع.

بعد عام من "الإبادة"، أصبحتُ جزءا من الحكاية. تحت النار لست صائغة البدايات والخواتيم والعناوين العريضة فقط، كنتُ أراني في كل قصّة. أشتمُّ رائحة الجثث تنبعث من ثلاجة الموتى، وأسمعُني في ارتجافة طفلة حكت كيف داست جنازير الدبابة على جسد أمها الجريحة "حية"، فكتمَتْ آخر صيحاتها، ومسَحَت "الاسم" والدمعات. أجدُني داخل لحاف طفلٍ قال لزميلةٍ في أحد التقارير إنه يحاول الاختباء عن أعين طائرات "الكواد كابتر"[6].. أغطّي وجهي جيدا، وأرتجف معه في وجه الموت المنثور بسماء غزة.

بصفتي محررة صحفية في زمن "الإبادة"، لم أجد في مرات كثيرة، مرادفات يمكنُ أن تصف "القُبح" الذي أقرؤه في القصص الواردة، عن قبور في المنازل والساحات، وشهداء مجهولي الهوية لا مُودّع لهم ولا شاهِد! عن كلابٍ ضلّلها الجوع فأكلت لحم شهيد.. عن طابور "البكاء" الطويل أمام مرحاض المخيم، وعن الخيمة.. والعيش في قطعة من "جهنم"، عن طفل يشتهي الخبز واللحم، وعن عروس فقدت يوم فرحتها "الحبيب".. حاولت التعامل مع التحرير بوصفه مهنة -لا أكثر- لكنني كُنتُ أُقتَل وأنا أُشيّعُ الشهيد إلى مثواه، بينما أطفاله خلفه يبكون.

كيف أكتفي بتهذيب النص، وحذف الحشو، وزيادة الخلفيات المعلوماتية،

---

[6] طائرة مروحية مسيّرة عن بعد طورها جيش الاحتلال الإسرائيلي، واستخدمها بكثافة في عمليات استخبارية كالتصوير والمراقبة وعمليات استهداف للمدنيين في قطاع غزّة. تعدّ الطائرة من أساليب الرعب التي يمارسها الاحتلال في قطاع غزّة منذ السابع من أكتوبر، بسبب وجودها المستمر في الأجواء، وإصدارها لأصوات مرعبة وتوجيهها للأوامر والتحذيرات للسكان.

وتحري الأخطاء في الحقائق والمعلومات، وأنا أرافقه على النعش نفسه مع فارق توقيت الإبادة، "حين أعطتني وقتا إضافيا للتنفّس"؟

أحدهم كان يثق بي، فطلب مني ذات مرة عندما اندلعت أحداث القدس في الضفة الغربية عام 2015، أن أكتب، إذا استشهد، قصته. كيف أخون هذه الثقة وأترك النص يبدأ بـ"استُشهد"، ويمضي باردا بين قال، وأضاف، وأتبع، وواصَل؟ أعود لأبري قلمي، وأنفض الغبار عن كتف التعب، وأُفرغُ ما في قلبي من "كلماتٍ" تستدعي روح الإنسانية، وتمجّد أحلام الشهداء.. مواقفهم، وأسماءهم.

كانت التقارير والقصص التي تصلني يوميا متفاوتة القدرة على جعلي "أصنع المشهد في خيالي مُصوّرا"، هذا ما كان يجب أن يحدث في ظل شح المواد المصوّرة من بين جنازير دبابات المُحتل. "ويا للأسف، لم يكن هذا دائما متاحا"، كان عليّ أن أفعلها، ومن دون إنترنت؛ فأنا هنا واحدة من صُناع الحدث، "لا أختلقُه، بل أصفُه كمشهد" تتحوّل فيه الكلمات إلى صورة في إطار العقل القارئ.

كيف يمرُّ حرق إحدى ذوات الإعاقة "حية" في مدرسة تحوّلت لمركز إيواءٍ من دون وصفٍ لأقدام والدها ترتجفُ في طابور المُعتَقلين؟ كيف أترك شعوره بالعجز يمضي، وهو يرى اللهب يُخرج ألسنته من نافذة الحُجرة التي كانت تنام فيها؟ كيف أُهمل عجزه إلا عن ذرف الدموع، في وقتٍ لو فتح فيه فمه، كان سيُعدم لا محالة؟

أنا مقتنعة تماما بأن العلاقة بين التحرير والكتابة، هي علاقة "الكل" بالجزء، هكذا تقول نظريات الإعلام؛ الإعلام الذي لا يحقق هدفه من دون "تحرير" الرسالة. العملية تشمل التفكير والتعبير، تنقل الحقائق عبر رموز يتلقّاها الجمهور بأذنه، أو بعينه، أو بكلتيهما معا.

لكن الصورة لم تكن وردية، كان علي أن أصنع "التركيز"، وأستدعي من قاع كيس المفردات ما يمكن أن يفعل كل ذلك بين أربعة أطفال بينهم توأمان بعمر عامين وبضعة أشهر، لا يبرحون مكان وجودي، ويرتعشون خوفا مع كل صاروخ يمر.

كان عليّ أن أُنجز العمل قبل أن تنطفئ البطارية وتغيب الشمس. وفي الوقت نفسه، أن أكون مستعدة لفتح ذراعيَ واستقبال خوف الأربعة دفعة واحدة بعد قصف قريب!

كان عليّ أن أؤدي دور الأم النازحة ببراعة أيضا: أن أطبخ على الحطب، وأفرك مع أكوام الغسيل على الأرض "قهري"، أن أغسل الصحون بقنّينة صنعتُ في غِطائها فُتحة، وأن أُخرِج رأسي من النافذة التي تُطل على الحدود كل ساعة، لأطمئن أن عربة "مياه الشرب" التي تجُرُّها دابة، لم تنسَنا وتمُر.

بعد شهرين من عمر "الإبادة" حصلتُ على شريحة إلكترونية، أصبحتُ على خطِّ العالم من جديد، أصعدُ إلى سطح العمارة في الصباح لألتقط "الإنترنت"، وأتفحّص وجه المدينة الحزين، ثم أتساءل أمام مدّ النازحين في العراء عند الحدود: كيف وصف محمود درويش الوطن بأنه "البيت، وشجرة التوت، وقنّ الدجاج، ورائحة الخبز والسماء الأولى"، بينما نحن الآن، لنا من كل ما ذُكر "السماء".. وخيمة!

أتجاهل هدير الطيران الحربي تحت جَنّة الشهداء، وأصل بسرعة "تُحتَضَر" إلى صفحة بريد الشبكة. أجدُ مقترحات من زميلاتنا الكاتبات معنا بالقطعة، "مُهمّة" في توثيق المرحلة، تليها اعتذارات عن التنفيذ في زحمة معوقات الحرب والنزوح!

مرّ الشتاء ثقيلا، تماما كرحلة العمل تحت النار. أقرأ تقريرا أو قصة، فأحتاجُ إلى سؤال كاتبته عن معلومة ناقصة، أو عن عبارة لم تُعطِ معناها، أو عن مكان الحدث وزمانه، فلا أستطيع أمام انقطاع الاتصال لأيام وأيام. كُنا نعمل لـ"تأريخ الإبادة" لا لأجل النشر. بصيغة أخرى: القصة يجب أن تَخرُج من ظِلّ الورق ثأرا لدماء أهلها، حتى لو كلّفنا ذلك تجاوز بعض ضوابط التحرير أحيانا.

بين الملفّات، كان يفاجئني أسلوب جديد في الكتابة، أساسه "اليأس"! روح غامضة تنفثُه في كل مشهد من مشاهد الحكاية، أصل معه إلى لحظة أوقن فيها أن الموت سيدوس الجميع بلا رحمة! أجده نصّا إبداعيا رغم ذلك، يمزجك بمألوف "الإبادة"، وأسمع صاحبته تقول في الخفاء: "أنا هنا، مدسوسة بين السطور، روحي هنا، قهري هنا، في ثنايا كلمات الضحية.. مثلها تماما أنا، أقف في طابور النهاية، وأنتظر سيف الحصاد".

على النقيض، تدهشك الكاتبات اللواتي ما زال لديهن متسع للأغنية! يكتبن من أرض النزوح عن الفنّ والموسيقى، وزينة رمضان، والعيد الذي لا يشبه الخيمة! عن محاولات التأقلم، وحكايا التعلُّم، وتحية العلم. بكل الأحوال لا أعبثُ بروح الكاتبة، ولا أحوّل نصوص الفرح إلى "عتمة".. أقتنعُ بأن العالم الذي يرى "غزة" تموت، يجب أن يُنصت لأغنية الحياة فيها، تنبت من رحم "العدم"!

في التاسع والعشرين من شباط/فبراير 2024 في تمام السادسة صباحا، لملمتُ روحي في حقيبة ورَحَلْت. غادرتُ غزّة أنشد الأمان، لأجد نفسي قد غرقت في بئر خوفٍ لا قرار لها.. ولم أنجُ!

يزورني الليل في أرض "الغياب"، فيعاتبني طيفُ المُسنّة: "يما ارجعوا". يلاحقني الذنب "فأنا الآن حية"، في بيت له سقف وباب. وقد "أضحك"، ولي أحبة في غزة يبكون. أخبروني: كيف لا تغادرنا الأماكن هكذا؟

في الجهة الثانية من المعبر، يصلني صوت عمي "ابن النكبة الأولى" من مدينة غزة هزيلا، يسألني: "كيف حالك يابا؟"، تضيع كل المفردات، وتتبعثر الحروف في جهات شتّى. أبتلع غصتي وأبكي، أصمتُ فالكلام حقٌّ فقط لِمَن صمد.

عُدتُ إلى تحرير "الحكايا"، يهوِّنُ عليَّ "ذنب" الرحيل، أنني ما زلتُ أؤمن بجدوى الكتابة في زمن الإبادة، وأؤمن أيضا أن أشجان الإنسان "الصغيرة" أهم آلاف المرات من قوانين "النص" مهما بدت رائعة الانضباط فوق الورق، وأننا نكتب؛ لأن الكلمة أطول عمرا، أدقّ وصفا، تثبّتُ حروفها في صخرة العمر، وتعود لمن يدعوها.. ولو بعد حين".



عن معنى الكتابة في زمن الإبادة

أماني شنينو



أماني شنينو

صحفية فلسطينية مستقلة من قطاع غزّة، تعمل متعاونة مع شبكة الصحفيين الدوليين، وعدد من المواقع الأخرى. تركز في عملها على قضايا الإعلام الرقمي، وتمكين المرأة، وتسعى لتسليط الضوء على التحديات التي تواجهها النساء في العالم العربي والإعلام.

8

عن معنى الكتابة في زمن الإبادة

أماني شنينو

اقترب من هذا النص، اقرأه بقلبك قبل عقلك. حاول أن تتخيل تتابع الأحداث السريع المفاجئ وكيف فجَّرت الحرب روتين حياتنا، وقلبتها رأسا على عقب.

لعام كامل عشنا تفاصيل هذا الوجع والنزوح، وكلما حاولنا استيعاب كل ما يحدث، صدقا: لا نستطيع!

تمر الأيام بلحظاتها ثقيلة وكثيرة على عقل أي إنسان، فما بالك بأم وصحفية مستقلة؟

السابع من أكتوبر

السادسة صباحا، رن المنبه كعادته لبدء يوم جديد. كنت أؤدي دوري كأي أم، أوقظ أطفالي، أرتب لهم حقائب المدرسة، أجهز الفطور، كل شيء كان يسير بنمطه المعتاد، ولكن فجأة، قُطع هذا الروتين، وأصبح كل شيء غريبا ومُخيفا. صدى صوت الصواريخ جاء من بعيد، وكأن الزمن توقف للحظة. هُرعت إلى النافذة، وقفت أشاهد السماء وقد ملأتها صواريخ تنطلق مُتتابعة من أراضينا باتجاه الأراضي المحتلة.

ماذا يجري؟

شعرتُ بالذعر يشدني من الداخل، ولم أكن أدري ماذا أفعل. هل أُرسل أطفالي إلى المدرسة أم أُبقيهم في المنزل؟ اتخذت قراري بسرعة: لن أُرسلهم إلى المدرسة اليوم، ليس قبل فهم ما يجري.

حاولت الهروب من الواقع بالنوم، محاولة تجاهل التوتر الذي بدأ يخنقني. قلت لنفسي: "يا رب مجرد تصعيد عابر وسينتهي قريبا!" تظاهرت بالنوم، على أمل أن يكون هذا كله مجرد كابوس. ربما بعد قليل سأعود لأُحضر القهوة لصباح سبت هادئ، كما اعتدت دائما.

لكن أصوات الانفجارات كانت أقوى من أي محاولة للراحة. تصاعدت أصوات القصف لتغرق كل أمل في الهدوء، وكأن الحرب تصرُّ على تذكيرنا بنفسها بأنها لن تكون عابرة.

بحلول منتصف النهار، بدأت الاتصالات القلقة تنهال علينا: "اخرجوا من البيت، الوضع خطر"؛ فنحن نسكن في منطقة قريبة من البحر، وهو مكان اعتدنا أن يكون خطرا في كل حرب، ولم يكن هناك مجال للتفكير والانتظار.

بدأنا جمع حقائبنا، تلك التي أصبحت جزءا من حياتنا، كأنها طقس حرب خاص بنا، في كل تصعيد أو حرب، نحمل الحقائب نفسها، مليئة بأوراق ثبوتية وشهادات وأشياء ضرورية، وكأننا مستعدون دائما للنزوح. الخطة نفسها تتكرر: نغادر على عجل، نبحث عن الأمان بعيدا عن بيتنا. نعود بعد ذلك لنجد النوافذ محطمة، وأثاثنا مُغطى بالغبار والشظايا. نقول لأنفسنا كما نفعل في كل مرة: "بسيطة، نصلحها"، في محاولة لإقناع أنفسنا بأن الحياة يمكن أن تستمر.

ولكن هذه المرة كانت الحرب مختلفة؛ وتيرة التصعيد كانت سريعة وقاسية. خلال الأيام الأولى وحدها، قُتل ستة صحفيين، وكانت مهمتي إعداد تقرير عن وضع الصحفيين تحت نيران الحرب. كانت كتابة التقرير من أصعب المهام التي واجهتها في حياتي؛ إذ لم تتمثل الصعوبات فقط في جمع المعلومات أو التواصل مع زملاء يعملون تحت القصف، بل في كل لحظة حاولت فيها الكتابة. الكهرباء قطعت تماما، والإنترنت ضعيف للغاية، والقصف مستمر في كل منطقة، حتى تلك التي لجأنا إليها. كنت أكتب التقرير والدموع تملأ عيني؛ فقد شعرت بأننا جميعا مستهدفون من دون تمييز؛ صحفيين وغير صحفيين، أطفالا ونساء، شبابا ومسنين، حصيلة الشهداء اليومية تقول ذلك لنا، ولا تتوقف!

شعرتُ بالتشتت بين أدواري أمّا وصحفية، وبأهمية الانتباه إلى صحة أطفالي النفسية، ولا سيما في هذه الأوقات العصيبة. حاولت تهدئة ذُعرهم؛ فمع كل صوت انفجار، يركض ابني الصغير يتساءل ببراءة: "ما هذا الصوت؟" لم أكن أملك إجابة تشرح لطفل صغير هول الحدث، فكنت أحتضنه، وأُحاول إلهاءه بقدر ما أستطيع، ألعب معه، نغني ونُصفق، لعل صوت اللعب والغناء يغلب القصف! ولكن الحقيقة كانت أقوى، مهما حاولت أن أبني لأطفالي عالَما آمنا.

تظن أنك تعيش أوقاتا صعبة، لتحل أيام تفاجئك بالأسوأ؛ كتلك الليلة التي لن أنساها أبدا، ليلة الرابع عشر من تشرين الأول/أكتوبر.

كنا قد اجتمعنا أنا وعائلتي، نُحاول تبديد التفكير بما يحدث، و"اختراع" جو من الدفء وسط الفوضى. جلسنا على ضوء المصباح الذي أصبح بديلا من الكهرباء المقطوعة، وكان أخي وعائلته قد انضموا إلينا، هاربين من القصف العنيف في منطقة سكنهم في الشيخ رضوان. ساروا على الأقدام من طرق

فرعية، بحثا عن مكان أكثر أمانا. تلك الليلة لم تكن مجرد ليلة عائلية، بل عبارة عن لحظات امتزج فيها خوفنا وقلقنا، وحاولنا بكل قوتنا أن نبدو متماسكين، رغم أن كل شيء حولنا ينهار شيئا فشيئا.

فجأة وصلني إشعار على الهاتف، في الساعة الثانية بعد منتصف الليل، عبارة عن نسخة من إيميل يصل لموظفي المؤسسات الدولية بغزة من مديريهم يطالبهم بضرورة إخلاء الشمال، والذهاب لجنوب الوادي، صُدمت! وحاولت تهدئة نفسي لاستيعاب الأمر والتأكد منه، أرسلت لصديقة تعمل في مؤسسة دولية: "هل وصلك نص هذا الإيميل؟ هل هو حقيقي؟" للأسف كان الخبر صحيحا. أخبرت عائلتي بأمر الإخلاء، وصرنا نتبادل هواجسنا: "هل مخطط سيناء حقيقي إذا؟" هل هذه نكبة جديدة؟".

كيف؟ ولماذا؟

لا ندري كيف مضت بنا الأيام، كل ما نعرفه أننا لا نزال عالقين في دوامة صدمة السابع من أكتوبر، وكأن الزمن توقف عند تلك اللحظة. كل يوم يمر يضيف إلى ركام الألم الذي يثقل أرواحنا. تتراكم الصدمات وتتضاعف، تبني جبالا من الأوجاع فوق صدورنا، وتخنق عقولنا. لم نكن مستعدين، ولا مستوعبين لما يجري، والإخلاء جاء كالصاعقة، سرق النوم من عيوننا، وحوّل الليل إلى كابوس متواصل. صلينا الفجر بأجساد منهكة وقلوب مثقلة بالهموم، وغلبنا التعب بعدها، من دون أن نعلم أن تلك الليلة ستكون آخر ليالينا في شمال غزة. عند الظهيرة، جاء زوجي، وكان قراره واضحا: "علينا الرحيل جنوبا". بنبرة مشوبة باليقين قال لي: "أحضري حقيبة الأوراق وبعض الملابس تكفينا لأيام قليلة. سنعود قريبا، عندما تهدأ العاصفة".

في الطريق إلى الجنوب، كانت الناس تجري في الشوارع، تتعلق في أي سيارة: "وصلونا معكم!" والآلاف يمشون أطفالا وكبارا، كان المشهد يحرق القلب، كمشاهد النكبة في مسلسل التغريبة تماما!

كاد السولار ينفد ونحن في الطريق، حتى وصلنا إلى منطقة الزهرة وسط مدينة غزة، المحطة الأخيرة قبل وادي غزة. نزلنا عند أقارب لنا، ولكن سرعان ما اكتظ المكان بتوافد مزيد من الأهل، وكان كل لقاء يختلط فيه الحزن بالدموع والأحضان. مرّت ثلاثة أيام ونحن بلا إنترنت، معزولين عن العالم، لا ندري ما يحدث حولنا، ثم جاءنا الخبر: الاحتلال يهدد بالدخول البري. ومع مجزرة المستشفى المعمداني التي حصدت أرواح المئات، أدركنا أن هذه الحرب ليست كسابقاتها، وأن الأوضاع تتجه نحو مزيد من التصعيد، وأن التهديد بالدخول البري لم يعد مجرد تهديد.

قررنا مغادرة الزهرة؛ لأن أصحاب البيت يفكرون بالخروج أيضا؛ قلنا أين نذهب؟! وأين يذهب الإنسان حين لا يكون مسموحا له العودة إلى بيته؟! قلنا نعود لمنطقة النصر، وعدنا مرغمين مع "ضياع" الخيارات الأخرى وحالة التيه التي تلبّست عقولنا. لخمسة أيام لم نعرف النوم ليلا أو نهارا، المنطقة شبه خالية من السكان، والقصف يهز البناية كاملة، وقنابل الإضاءة لا تتوقف في السماء من حولنا.

في اليوم الخامس الذي صادف يوم جمعة، اتصل بنا ضابط من الاحتلال، وهددنا إما أن نخرج خلال عشر دقائق من منطقة النصر والذهاب جنوبا وإما أن يقصف البناية! كانت الحقائب جاهزة عند الباب، حملناها ونزلنا سريعا، ركبنا السيارة وابتعدنا قدر الإمكان عن المكان ثم سألنا بعضنا: أين نذهب؟
كنا مذهولين، ونتصرف من دون وعي تقريبا، مأخوذين بالصدمة والخوف، وحدها غريزة البقاء تُحركنا.

ذهبنا إلى منطقة الجلاء، إلى بيت فارغ تماما من كل شيء، حيث قضينا ثلاثة أيام أخرى من المعاناة، ولكن هذه المرة زادت حدة الظروف بعدم وجود مياه للشرب أو لأي احتياج آخر. في اليوم الثالث، أسقط الاحتلال علينا منشورات تطالب بالإخلاء، بعد ليلة ساخنة تكومنا فيها جميعا في غرفة واحدة، نتوقع أن يسقط الصاروخ في أي لحظة، ولكن بفضل الله نجونا، وكان القصف قد استهدف مكانا قريبا منا.

الجنوب إذا!

أفرغنا البيت من جديد، وقد اتفقنا أن نذهب إلى خانيونس في جنوب القطاع، النزوح علَّمنا أن الأولويات تتغير، فنختصر البيت في حقيبة، على نحو نُصبح معه أقل حِملا وأثقل وجعا!

وصلنا إلى خانيونس، وتحديدا إلى المواصي، لأول مرة في حياتي أزور هذه المنطقة من القطاع، ربما سمعت عنها سابقا لا أذكر. تبدو غريبة خالية تقريبا من السكان، وتقع على البحر غربا. في طريقنا، رأينا آثار القصف للاستراحات والميناء الجديد، ولكن على أي حال كنا نحن –العائلات الثلاث- محظوظين لأننا وجدنا بيتا للإيجار، فيه طاقة لساعة أو ساعتين في اليوم، ومياه، ولكن من دون إنترنت.

يمكنكم أن تتخيلوا مدى معاناتنا في محاولة معرفة الأخبار، كان صوت القصف لا يتوقف طوال اليوم. في البداية، مررنا بليلة أخرى صعبة؛ إذ ألقوا علينا قنابل إضاءة ودخانية، وسمعنا صوت الطائرات المسيّرة "الكواد كابتر" والطيران الحربي يحوم فوقنا. جهزنا أنفسنا وحزمنا أمتعتنا، استعدادا لاحتمال إخلاء جديد. كانت الساعات تمر ببطء، ونحن نتساءل عما سيحدث لاحقا. كانت

الساعات طويلة وكنا مكتوين بالسؤال: ماذا يحدث؟ وماذا يريدون منا؟ استطعت من خلال إنترنت الشريحة الإلكترونية معرفة أن هناك حدثا أمنيا فقط ولا تفاصيل، حاولت تهدئة نفسي لأهدئ أولادي الثلاثة؛ عبد الرحمن أكبرهم 10سنوات، وكنان ابن أربع سنوات، ومحمد ثلاث سنوات. لا يفهمون لماذا تركنا البيت، ولماذا نتنقل من مكان إلى آخر، يخافون، لا ينامون جيدا، وفي هذه الليلة أبقيناهم مستيقظين لمنتصف الليل ترقبا لـ "هروب" مفاجئ!

مرت الليلة، ولا أدري كيف احتملت عقولنا هذا الخوف كله!

عرفنا من الجيران أن بيتنا تعرض للقصف، وأن أحبة استشهدوا، وصديقات وجوههن لا تفارقني، واحدة منهن لها طفلتان تشبهان الملائكة، قتلت هي وطفلتاها وزوجها وعائلتها جميعا!

حاولت استجماع نفسي في محاولة للعمل ولأن أصوغ مقترحاتي. كنت أمضي أياما لكتابة كلمة واحدة، أنقل الأخبار المهمة فقط. أن تكون صحفيا حرّا، يعني أنك لا تشعر باستقرار وظيفي ومادي، مؤسستك لن تُرسل لك مقابلا ماديا من دون عمل، حتى وإن كانت الظروف كارثية كما يحدث معنا، هي ستهتم أن تُرسل لها مقترحات تتوافق وأجندتها، وأنت ستُناضل لتلتقط إشارة إنترنت، ولتجد وقتا يتوقف فيه القصف وهو غير متوفر.

الصدمة كانت تتملك يدي وعقلي، كيف تعيش الإبادة وتغادر أماكنك المفضلة وتفقد أشخاصا تحبهم ثم تستمر! بيتي بكل تفاصيله؛ بجدرانه، بكنبة مريحة كنت أحب العمل فيها، وشرب القهوة، وبلكونة تطل على البحر، كل هذا ذهب! انتهى! كيف أُواصل العمل؟ أحاول يوميا فتح الحاسوب وملف الوورد، ولكن الصفحة تظل بيضاء لعدة أيام. إن فعل النجاة نفسه والمواصلة يتطلب كثيرا من الطاقة، فكيف إذا بالعمل!

رغم المشقة النفسية والجسدية، استطعت إنجاز تقاريري، ومواصلة العمل، وسط مهام أُخرى أوجدتها لنا الحرب؛ كالغسيل اليدوي لعدم توفر الكهرباء، وصنع الخبز وخبزه على أفران الطين البدائية، والبحث عن طعام نشتريه. وكان ينتهي بنا الحال في الغالب، بشراء معلبات جاهزة؛ لندرة الخضراوات، وفي حال وُجدت فالأسعار خيالية وغالية جدا.

"أحيانا أُغمض عينيّ، وأتخيل أنني في غزة، كما كانت سابقا قبل الحرب، أفتقدها، وأفتقد جمالها وانسيابية الحياة فيها، لتعد... لتعد، ولن أتذمر من زحمة الطرقات، وهذا وعد!".

خبر سمعته في الثاني من تشرين الثاني/نوفمبر، كلما تذكرته أُحاول تخيل ما قاله شاهد العيان: "بيوتنا قُصفت ببراميل متفجرات رأيتها تطير عن الأرض، ثم عادت متفتتة صانعة حفرة كبيرة وعميقة".

أتحدث هنا عن مجزرة مربع سكني في البريج التي تلحق لسلسلة من المجازر التي حدثت في جباليا، والشيخ رضوان، ومعسكر الشاطئ، وبيت لاهيا، والنصيرات، ومجازر في كل شارع وفي كل منطقة، حدثت ولا تزال مستمرة إلى الآن.

تتواصل الأخبار، نسمعها وكأنها جزء من ذاكرة قديمة، صوت المذيعة يُعيدني إلى نشرات طويلة سمعتها منذ الطفولة، الكلمات نفسها: قتلى، جرحى، قصف، دمار، مجزرة..."، الصوت أكاد أُحسه حقيقة يخرج من أعماق ذاكرتي، ثم يخرج فاصل آخر: "وين الملايين... الشعب العربي وين؟" أغنية قومية حفظناها، كل الأجيال تعرفها جيدا في بلادنا، ولا يزال سؤالها لم يجد جوابا.

هل تعبتَ من القراءة؟

أما نحن فالتعب أكل قلوبنا وأجسادنا

أشعر بالهستيريا أحيانا وأنا أتساءل: كيف أخذوا غزة منا؟ من أعطاهم الحق؟ لقد عشنا سنوات ونحن نختزل صورة الوطن في غزة، بشوارعها، وحاراتها، وكل المقاهي، والأماكن!

لم نعرف أن حربا كهذه ستغير جغرافيا الحلم الأول والوطن الصغير!

نزوح مرة أخرى

بعد سبعة أشهر في البيت المستأجر، يقرر صاحب البيت رفع قيمة الإيجار إلى أضعاف المبلغ الشهري المدفوع. كان الرقم خياليا يصل إلى خمسة آلاف دولار، لا تستطيع دفعه سوى المؤسسات الدولية بعد قصف مقارّها. وبعد رحلة بحث عن بيت آخر، انتهى بنا المطاف في "كونتينر" معدني ليصبح نزوحنا السادس إلى حياة غير آدمية إطلاقا. في أول فترة مرضت، وأصيب أولادي بالتهاب الكبد الوبائي، وطبعا لا توجد رفاهية الذهاب إلى طبيب ووصفة طبية، وكل ما استطعنا فعله سؤال صيدلي عن مسكنات ألم، والبحث عبر جوجل عن طرق العلاج والإجراءات الوقائية.

في حياة المخيم، حتى أبسط المهام اليومية تتحول إلى معاناة، خصوصا في ظل انعدام الطاقة والإنترنت، وضعف إرسال الشريحة الإلكترونية، التي نستخدمها بديلة للإنترنت؛ فكي أرسل بريدا إلكترونيا للعمل، أضطر إلى الخروج لنقطة إنترنت في مقهى أو في الشارع.

أتذكر جملة لصديقة تقول فيها: "العمل الصحفي الحرّ أفضل للأمهات، يمنحهن حرية أكبر في ممارسة أمومتهن وعملهن من دون تقييد بدوام أو وقت". لكن وتحديدا في هذه الحرب، التي أؤدي فيها أدوارا عدة في الوقت نفسه، عرفت أن ما قالته صديقتي ليس صحيحا تماما، فأنا كنت أعتقد أن استقلالية "الفريلانسر" ستمنحني حرية أكبر في سرد القصص التي أراها مهمة، ولكن سرعان ما اكتشفت أن هذه الحرية تحمل معها عبئا ثقيلا، في ظل رفض كثير من قصص الحرب؛ ربما لأن العالم ملَّ قصصنا لعام متواصل، ولسنا محور الكون كما نعتقد.

أضطر إلى العمل من دون أي دعم لوجستي أو معدات حماية، ولم يكن هناك فريق ينقلني أو يحميني. كنت وحيدة مع جهاز الحاسوب، أتنقل من مكان لآخر إما بحثا عن الإنترنت وإما هربا من قصف مباغت.

في أحد الأيام، كنت أنجز قصة مهمة، ولكن الطائرات الحربية بدأت من دون سابق إنذار بصب الرصاص، تجمدنا جميعا في أماكننا لثوان، الرصاص يضرب جدران "الكونتينر" الشرقية. لا أعلم كيف أغلقت الحاسوب، ألبست الأولاد أحذيتهم وركضت وأنا أمسك بأيديهم، اضطررنا إلى السير بين الخيام برؤوس منخفضة؛ لأن الرصاص كان يُلاحقنا ويمر من فوقنا، والدبابات تقدمت مع الطائرات باتجاهنا، في ممرات ضيقة عبرنا، حتى وصلنا إلى الشارع العام، احتمينا بشاحنات كانت تصطف هناك، ولم يكن هناك وقت للتفكير أو اتخاذ قرار إلى أين نذهب، ركضنا حتى وصلنا إلى منطقة دير البلح.

كان هذا نزوحا مؤقتا، لثلاثة أيام كنا ننام بلا نوم حقيقي، ظلَّت أرواحنا تركض وتهرب من أشباح، تطردنا بالرصاص حتى من المخيمات!

رجعنا عندما انسحب الاحتلال من منطقتنا، وواصلنا حياتنا في المخيم. كل صباح، نُرسل هواتفنا المحمولة، والحواسيب، والبطاريات -التي نستخدمها للإضاءة ليلا-، لنقطة شحن في الشارع، ننتظر بمعدل ثلاث ساعات على الأقل يوميا لتشحن كاملة. نتعامل بحذر مع بطاريات هواتفنا، نقتصد في المكالمات إلى أدنى حد ممكن، وحين أكتب شيئا للعمل أستخدمه بالحد الأدنى من الإضاءة، رغم أن ذلك مؤذٍ للنظر، ولكن أمام تحدي الشحن نضطر إلى ذلك، وإلا فما هو الشيء غير المؤذي في حياتنا!

الأذى يحيط بنا من كل جانب، وكأنه جزء من حياتنا الجديدة، التي لم نخترها، ولكننا مضطرون إلى تحملها.

مساء أتأمل أطفالي وهم يغفون على ضوء بطارية بالكاد تضيء المكان، وأُدرك جيدا أن الحرب لا تسرق منا فقط بيوتنا وأحلامنا، بل تأخذ أيضا من أرواحنا الصبر والاحتمال، وتسرق من أطفالنا طفولتهم وحقهم في الحياة. أعمل من قلب المخيم، والأولاد حولي دائما، فالمكان صغير ولا مساحات أخرى للّعب هُنا.

لماذا أكتب؟

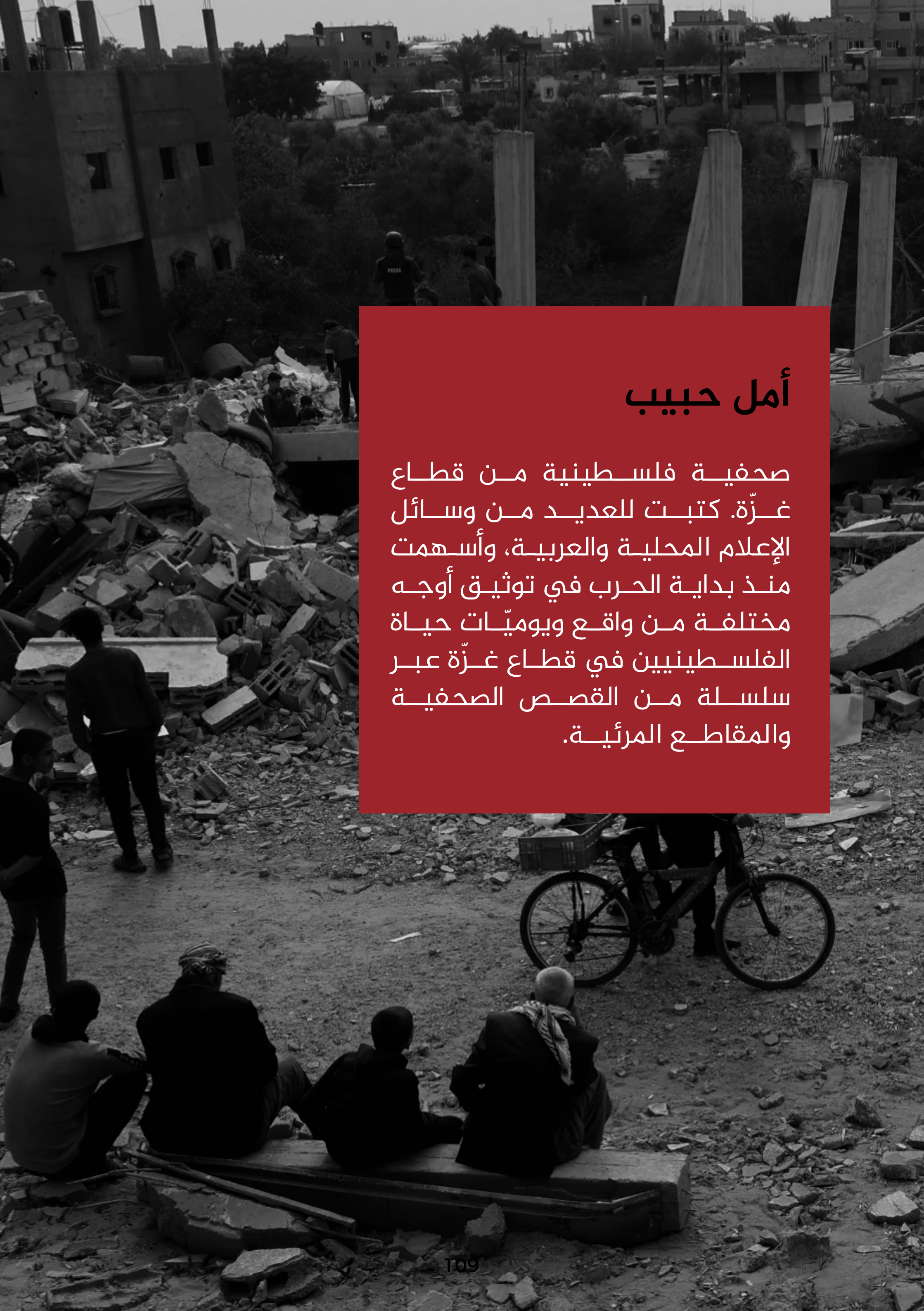
أكتب لأن الكتابة قوة، وقصصنا يجب أن تُسمع، وبعد عام كامل من الإبادة الجماعية، فإن ما ترونه من خلال الشاشات هو جزء مما يحدث، نُحاول يوميا وفي كل لحظة الحفاظ على إنسانيتنا، نقاوم ولا نألف المشهد، أُدرِّب نفسي كلما خرجت إلى الشارع على أن هذه المخيمات المليئة بالخيام العشوائية والمكتظة ليست حياتنا العادية، وليست غزة التي نعرفها ونستحقها. نعم لا أُنكر أني أشعر بالمرارة والعجز، ولكن مع هذا تعلمت صُنع الأمل من العدم،

ولو كانت كل الظروف مستحيلة وكارثية، ومهما كانت النجاة في ظل الإبادة مُتعبة، فإنني لن أتوقف عن توثيق ما يجري، حتى تنتهي الحرب ونستعيد حقنا ووجودنا ونستعيد غزة.



"يومين وراجعين"!

أمل حبيب



أمل حبيب

صحفية فلسطينية من قطاع غزّة. كتبت للعديد من وسائل الإعلام المحلية والعربية، وأسهمت منذ بداية الحرب في توثيق أوجه مختلفة من واقع ويوميّات حياة الفلسطينيين في قطاع غزّة عبر سلسلة من القصص الصحفية والمقاطع المرئية.

9

”يومين وراجعين“!

أمل حبيب

كيف تختفي عشرون خيمة؟ كيف يُدفن الإنسان وهو حي؟! أكتب لكم وهذا السؤال يدب في رأسي. أوثق شهادتي خلال عام من الإبادة على غزة، وشريط العاجل الأحمر يرد الآن، يقفز في وجهي، هذا موت من دون دماء، من دون جثمان، من دون صوت، لماذا هذا الأحمر؟ "لقد تبخروا"!

يؤكد المكتب الإعلامي الحكومي على شريط جديد:

"22 شهيدا لم يُنقلوا إلى المستشفيات بعد مجزرة المواصي بخان يونس، لقد ذابت جثامينهم واختفت بسبب القنابل العملاقة التي استخدمها الاحتلال في قتلهم".

انتهى الخبر، اختفى العاجل، اختفوا جميعا، تبخروا، أكتب لكم حتى لا نتبخر، حتى لا تختفي الحكاية، حتى لا نمسي مجرد عاجل من دون دماء!

نحن شهود على حرب لم يسبق لها مثيل، شطبٌ لعائلات كاملة من السجل المدني منذ اليوم الأول للعدوان، مربعات سكنية كذلك، قوة نارية لم تحرقنا كهذه، حصار، وجوع، ودعوني أتوقف قليلا عند النقطة الأخيرة وأبدأ بالجوع في "شمال غزة".

لم أكتب يوما وأنا جائعة، لم أمارس عملي من قبل وأنا أشكو الجوع، أريد رغيف خبز وكوبا من الشاي الساخن، أريد فنجان قهوة وقطعة من الشوكولاتة التي أحب، أريد طبقا من السلطة، تغذية بصرية لقلبي ومعدتي، الجوع يقرصني، يظهر على ملامحي: أنا أعيش المجاعة للمرة الأولى!

إلى دوار الكويت جنوب مدينة غزة، حيث تجسد المعنى الحقيقي للمجاعة هناك، مئات الضحايا ينتظرون كيسا من الطحين في حمأة النار والبارود، ويفرض عليهم الاحتلال الإسرائيلي حرب تجويع لتحقيق رقم قياسي في حرب الإبادة!

يدوم الانتظار يوما كاملا، لعلّ قافلة مساعدات تمر محمّلة بالدقيق الصالح لإعداد رغيف خبز، ولعلّها، أيضا، تمر من دون أن تصيبها القذائف المدفعية مانعة المساعدات؛ عقابا وتجويعا لمن بقي في (شمال غزة) ورفض النزوح جنوبا.

كنت في صدد التوجه إلى هناك، لالتقاط مشهد، لمشاركة العالم تفاصيل المجاعة التي جعلت كل فئات المجتمع تتوجه إلى دوّار الكويت. ثم سمعت خبر المجزرة التي أودت بالمئات من الشهداء... زوجي هناك!

توجهت لمجمع الشفاء الطبي بدلا من الدوّار، بدأت بثلاجات الموتى، لأبحث عن زوجي بين مجهولي الهوية، لقد تحرّك صباحا نحو الدوّار، خرج ليحقق حلم أطفالنا بكسرة خبز، أخبروه: "لا نريد تناول العلف أو الشعير، نريد خبزا صالحا للأكل"!

أكتب عن أحلام أطفالي، عن كسرة الخبز، عن وجعنا وجوعنا، هل يسمعنا أحد؟ هل تخيّل أحدهم أنه سيشكر الدواب في غزة لأنها قاسمته طعامها كما فعلت أنا؟

لا وصول لهاتفه، لا يحمل هوية، فقدنا أوراقنا الثبوتية والرسمية خلال قصف منزلنا بداية الحرب، يصرخ رجل في زاوية قسم الاستقبال: "مجهولو الهوية عند الثلاجات".

لم أجده، أخبرني أحد العمال بأن كل مجهول أمامه رجل من أهله وبات معروفا، مسحت دمعي، وحمدت الله لأجلهم، سيدفنونهم، سيودعونهم، سيجدون لهم مساحة في قبر مؤقت، تمتمت ومضيت للبحث بين المصابين. يتمدد المصابون أرضا في قسم الاستقبال والطوارئ، ينزفون، يصرخون من الألم: أطراف مبتورة، الشظايا اخترقت الجسد، الندوب توزعت عشوائيا، ذاكرتي تخزّن المشهد، وعيناي توثّقان.

لم أفقد زوجي، لقد عاد من الدوار بعد مساعدته للجرحى في الحصول على عربة يجرها حمار حتى توصلهم إلى مستشفى الشفاء، لم أفقده ولكنني فقدت القدرة على المشي ليومين بعد التواء كاحلي وأنا أهرع إلى البحث عنه بين الشهداء!

رغم كل هذا المشهد السريالي فإن صغيري باسل (ثلاث سنوات ونصف) أعلن حالة الاستنفار خلال تشييع جثمان ابن عمي الذي ارتقى خلال مجزرة الطحين. يحملون الشهيد على الأكتاف، يضعونه أمام والدته، يتكور صغاره الخمسة حول الكفن الأبيض، يقطع هذا الحزن صراخ باسل، يضرب بقدمه الباب، "وين الطحين؟ بابا بدي خبز".

من الصعب على أحدكم الشعور بما أكتب ما لم يجرب شعور الجوع، الجوع يجعلك تتألم، تشعر بالقهر، بالعجز، بالخذلان!

كيف أنقل لكم معالم وجه طفلي عندما وصلتنا دجاجة خلال شهر آب/ أغسطس الماضي بعد شهور من المنع، والانقطاع، والحرمان؟! وصلتنا تلك الدجاجة التي تزن كيلوغرامين، بعد سماح الاحتلال بدخول خمس شاحنات لشمال غزة.

جلس ابني بجوارها، ظلّ يتأملها، يكتشفها، يسأل "وين إيدها؟ هلقيت راح تصحى، راح تطير؟ أنا كنت أحبها قبل الحرب؟"

ألم أخبركم أننا نبتلع القهر قبل الطعام وبعده؟

قد نخون أمانة القلم إذا لم ننقل الصورة، ولم نكتب، إذا توقفنا عن التوثيق، نعيش بوصفنا صحفيين تجربة فريدة، أصبحنا فيها قصصا، شهودا، ضحايا، أحدنا يرتدي خوذة للرأس نقش عليها "PRESS"، يتساءل آخر "ما فائدة الخوذة إن كان الاحتلال يقتلع الرأس كما فعل مع زميلنا الشهيد إسماعيل الغول؟!".

أنا جزء من الحكاية: حقيبة النزوح على ظهري، صغيرتي مها تُمسك بطرف ثوبي، القذائف فوق رأسي، الهاتف في جيبي، أحاول تثبيته بين يدي، عليّ نقل الصورة، وعليّ، كذلك، تفنيد رواية المحتل الذي باغتنا فجأة واقتحم حي الشجاعية شرق غزة للمرّة الثالثة من دون سابق إنذار كما ادعى عبر إعلامه، وعليّ الحفاظ على نفسيتي وصغاري وطمأنتهم أننا سننجو، وعليّ التفكير في مكان النزوح، أين السبيل؟ "وين نروح؟"

المرة الثالثة للنزوح كانت الأقسى: القذائف تتساقط بيننا، فوقنا، نهرب من الموت إلى الموت، أنادي على أبنائي، اسما اسما، نجري، نبكي. لم يكن سهلا على

أمومتي أن ألتقط مقطعا مصورا لابنتي البكر وهي تلتف وتصرخ: "وين بابا؟"، لكنني فعلت، أحسست أنه واجب عليّ ذلك، هذه رسالتي.

كان مشهدا هاربا من "التغريبة الفلسطينية"، أسمع صوت أبطال الدراما العربية، لهجتهم، صراخ القايد "أبو صالح"، "يومين وراجعين"، لم يكن باستطاعتي فعل كل هذا، كيف استطعت؟

في اليوم التالي أنشر المادة التي التقطتها عيني وقلبي معا، أمسح الدمع، ولكن من يمسح القهر؟

أجلس في غرفة للإنترنت غرب المدينة، مكتظة بالصحفيين الذين يريدون رفع المواد وإرسالها للنشر، وإذا حظيتَ بإشارة ضعيفة فأنت محظوظ.

وأنا محظوظة ليس لأنني استطعت رفع المادة على المنصات، بل لأنني بت أمتلك مهارات جديدة غير الكتابة والصحافة. صرت أتباهى بأنني أجيد تجهيز الحطب وتقطيعه بالمنشار الكبير، وإشعال النار، وطهو الطعام على النار لا يأخذ مني وقتا، ولكنه يأخذ مني صحة، أسحب الهواء إلى صدري، مع الدخان الأسود لأنني أحرق الإسفنج والنايلون والملابس. بعد شح الحطب حرقت كل شيء. هذه الحرب حرقت قلوبنا كذلك! تارة، أجد نفسي في طابور المياه، أعبئ خزانا أسود مركونا في زاوية المخزن (الحاصل) الذي أعيش، وتارة أخرى أضع الملابس بين راحتيّ، أفركها جيدا. كل شيء بات يدويا هنا، لقد غادرنا زمن الأوتوماتيك!

هذه الحياة لا تشبهنا، بدائية للغاية. أجد نفسي أقفز على عربة يجرها حمار لأصل إلى مكتبي وسط المدينة. لا يهم إن كانت وسيلتي حمارا أو سيارة، فالمهم

أن الرسالة قد وصلت، أنا ماضية في الطريق الذي اخترته منذ صغري، حين كنت أقف أمام المرآة، أتحدث إلى نفسي ممسكة مشطا كأنه الميكروفون، مقلدة ليلى عودة وشيرين أبو عاقلة. كنت أنتظر اليوم الذي أحمل فيه ألم وطني، واليوم ها أنا أحمل الوجع ووطني معا، وأنقل الحقيقة كما أوصتنا الراحلة شيرين، ليتضح المشهد كاملا أمامكم!

قلقي مركون، لا ينتبه إليه العالم، أنا الأم النازحة الصحفية، عليّ أن أحافظ على طاقتي النفسية، على جبهتي الداخلية (أطفالي)، على توازني، عملي، رسالتي وهويتي...

التقطوا لي صورا وأنا أودع أحبابي وأفرادا من عائلتي، كنت أنا الصورة وأنا ألقي بنفسي على جثمان شام، وجمال، ورانيا، أحفاد خالي، وأصدقاء أطفالي. رحل الثلاثة دفعة واحدة، بوجوههم الصغيرة وأعينهم اللامعة، براءة لا مثيل لها. لماذا قتلوهم؟ لماذا يجب علّي إخبار صغاري أنهم لن يلعبوا من جديد معهم، وأنهم رحلوا لحياة جديدة لا قتل فيها، لا صاروخ، ولا مدفعية؟!

الصحفي الفلسطيني خلال هذه الحرب انخلع قلبه مرات ومرات؛ لأن الاحتلال لم ينسف مدينته فحسب، بل حاول نسف الذاكرة، والتاريخ: كل جزء من غزة يسكننا، ننتمي إليه، يعني لنا الهوية، جذرنا، وأصلنا!

حين تمشي في شوارع هذه المدينة الساحلية وتشعر بالضياع، تسأل نفسك: "أين أنا؟". كانت هذه من أصعب المشاعر التي مرّت عليّ بصفتي صحفية خلال توثيقي ليوميات الحرب؛ إذ لم أتخيل يوما أنني سـ"أتوه" في شوارع غزة! تغيرت ملامح المدينة، كل شيء هامد، يلفنا الركام، حاولت كثيرا خلال حرب الإبادة الحفاظ على طاقتي النفسية، مؤمنة بعدالة القضية، بحق تقرير المصير، بالحرية، لكنه الموت!

حكاية الأشلاء المتناثرة، الأكياس المعبأة بكيلوجرامات من بقايا إنسان، كل 70 كيلوغرام هو جثمان، أنت في زمن الأوزان، هل مرّ عليك بصفتك صحفيا هذا المعيار؟ هل وجدت كيسا ينتظر الكيل والميزان؟ هل التقطت صورة لوجه أم تبحث عن وزن أقل، تقول ابني ضعيف البنية وهذا وزن زائد، أريد أشلاء ابني دون إخلال؟! لا يمكنك أن تتوقف عن التغطية، ومطلوب منك أن تكتب، توثق، تتنقل من قصة إلى أخرى، من فرع شجرة إلى آخر، الحمد لله انتهت مهمة البحث عن ارتفاع لتعليق محلول الدواء لطفل مصاب في مستشفى المعمداني وسط مدينة غزة.

هنا، لا وسيلة للنجاة، مجرد الإصابة تعني الموت البطيء، وهذه وسيلة يتعمدها المحتل الإسرائيلي بعد استهدافه للمستشفيات والمنظومة الصحية كاملة في (شمال غزة). هنا لا دواء ولا أسرّة، حتى الكوادر الطبية أُجبرت على النزوح جنوبا، ومنها من اعتقل، وكثيرون هم في عداد الشهداء، ضمن استهداف ممنهج، وقتل مباشر.

يتعلّق العلاج بشجرة، وتتعلق عائلة الطفل المصاب بأمل الشفاء، وهذا حال أكثر من 100 ألف من المصابين منذ تشرين الأول/أكتوبر الماضي.

شهران وأنا ألتقط وأدوّن التفاصيل والمشاهد من مستشفى المعمداني بغزة، ولا سيما بعدما تخثر الدم وتعرضت لجلطة دماغية عابرة!

هل تجمد الدم في العروق؟ لم تعد قدماي تقدران على حملي، الحمل ثقيل، يبكي أطفالي. وجدت نفسي ممددة على أرضية " توكتوك" في طريق وعرة، مطبات، ركام بيوت، وطلب صغير: "أمل لا تفقدي الوعي"!

وصلنا "المعمداني"، وترف أن تجد سريرا في هذه الظروف مستحيل. المشهد كان كالتالي: يحملون شهيدا، يرفعون جريحا، إبرة في الوريد، وأسئلة من الطبيب كثيرة، عن تاريخ الوجع، متى تخدرت يداي ووجهي؟ هل تشعرين بقدميك؟ ثم ما يلبث أن يَطرَح أسئلة عجيبة: "هل تشعرين بالقلق؟ هل تعرضت للضغط؟ للحزن الشديد؟"

حاولت النظر إلى وجه الطبيب، فتحت عيني جيدا، حتى أتأكد أن السؤال موجه إلي تحديدا، أجبته:" أنا أمل صحفية من غزة، هل تكفي هذه الإجابة أم تريد المزيد؟"

أترك لوحة المفاتيح. تنادي صغيرتاي مريم ومها، تريدان مني الحضور فورا إليهما، ماذا تفعلان هنا؟

من ركام غرفتهما صنعتا سورا لمدينة ألعابهما، تحاولان انتزاع الحياة من فكيّ الموت!

هنا غزة التي لن يفهمها أحد، لن نتوقف عن الكتابة عن غزة، الضحايا، الحب والحرب، وصوت الحياة!

هذه ليست مدينة وحسب، هذه أم المدن التي تسكننا ونسكنها، في الحرب تودع غزة بعضها. هكذا تنجو، هكذا تموت، ثم تأتي أم الشهيد لتبتسم، لتحمل الجثمان على كتفيها، لتبتسم وتبكي في وقت واحد، لتقول أمام عدسات الكاميرا: "اللهم أجرني في مصيبتي واخلفني خيرا منها"، لتعلن جدوى المقاومة. أليست الصحافة، في تعريفها الكلاسيكي، شكلا من أشكال المقاومة؟



عائد من الموت

محمد الصواف



محمد الصواف

صانــع أفلام وصحفــي فلســطيني مــن قطــاع غــزّة.

10

عائد من الموت

محمد الصواف

كل شيء يبدو مألوفا لنا في فلسطين، خصوصا في قطاع غزة، نعيش الصعاب كما نرتدي جلدنا، اعتدنا على الاحتلال المتعاقب، وعلى التهجير والقمع والحصار والحروب. نعرف هذا الطريق الطويل المليء بالأشواك، نعرف كيف نكمل سيرنا رغم كل شيء. لكن حرب الإبادة التي بدأتها إسرائيل في تشرين الأول/أكتوبر 2023، وأبت ألا تتوقف حتى كتابة هذه الكلمات، لم تكن مألوفة لأي غزي، مهما كانت طبيعة عمله أو حياته. إنها حرب تغير وجه الأشياء، تُفقد الناس القدرة على التأقلم مع ذواتهم، تفصلهم عن عاداتهم القديمة، وتجعل كل لحظة أشبه بالنجاة المؤقتة. بصفتنا صحفيين وصناع أفلام، وجدنا أنفسنا غرباء عن مهامنا، كأن الأدوات والخطط التي نعرفها لم تعد قادرة على مواكبة هذا الجحيم؛ فهذه الحرب لم تغير في طريقتنا في العمل فقط، بل أثرت في حياتنا وسلوكنا، وفي كل تفاصيل الأيام التي نعيشها في غزة.

بصفتي صحفي وصانع أفلام، عشت حياتي كلها في قطاع غزة، حيث كانت قصص النكبة والنكسة جزءا من ماضي عائلتي وتجربتهم الشخصية. شهدت الانتفاضة الأولى عندما كنت طفلا صغيرا، وعشت الانتفاضة الثانية في بداية شبابي، ومنذ ذلك الحين، أصبحت الحروب جزءا أصيلا ومتكررا من حياتنا.
بدأت عملي في صناعة الأفلام منذ عام 2009، بعد أن قدمت من مجتمع الصحافة المكتوبة. كانت هذه الحروب المتتالية مادة أفلامنا تأتي إلينا ولا نذهب إليها، نعيش المعاناة نفسها التي يعاني منها الناس، ما يجعلنا أكثر قدرة على نقل قصصهم وتجاربهم بصورة أصيلة وواقعية.

في عام 2017، أسست شركة "ألف ملتيميديا"، وهي شركة متخصصة في صناعة الأفلام الوثائقية بفريق يضم ثلة من الأصدقاء والزملاء الشغوفين بصناعة الأفلام.

مع كل حرب على غزة، ندرك أنه تنتظرنا أيام ثقيلة؛ لذلك نضع خطتنا منذ بدء العدوان، فلا نحتفظ بمعدات التصوير الأساسية في مقر الشركة، ونوزعها على أعضاء الفريق -خصوصا الكاميرات والعدسات وأجهزة الصوت- لسببين: الأول، خشية حدوث تدمير واستهداف للشركة، فنحافظ على المعدات الأساسية التي يمكن أن تُبقينا "على قيد العمل" لنوثق الأحداث، والآخر لأن توثيق الحرب وقصصها يتطلب منا أن نكون مستعدين دائما، والكاميرا معنا أو على كرسي السيارة، لتشغيل التسجيل مباشرةً ومتابعة قصتنا، فلا مجال للانتظار أو التحضير المسبق.

كنا نوزع الكاميرات على المصورين بحيث لو انقطع أحدنا، تظل كاميرا الآخر في حالة تشغيل.

وراء كل شخص فيلم

ولأننا صُنّاع أفلام، فلم يكن يجذبنا دائما ما يجذب الصحفيين الذين يغطون الحدث ثم يلتفتون إلى الحدث الآخر. التنبيه الأول لفريقنا هو أننا لا نغطي الأخبار فقط؛ فما يهم الصحفيين ليس بالضرورة ما يهمنا. كنا نركز على كواليس الحدث، فمثلا عند قصف منزل قد تركز قصتنا على رجل الدفاع المدني الذي يحاول الإنقاذ، أو طفل يراقب من بعيد، أو امرأة تبحث عن شيء ما. لا تنتهي تغطيتنا للحدث بانتهائه، بل نتقفى ما بعد الخبر/ الحدث. نتفق أن وراء كل شخص قصة، أي فكرة فيلم، وعلينا مراقبته ومتابعته ورصد

تفاصيله لنستكمل التصوير لاحقا، وهكذا كان عهدنا في هذه الحرب.. ولكنها كانت أكبر مما نظن.

اقترح بعض أعضاء الفريق في الأسبوع الأول من الحرب إخلاء شركتنا -هذه المرة- من كل معداتها، ولكنني قدرت أنني إن فعلت ذلك فسأزرع الخوف في الفريق، فكان الاتفاق على أن نظل على النهج القديم، ونأخذ فقط الكاميرات، وأضفنا لها جهاز مونتاج رئيسيا. وللصدفة، قُصفت ليلتئذ العمارة التي توجد بها شركتنا وأجزاء حي الرمال.. لقد دُمّرت تماما.

الحمد لله أننا نجونا ونجا معنا جهاز المونتاج؛ ذلك أنه كنا أحيانا وبعض أعضاء الفريق نبيت في مقر الشركة إذا تأخرنا في التوثيق أو كان لدينا عمل ليلي، أما عائلاتنا فلها الله! هذه ضريبة من يعمل في صناعتنا وبلدنا.

العائلة مظلومة دائما للأسف، ويقع عبء الأمر على الزوجة وبعض إخوتي الذين أستعين بهم لتأمين أسرتي. وحَظّي، مثل كثيرين من أهل غزة، أنني أعيش في عمارة صغيرة تجمع أسرتي؛ أبي وأمي وإخوتي (نقتسمها) مثل أعضاء فريقنا.

بيت ومقر عمل

بعد قصف مقر الشركة، لم يكن همنا منصبّا على ما حدث بقدر ما كان على كيفية إيجاد مكان جديد للعمل، خصوصا مع انقطاع الكهرباء في غزة. لم أجد خيارا أفضل من شقتي، حيث يمكنني التحكم في الظروف هناك. ولحسن الحظ، كنت قد جهزتها مسبقا بألواح شمسية وبطاريات، نظرا لمشكلة الكهرباء المستمرة في غزة منذ سنوات. وهكذا، أصبحت شقتي مقر العمل الجديد، نبدأ

يومنا منها، ونعود إليها بعد انتهاء العمل، حيث نخطط وننسق لخطواتنا القادمة.

في الميدان كنا خمسة فقط: أنا، وصلاح وإبراهيم (مصوران)، وأحمد الشياح (منتج)، ومروان (فني صوت ومصور عند الحاجة). أنا أيضا، حملت الكاميرا واضطررت إلى التصوير؛ فالأحداث والقصص لا تنتظر.

بدأنا رفع المواد من خلال مكاتب الأصدقاء التي بقيت سليمة، ونقاط الإنترنت السريع في غزة، قبل أن تُقطع الخدمة، ليصبح الأمر أكثر صعوبة.

كان أهلي متفهمين إلى حد ما لحركة زملائي من المنزل وإليه؛ فوالدي، الصحفي المخضرم، يعرف جيدا أهمية هذه المهنة، وقد غرس فينا قيمها وأخلاقها جزءا من تربيتنا. بعض إخوتي يعملون في المجال نفسه، لكن قلقا كان يساور بعضهم بشأن تأثير تحركاتنا على سلامتنا؛ إذ كانوا يخشون أن نكون أهدافا للاحتلال بسبب كوننا صحفيين.

خلال ذلك، قرر بعض أعضاء الفريق، بل معظمهم، النزوح عن مدينة غزة نحو الجنوب، رغم أنه لا مكان آمن، أما الأمر الوحيد الذي اتفقنا عليه فهو أن نكمل مهمتنا في كل مكان وتحت أي ظرف.

دع كاميرتك تسجل!

في هذه الحرب، كان منهجنا أن كل فرد يمثل قصة بحد ذاته ومرشح لأن يكون فيلما؛ فلا توجد فسحة للإعداد والبحث وكتابة السيناريو وكل متطلبات ما قبل الإنتاج. كل ما عليك فعله هو أن تحمل كاميرتك وتنزل إلى الميدان،

فموضوع فيلمك ستجده في طريقك. المهم أن تترك كاميرتك تسجل وتلتقط كل شيء، حاول ألا تتدخل، فقط تابع وسيتشكل فيلمك؛ ففي مثل هذه الأحداث الصعبة المتسارعة وشديدة التقلب، لا وقت لترف الإعداد. فقط قبل أن تترك قصتك، اعرف وجهتها وحاول أن تحصل على طريقة اتصال معها، فقد نعود إليها.

في الليل، أبدأ بتجميع المواد، وتبدأ بذور الأفلام في التشكل. هنا قصة يمكن متابعتها، وتلك قد انتهت. اكتشفنا أن الأفلام الخام هي الأكثر قوة وتأثيرا. فقط تابع قصتك، وانسج خيوطها، وصوّر أبطالها، وستحتاج إلى قليل من المونتاج لتقديم فيلم تسجيلي خام.

أحد أفلامنا، "مهمة إنقاذ في غزة"، صُوّر في يوم واحد فقط، وكان كافيا لصنع فيلم قصير مدته 25 دقيقة. حقق الفيلم العديد من الجوائز في مجالات الصحافة والأفلام، منها جائزة إدوارد آر مورو المقدمة من نادي الصحافة الخارجية الأمريكي (OPC)، وجائزة الجمعية الملكية للتلفزيون للصحافة التلفزيونية 2024 في المملكة المتحدة، إضافة إلى الميدالية الذهبية في مهرجان نيويورك السينمائي 2024. كذلك حصل على جائزة "هانزبيتر: العالم على مفترق طرق"، ولا يزال يترشح لجوائز أخرى.

ثم بعد ذلك، تأتي الفرصة لتطوير أفلامك بمتابعة قصصها ومنحها مزيدا من العمق؛ فقصصنا تتطور أحداثها مع تطور أحداث الحرب، ولا أحد هنا في قطاع غزة لم تنقلب حياته، وما زلنا نتابع العديد من القصص ونطورها لتصير أفلاما.

قد تكون طريقتنا في تصوير الأفلام هي ما لفت الانتباه إليها؛ فهي لا تحتاج

إلى رسم سيناريو مسبق، والقصص وتسارع أحداث الحرب هي التي ترسم سيناريو القصة وتدفعك إلى متابعتها بشغف.

من المهم أن تتحلى بالصبر والهدوء وأن تفهم جيدا ما تفعله؛ فأنت تصنع فيلما وثائقيا وليس مجرد خبر عاجل لغرف الأخبار؛ لذا اجعل قصتك بسيطة وغير مثقلة بالتفاصيل الزائدة، وستصل إلى الهدف الذي تريده. صانع الأفلام الوثائقية يسعى للعفوية ومراقبة التفاصيل، مع الحرص على أن تتجاهل شخصياتنا وجود الكاميرا التي تسجل معها. في واقع الأمر، لم تكن لقصصنا فرصة للانتباه إلينا؛ فقد كانت الأحداث أكبر من الجميع. المشاعر وردود الفعل تجاوزت حضور الكاميرا؛ إذ كانت الأحداث عظيمة الشأن.

لم يطل أمر مكوثنا في شقتي كثيرا بعد تدمير مقر شركتنا؛ فسرعان ما تطورت الأحداث في حي الشيخ عجلين ومنطقة تل الهوا جنوب غرب المدينة، وبدأ القصف يتسارع، وبدأ الناس في إخلاء منازلهم، فاتخذنا قرار النزوح، ولم يعد هناك مقر لنا، فتوزع الأهل على بيوت الأقارب.

أصبحت سياراتنا مقارّنا، نعمل من خلالها ونتنقل عبرها، ونقطة لقائنا هي مستشفى الشفاء غرب المدينة، نخطط فيه ليومنا ونوزع أدوارنا حسب خطتنا. كانت خطة مرنة؛ نتفق على موضوع معين يجب أن نتابعه، بينما يذهب فريق منا لتغطية الأحداث، وسيجد قصته هناك لنطورها لاحقا معا.

نقلنا جهاز المونتاج إلى مكتب زملائنا، نستخدمه لنسخ المواد وتهذيبها وتحميلها. أما المونتاج فلم يعد بالإمكان أن يتم في غزة، فلا الوقت ولا الإمكانات يسعفان على ذلك. بشق الأنفس كنا نرفع موادنا ونتفق مع زملائنا أو شركائنا على أن المونتاج سنرسله خارج غزة ونتابعه. نتفق على الخطوط العريضة، نبني

القصص عبر الهاتف أو الإنترنت، ونتشارك شاشة المونتاج معا عبر أحد برامج التواصل، ونعدل ونحرر بينما القنابل تسقط فوق رؤوسنا.

قد يعتقد بعض الأشخاص أن هذا يمثل ضغطا كبيرا، وهذا صحيح، ولكنه كان يمنحنا إحساسا بأننا لسنا جالسين مكتوفي الأيدي في انتظار أن نموت بصاروخ، بل كان يزرع فينا شعورا بأننا نؤدي دورا فاعلا، وننقل رواية حقيقية تواجه الدعاية الإسرائيلية المليئة بالأكاذيب. أدركت أهمية عملي بشكل أكبر عندما أُصبت وتوقفت عن العمل لفترة.

لم يستمر اجتماع الفريق وجها لوجه مدة طويلة؛ فسرعان ما قسم الاحتلال القطاع إلى نصفين شمالا وجنوبا، ولم يعد في إمكاننا الاجتماع إلا عبر الهاتف. ولعل انتقال معظم الفريق إلى الجنوب كان خيرا للعمل؛ فكل عضو في الفريق يعرف دوره. لقد استثمرنا في أنفسنا لسنوات، ولم يكن الفريق بحاجة إلى كثير من التوجيه للتوثيق. أصبحت الصورة أكثر شمولا ووضوحا، شمالا وجنوبا، وصنعنا أفلاما تمزج جانبي المأساة.

الإصابة الأولى!

استمررت أنا ومروان في تغطية الأحداث في الشمال، بينما ظلت بقية الفريق في الجنوب. كنا قادرين على التعامل مع الوضع حتى تفاقمت المأساة. في أحد الأيام، شعرت بالذنب تجاه عائلتي التي نزحت إلى بيت جدي القديم، فقررت العودة إلى المنزل في وقت مبكر لأقضي بعض الوقت مع أمي وأبي وإخوتي، كذلك أحضرت زوجتي وأطفالي من مكان نزوحهم عند بيت جدهم لأمهم.

لكن لم يطل جلوسي معهم. جلست مع طفليّ كريم وأمير أمام منزل جدي،

نتحدث مع أبناء عمي، وفجأة سقطت عدة قنابل إسرائيلية على منزل جيراننا القريب منا. انهار الركام علينا، وأصبت بجروح، بينما أصيب طفلاي بجروح طفيفة، ولكنها تركت أثرا نفسيا كبيرا عليهما. أصيب أخي أحمد بكسر في فخذه، واستشهد عدد من جيراننا. لقد كانت مجزرة في حارتنا القديمة.

نُقلت إلى مستشفى الشفاء، المصاب الذي كان يوثق قصص المصابين فيه. وكان من بين المستقبلين لي هناك أحد أبطال أفلامي الوثائقية، الذي بادر بمحاولة الحصول لي على العلاج وعرض حالتي على الأطباء لتضميد جروحي وإجراء صور مقطعية لرأسي. رغم إصابتي، وثقت هذه اللحظات عبر زميل يحمل كاميرا، فقد كان يدرك شغفي بالتوثيق، وقد نستخدم هذه المشاهد لاحقا في أحد أفلامنا.

نخطط حاليا لإنتاج فيلم جديد يروي تجربتنا، إلى جانب مجموعة من القصص التي وثقناها على مدار عام من الحرب. هذا الفيلم يمثل تحديا لنا، ويحكي قصتنا الشخصية وقصة الحرب من خلال شخصيات أفلامنا، ونأمل أن يرى هذا المشروع النور قريبا.

إننا نؤمن بأن الفلسطيني يجب أن يكون مرئيا دائما، وأفلامنا هي ذاكرة شعبنا ورسالتنا للعالم. يجب أن نروي هذه الروايات وننشرها، لتظل شاهدة لمئات السنين. نحن على يقين من أن الفلسطيني بحاجة لأن يكون مرئيا حتى وهو يعاني ويُقتل، ليظل صوته مسموعا. وإن لم يكن صوته قادرا على إنقاذه، فعلى الأقل يجب أن يزعج من يشاهد أو يسهم في قتله. هكذا نرى أفلامنا؛ هي صرخاتنا التي نطلقها، لعلها توقظ ضمائر العالم الصامت أمام ما يحدث من جرائم في فلسطين.

شيئا فشيئا بدأت أتعافى من الإصابة، ولكن التوثيق وإكمال الأفلام لم يتوقف، وهذه هي فائدة العمل ضمن فريق يفهم بعضه بعضا ويكمله، ولا ينتظر توجيها خطوة بخطوة، نحن صناع أفلام، وقد فهمنا الصناعة. أكمل الفريق التوثيق، وبعد عدة أيام عدت للتواصل والتخطيط لما سنفعل في الخطوة التالية.

في منتصف تشرين الثاني/نوفمبر 2023، اشتدت الخطورة وأصبحت الهجمات أكثر ضراوة في شمال قطاع غزة. كنا خائفين، نعم خائفين على أنفسنا وأهلنا، إنه ذلك الخوف الذي يمكن أن يشل عملنا؛ إذ لا تعرف متى سيصادفك صاروخ إسرائيلي، وأصدقاؤك وزملاؤك أصبحوا يفجعون بأهلهم، وأنت تفجع ببعضهم.

في أثناء توجهنا بالسيارة لمهمة توثيقية لقصة فيلم "مهمة إنقاذ في غزة"، وقع قصف قريب منا. توقفنا فورا لتوثيق ما حدث؛ فالناس كانت تخرج من بين الدخان وكأنها جذوع نخل تتحرك وسط الرماد. اقتربنا أكثر لنتبين المشهد، فوجدنا أن البيت الذي تعرض للقصف هو منزل زميلنا في المهنة، فضل حمامي. لم نتعرف عليه في البداية، فقد كان الغبار يغطيه كليا، وكان يبكي بحرقة على أولاد إخوته.

واصلنا توثيق ما يحدث، بما في ذلك كواليس هذه اللحظات المؤلمة. كان زملاؤنا يشهدون مقتل أفراد من عائلاتهم، وفكرنا وقتئذ أن دور عائلاتنا قد يأتي في أي لحظة. كنا نصور ونبكي، لكن بعد كل مهمة كنا نحاول استجماع قوانا لمواصلة العمل. بالنسبة لي، كنت أعلم أن هذا الشعور الرهيب سيجتاح كل فرد من الفريق، ولم أكن أستطيع أن أقول لهم ببساطة: "استمروا في العمل واتركوا مخاوفكم على أهلكم جانبا". لا، لم يكن هذا ممكنا. كان القرار دائما بأيديهم،

ولكنني أقول: 'عملنا مهم والأولوية للنفس قبل كل شيء، ولكن إذا لم نسرد قصصنا الآن، فمتى سنرويها؟'".

سبعة وأربعون شهيدا!

تعرضت عمارة جدي، التي لجأنا إليها، لقصف بثلاثة صواريخ مدمرة. كان في داخلها أبي وأمي وأربعة من إخوتي، وزوجة أخي وأطفالهم السبعة، وعمي وأبناؤه، وخالتي، وعدد كبير من أقاربي. كنت أنام في الغرفة التي خصصتها ابنة عمي لوالدي في شقتها، حتى وجدت نفسي ليلة السابع عشر من تشرين الثاني/نوفمبر 2023 ملقى بعيدا عن الغرفة التي كنت أنام فيها بجوارهم، والركام فوقي والدخان والنار يحيطان بي. كنت أختنق، عاجزا عن الحركة، أنتظر صاروخا ينهي كل شيء أو أن أغفو وأستيقظ من هذا الكابوس. ظننت للحظة أنني أحلم.

مرّ المسعفون علي، واعتقدوا أنني فارقت الحياة؛ فقد كنت غارقا في دمي بلا حراك. في تلك العتمة التي يغيب فيها النور والكهرباء، كان إنقاذ الأحياء أولوية، أما أنا فبدا أنني لست منهم. العمارة كاملةً انهارت؛ السقوف سقطت فوق بعضها، مُزِّقت الأجساد، واشتعلت النيران. عندما اكتشفوا أنني ما زلت على قيد الحياة، نقلوني إلى مركز صحي مؤقت، وهناك انتظرت حتى الفجر، على أمل أن تصل سيارة إسعاف لنقلي إلى مستشفى لا تحاصره القوات الإسرائيلية. مستشفى الشفاء كان قريبا، وكذلك المستشفى الأهلي العربي (المعمداني)، الذي يبعد كيلومترا واحدا فقط، ولكنّ كليهما كان محاصرا بالدبابات والطائرات.

في المركز الصحي، بدأت أستيقظ وأصرخ من شدة الألم، ولكن صوتي لم يكن يصل. كنت ممزقا، أحتاج إلى مسكن قوي، ولم يكن هناك أي شيء متاح.

سمعت همسات حولي: "هذا مات"، "هذا لفظ أنفاسه الأخيرة". مها، ابنة أخي، ذات الاثني عشر عاما، ماتت بين يدي الممرض الذي كان يحاول إنقاذها. شاهدت الموت يتجسد أمامي مرة تلو الأخرى، ومع كل روح تفارق، كنت أشعر بمزيد من التمزق.

نقلت في النهاية إلى مستشفى العودة شمال غزة، تحت نيران القصف. مكثت هناك يوما وليلة، ولم يكن هناك ما يمكن فعله؛ فلا أطباء أعصاب أو عظام. أعطوني مسكنات وبعض المحاليل، وخاطوا جروحي التي تفاقمت عن إصابتي السابقة، ولم تمض ساعات حتى اقتربت الدبابات الإسرائيلية وبدأت تقصف محيط المستشفى.

ورغم ألمي، كان كل ما يدور في ذهني أن هذا يجب أن يُوثّق. أشرت إلى مسؤول الإعلام في المستشفى، خالد الحلو، وهو صديق لي، وقلت له: "سجّل، وثّق، وأرسل بأقصى ما استطعت. لا يجب أن نموت من دون صورة وصوت، علينا أن نموت مرئيين على الأقل". لا أعرف ماذا فعل بعد ذلك؛ فقد كنت في حالة يُرثى لها، وكل ما أردته هو حقنة مسكن تخفف آلامي، ولكنها لم تكن كافية.

في النهاية، وصل بعض أقاربي بسيارة لإنقاذي، وهربنا من المستشفى قبل ساعات قليلة من قصفه. استُشهد الطبيبان اللذان عالجا حالتي، الدكتور أحمد السحار والدكتور محمود أبو نجيلة، مع بعض المرضى الذين لم يتمكنوا من الهرب. لقد نجا جسدي من القصف، ولكن روحي لا تزال عالقة بين الركام.

عدت إلى بيت جدي المقصوف، فلم يعد لي مكان آوي إليه، ظل مستودع صغير لم يصبه الدمار، مكثت فيه؛ يعتني بحالتي ابن عمي محمد الذي يدرس

التمريض ومن تبقى حيا من إخوتي، وبدأت أتعرف على من استشهد ومن بقي حيا. سبعة وأربعون شهيدا من أقاربي، منهم أبي وأمي، اللذان كنت أنام بجانبهما، وأخي محمود وأحمد وزوجة أخي وابنة عمي زين وأولادهم براء ومها وكرم، وأخي أحمد وأطفاله عمر وشهد، وعمي وزوجات أعمامي وأولاد عمي، وأبناء خالتي. سبعة وأربعون شهيدا!

مكثت في مكاني أعاني ثلاثة عشر يوما. من تبقى من أبناء عمي استمروا لأحد عشر يوما ينبشون في الركام، يجمعون جثامين الشهداء ويدفنونها. وجدوا الجميع إلا جثة طفل ابن عمي ذي التاسعة، ونصف جسد زوجة عمي؛ فقد تبخرا من شدة القصف على ما يبدو!

أكمل أخواي مروان ومنتصر مسيرة التوثيق، ولكن جاءت الفاجعة التي قصمت ظهري في الأول من ديسمبر/كانون الأول 2023. قُصف مروان ومنتصر وكل من كانوا معي، واستشهد بقية إخوتي، وممرض كان يساعدنا، وعدد من الجيران والأصدقاء، على باب المستودع. لم أستطع استيعاب الصدمة! جسدي عاجز عن الحركة، ولم أتمكن من الذهاب لأتأكد بنفسي من حجم الكارثة. ما هذا القصف؟ الموت يلاحقنا في كل لحظة!

وبعد خمسة أيام فقط، وصلت الدبابات الإسرائيلية إلى موقعنا وبدأت تقصف محيطنا بلا هوادة. حملوني في محاولة يائسة للهرب، وتمكنا بأعجوبة من الوصول إلى بيت غرب غزة، ظنّا منا أنه سيكون آمنا. لكن، وبعد ساعات قليلة فقط، وجدنا أنفسنا وسط الدبابات مرة أخرى؛ حاصرت المنطقة واتخذتها قاعدة عسكرية، وبدأت بقصف البيوت وإحراقها من حولنا.

كل لحظة كانت تزيد الألم؛ كأن الموت يرفض أن يغادر، ويستمر بملاحقتنا أينما ذهبنا.

عشرون يوما في الجحيم!

عشنا نحو 20 يوما كأنها 20 عاما في الجحيم. ننتظر الموت كل لحظة، حتى أيقنّا به؛ فالناس تموت في الشارع الذي يجاورنا، والدبابات ترابط أمام البيت، وتهدم سوره، وتقتحم المحلات التجارية، وطائرات "الكوادكابتر" و"الأباتشي" تحلق فوق البيت، والرصاص يخترق جدرانه، ثم أصبح الجنود يمشون في ممراتنا، وأنا طريح الفراش، لا أقوى على أي حركة، حتى على قضاء حاجتي، بينما نفدت المسكنات لدي.

بتنا متيقنين من أننا مدركون، ولكنْ دعاؤنا أن نُدفن بكرامة، لا نار تأكلنا، أو تنهشنا الكلاب، أو تفعل بنا الطبيعة فعلها. صديقتنا الصحفية علا عطا الله كانت تسكن في بيت قريب منا، أحرقوا بيتها، وأعدموها هي وإخوتها وأبناء إخوتها.

اقترب الماء من النفاد، فصار الشباب يقطرونه من فتحة أحدثتها قذيفة في السقف عند تساقط المطر. بعضهم يراقب الشارع، علهم يعثرون على دجاجة أو بطة هاربة، يستدرجونها حتى تدخل الباب، ليمسكوها، فتكون الوليمة. وإذا انكشفوا، فتلك لحظة إعدامنا.

كنا نقضي أيامنا وليالينا، وأيدينا على قلوبنا، نلهج بالدعاء لساعات. لقد ملّ الشباب. اتفقوا على أن يلعبوا الورق على أصوات القذائف، وإذا نسي أحدهم فتحمس وعلا صوته، تسقط قلوبنا في أرجلنا، وننتظر الأجل. كان يعز علينا أن نقتل بهذه الطريقة، حتى أهلنا لا يعرفون عنا شيئا؛ فالاتصالات مقطوعة، وبطاريات الهواتف انتهى شحنها.

وسط هذه الحيرة كان ثمة شيء يشغلني: ما حدث يستحق أن يُوثّق، أن يكون فيلما، أن يُحفظ للذاكرة، ولكنني كنت مشلولا مجردا من أي هاتف للتصوير. وفي أثناء الحصار، بدأت أشعر بالتحسن وصرت قادرا على الحركة، وعندما قُصفت شقتنا بقذائف المدفعية، قررنا الهرب. إن الموت ونحن هاربون، أفضل من أن ننتظر الموت حرقا أو قصفا أو إعداما بالرصاص.

اتكأت على كتف أخي، وهو يحاول أن يمنعني من السقوط، نخشى أن ننظر خلفنا أو فوقنا لنشاهد قذيفة الدبابة أو صاروخ الطائرة يدكنا، وأخيرا تمكنا من الوصول إلى مكان أكثر أمانا.

في هذه الأثناء كان بقية الفريق يكمل التوثيق وصناعة أفلامنا، لم نتوقف رغم انقطاعي عنهم!

أخيرا، اجتمعت بزوجتي وأطفالي بعد معاناتهم من التشرد، وشيئا فشيئا بدأت صحتي تتحسن. بعد شهرين من العزلة، عدت للتواصل مع فريقي في جنوب القطاع، وبينما كنت في الشمال أعاني من إصابتي، كان مروان قد استُشهد، ولكنني تلقيت خبر فوز أفلامنا، ما بث فيّ بعض الأمل وسط هذه العتمة.

فريق جديد

في نيسان/أبريل، عدت للتوثيق ولاستكمال أفلامي (بعد أن صرت أعتمد على نفسي في التنقل)، بعد أن كوّنت فريقا في الشمال من زملاء سابقين كانوا قد فضلوا التوقف عن العمل قليلا خلال الحرب، ولكنهم بعد أن طالت قرروا العودة. وهكذا عدنا، وصار لنا فريقان: واحد في الجنوب وآخر في الشمال.

أما عضو فريقنا صلاح الحو، فقد تمكن في نهاية أبريل/ نيسان من الخروج من غزة؛ إذ اتفقنا أن يجهز أستوديو مونتاج لتحرير أفلامنا بأنفسنا خارج القطاع، ونتشارك شاشة المونتاج عبر أحد برامج الاجتماعات، ونجلس ننسج أفلامنا عن بعد.

كنت دائما حريصا على اختيار فريقي بعناية؛ فالمهارة وحدها لا تكفي إذا لم تكن مصحوبة بالشغف. يجب أن نرى في صناعتنا حياة وفنًّا وإدمانا، وهذا ما يساعدنا على الاستمرار في أوقات الأزمات، ولعل ما عزز نجاحنا هو أننا لم نكتفِ بعلاقة الزمالة فحسب؛ فكلما كانت العلاقة بين أعضاء الفريق أقوى، كانت النتائج أفضل. وقد أثبتت لي حرب الإبادة هذه أن التماسك هو المفتاح، فلم نتوقف يوما عن العمل، وإذا اعترضت الظروف أحدنا، كان الآخرون يواصلون العمل.

ما زلنا حتى اليوم نوثق قصصنا عن الإبادة، ورغم أن الأعباء قد ثقلت على كاهلنا، فإن يومي يبدأ دائما بالبحث عن الطعام لعائلتي، وما أشق أيام المجاعة! أعمل على إشعال الحطب، وأبحث عن أخصائي علاج طبيعي لتخفيف آلامي، وأتنقل من مكان لآخر كلما اقتربت الدبابات من موقع إقامتنا. وبين كل ذلك، أستمر في توثيق قصصنا، محاولا أن أجد الوقت لألتقط اللحظات التي تعكس واقعنا المر.

ما حدث يجب ألا يُنسى مع مرور الزمن، يجب أن يُحفظ في ذاكرة الأجيال، ويراه العالم جيلا بعد جيل. وخير موثق لذاكرتنا هي أفلامنا التي ستروي جريمة إبادتنا لتُشاهد ولو بعد ألف عام وكأنها اليوم، ونحفظ للضحايا ذكراهم، حتى يُشار للمجرم ولو بعد مئة عام. فإن كان الظلم والنفاق سادا العالم في هذه الأيام، فربما يأتي جيل جديد تلسعه يقظة الضمير ليحاكم السفاح الإسرائيلي ويعيد للشهداء بعض اعتبارهم.



المصوّر الصحفي في فلسطين.. عين لا تنطفئ

معاذ العمارنة



معاذ العمارنة

مصور صحفي فلسطيني من الضفة الغربية يعمل لصالح عدد من وكالات الأنباء. ولد عام 1987 في مخيم الدهيشة للاجئين الفلسطينيين جنوب شرق بيت لحم. في 15 تشرين الثاني/نوفمبر 2019 فقدَ عينه اليسرى بعد إصابة مباشرة برصاص جنود الاحتلال وذلك خلال توثيقه مواجهاتٍ مع الجيش الإسرائيلي في بلدة صوريف في جنوب الضفة الغربية المُحتلَّة. في 16 تشرين الأول/ أكتوبر 2013، اعتقل معاذ على خلفيّة نشاطه الصحفي، وظلّ رهن الاعتقال الإداري لفترة امتدّت تسعة أشهر.

11

المصوّر الصحفي في فلسطين..
عين لا تنطفئ

معاذ العمارنة

أنا معاذ العمارنة، مصور صحفي فلسطيني، أزعجَ الاحتلالَ وجودي وعملي، فاستهدف عينيّ، فانطفأت واحدة وتبقّت الأخرى، وزوجتي وثلاثة أطفال: ميس الريم، وإبراهيم، وباسل. أبلغ من العمر 37 عاما وأسكن في مخيم الدهيشة للاجئين جنوب بيت لحم؛ فنحن مهجّرون من قرية راس أبو عمار غرب القدس.

في حياة الصحفي الفلسطيني لحظات فارقة عديدة. وجوده، وعمله اليومي في ظل استهداف الاحتلال المتواصل، وتوسع الاستيطان وسُعار المستوطنين المتزايد، هو في حدّ ذاته مفارقة لا تُحتمل، وضرب من المغامرة التي تقترب في أحيان كثيرة من وضع الروح (وفي حالتي أنا العين) على الكفّ. ولكنني سأبدأ بلحظتي الفارقة الكبرى في مسيرتي المهنية والشخصية، ذلك أنّه لا فرق كبيرا، بكثير من المعاني، بين المهني والشخصي في حياة الصحفي الفلسطيني، ما دام أنّه يعمل في ظرفٍ من الاحتلال العسكري المتوحّش وشديد التعنّت، وهو احتلال يتخذ على الدوام موقفا إلغائيا مطلقا من السكان الأصليين، وموقفا أكثر تشدّدا إزاء الصحفيّ منهم. هذه اللحظة تعود إلى يوم الجمعة 15 تشرين الثاني/ نوفمبر 2019، كنّا في بلدة صوريف شمال الخليل، نغطي اعتصاما وصلاة الجمعة على أراضي البلدة المهددة بالمصادرة من الاحتلال. في ذلك اليوم، كان القمع عنيفا على نحو غير معتاد مقارنة بالاعتصامات السابقة،

فتحول الاعتصام إلى مواجهات مع قوات الاحتلال. اضطر الناس إلى الابتعاد عن مكان الاعتصام، ووجدنا نحن الصحفيين أنفسنا في موقف صعب لأن سياراتنا كانت في المكان، على جبل قريب من مستوطنة، وكان الطريق الوحيد هناك قد بدأ المتظاهرون بإغلاقه. كان علينا إخراج سياراتنا؛ لأن بقاءها في المكان يعرضها لخطر الهجوم من المستوطنين وتدميرها.

كنت أنا آخر من يتحرك من الصحفيين. أوقفتني مجموعة من الجنود، وطلب مني الضابط تسليم مفتاح السيارة. دخلت في جدال معه ورفضت إعطاءه المفتاح، لأنني تعودت على التعامل معهم في مثل هذه الأحداث. كان الصحفيون جميعهم قبلي قد مروا من دون مشكلات، فلماذا يوقفني أنا؟ أغلقت السيارة كما تقتضي إجراءات الأمان، ولكن شعرت بالخطر وقررت التحرك؛ لأنني لم أرغب في أن أكون درعا لهم أو أن تتعرض سيارتي للتكسير، ومن ثم تظهر الصور ويقال إن المواطنين هم من فعلوا ذلك.

كان ثمة بالجوار قناص قريب من الطريق، نادى على الضابط وتحدث معه مازحا ومستهزئا. لم أفهم موضوع الحديث تماما، ولكن مِن ضحك الجنود وطريقتهم، شعرت أن هناك مكيدة ما. بعد ذلك طلب مني الضابط أن أغادر بسرعة، ولكنني تحركت ببطء وحذر؛ لأنني كنت أشعر أنهم قد يدّعون أنني هربت منهم لسبب ما فيستهدفونني. هذه هي حسابات الصحفي الفلسطيني دوما في الضفة الغربية عند الاشتباك مع قوات الاحتلال وتعرضهم له.

عندما وصلت إلى زملائي الصحفيين، أخبرتهم أن شيئا غريبا يحدث، وأن علينا ارتداء كل معدات الحماية والتعريف الصحفي حتى لا نعطيهم أي ذريعة لاستهدافنا. واصلنا التغطية، وبينما كانت هناك لحظات هدوء وحذر، لاحظنا

أن الجيش لا يرد على اقتراب المتظاهرين. كنا ندرك أن الجيش يفكر ربما بنصب كمين؛ لذلك كنا دائما متيقظين.

فجأة، شعرت كأن رأسي انفجر. حياتي كلها مرت أمام عيني في ثوانٍ، شعرت أنني أعيش أنفاسي الأخيرة، وشعرت بزملاء يركضون نحوي وحولي لإنقاذي، وفي هول تلك اللحظة رحت أتساءل في داخلي: "أهذا حلم أم حقيقة؟ هل سأرى أحدا آخر؟". لم أستوعب ما حدث!

في أثناء محاولة إسعافي من الزملاء، فوجئنا بتصرف الجيش. جاء الجنود ومعهم كاميرات، وبدؤوا يوثقون إصابتي. عادةً، في مثل هذه الحالات، إما أن يعتقل الجيش المصاب وإما أن يتدخل لإسعافه في حالات نادرة إذا كان هناك كاميرات كثيرة ويريدون تلميع صورتهم، ولكن ما حدث كان غريبا؛ وضعوا الكاميرا أمام وجهي وصوروا مكان الإصابة، وكأنهم كانوا يتأكدون من إصابتي بدقة. بدا الأمر وكأنه نوعٌ من تحدٍّ فيما بينهم؛ كأنهم أرادوا إثبات أنهم نجحوا في إصابتي في المكان المطلوب. صوروا ثم غادروا من دون أن يقولوا أو يفعلوا شيئا.

الإصابة كانت من قناص باستخدام رصاص محرم دوليا. نُقلت بسيارة أحد الزملاء لأن سيارة الإسعاف لم تكن قريبة ويصعب وصولها أيضا. وبعد عدة محطات، وصلتُ أخيرا إلى مستشفى هداسا عين كارم بالقدس المحتلة؛ المستشفى الوحيد القادر على التعامل مع حالتي الخطرة. هناك، قرر الأطباء إجراء ثلاث عمليات في آن واحد: إزالة الرصاصة، وإزالة العين، وجبر كسور الوجه. أخبروني أن العملية خطرة جدا ونسبة النجاح ضعيفة، ولكن لم يكن هناك خيار آخر. دخلت غرفة العمليات في الساعة الثامنة صباحا يوم 16 تشرين الثاني/نوفمبر 2019.

لم يفهم الصحفي داخلي سببا مباشرا لما حصل. لم أكن قادرا على استيعاب الأمر ومقدار الظلم الأعمى الذي صدر عنه. بلغ العمى في ذلك الظلم أنّه قرّر ولغاية ترفيهية فيما يبدو أن يُعمي الصحفي الذي يعتمد على عينه لتصوير حقائق الاحتلال. ذلك هو الدافع الوحيد الذي تمكّنت من تلمّسه.

قرر أخصائي الدماغ والأعصاب عدم إزالة الرصاصة بسبب موقعها الحرج على جدار الدماغ. كانت المخاطرة في أن يؤدي أي تحرك للرصاصة إلى تمزق الغشاء الدماغي، ما يعني وفاة فورية. أما أخصائي الوجه والفكين، فلم يستطع جبر الكسور للسبب ذاته. حاول أطباء العيون إجراء عملية ترميم، لكن، وللأسف، العملية لم تنجح، فقرروا إزالة العين بعد ثلاثة أيام.

بعد خروجي من المستشفى، كانت الأيام التالية من أصعب ما مررت به على الإطلاق، ولا تزال الآلام الناجمة عن الإصابة ترافقني حتى هذه اللحظة، خصوصا تلك النوبات الكهربائية التي كانت تصيب جمجمتي، وهي آلام لا يمكن احتمالها. خفف من ذلك مقدار التضامن الذي تلقيته، من الأهل والزملاء والمجتمع. وقف الجميع إلى جانبي خلال الأيام الأولى من إصابتي وأنا في المستشفى، وحتى بعد خروجي منها، وكان هذا الدعم كافيا لتجاوز هول الإصابة، وكأنني كنت أعيش في حلم، ولكن في مرحلة معينة، أدركت أن الأمر ليس مجرّد حلم، وأنّ أمامي حياةً جديدة مختلفة عمّا سبق. كانت لحظة استيقاظي على هذه الحقيقة صادمة، وصار يلزمني التفكير بالتعايش مع أثر الإصابة التي نسفت كل طموحاتي وآمالي التي كنت أسعى لتحقيقها مهنيا. أشعر اليوم أن حياتي، بمعنى ما، توقفت عند عمر 33، وأن كل ما أعيشه الآن ليس إلا وقتا إضافيا أو مكافأة على تلك الحياة التي تركتها هناك.

قد يتساءل بعضهم عن سبب تأكدي من أن إصابتي كانت متعمدة، ولماذا

لم يُستهدف صحفي آخر. في الحقيقة، استهداف الصحفيين لم يتوقف، ولم يقف عندي بطبيعة الحال، كذلك فإن أحداث الأيام التي سبقت إصابتي تؤكد ذلك؛ ففي 11 تشرين الثاني/ نوفمبر، في ذكرى استشهاد ياسر عرفات، كنت أنا وزميلي مصعب شاور نوثق لحظة استشهاد المواطن عمر البدوي، الذي قُتل بدم بارد. عمر كان واقفا على باب منزله يلوح بقماش أبيض، محاولا طلب المساعدة بعد اشتعال النار في منزله. وثقنا تلك اللحظة المأساوية؛ إذ لم يكن حينئذ يشكل أي خطر على الجنود أو غيرهم، وكان مواطنا أعزل. انتشرت هذه الصور بسرعة هائلة خلال أقل من ساعة، ما أثار استنكارا واسعا في العالم، إلا أنّه لم يكن كافيا لوقف هذا النمط من القتل والاستهداف للصحفيين، بل بدأ الاحتلال بعد ذلك تصعيد حملة استهدافه للصحفيين، إلى درجة أن أي تغطية لم تكن تخلو من تنكيل متعمدّ بالصحفيين واستهداف لهم، قبل استهداف المواطنين.

قبل يوم واحد من إصابتي، في 14 تشرين الثاني/نوفمبر، كنا نغطي مواجهات على المدخل الشمالي لبيت لحم. اعتاد الصحفيون الوقوف في الموقع نفسه لأكثر من عشر سنوات، وكان معروفا لدى الجميع أنّه مكان تجمّعهم، بما في ذلك الجنود والضباط الإسرائيليون، ولكن في ذلك اليوم حاولوا طردنا وقمعنا من دون أي سبب واضح. أحد زملائنا الصحفيين توجه إلى الضابط وسأله: "ماذا بقي لكم؟ لم تتركوا لنا شيئا، فهل تريدون قتلنا وإراحتنا؟"، وكان رد الضابط صادما: "عندما أقرر قتلك، فلن أستشيرك". وفي اليوم التالي، استُهدفت فعلا!

كان واضحا أن الاستهداف لم يكن موجها لشخصي بطبيعة الحال، فأنا كنت مجرّد أداة لإيصال الرسالة التي يريد الاحتلال إيصالها إلى الصحفيين جميعهم، وإنذاره بتصعيد سيتواصل ضدّهم كمّا ونوعا. الاحتلال أراد أن

يخيفنا ويجبرنا على التوقف عن التغطية، وعلى تغيير مسلكنا كاملا، أو التخلّي عن الحياة كاملة. كانت الرسالة تقول بكل فجاجة وصلف: "أنتم تعملون بأعينكم، ونحن سنقتلع تلك العيون".

رغم صعوبة الإصابة، ولا سيما فقداني الإبصار بإحدى عينيّ، تمكنت بفضل دعم زملائي وعائلتي من العودة إلى الميدان بعد عام تقريبا. كان ذلك تحديا كبيرا، خصوصا عندما أمسكت الكاميرا أول مرة بعد الإصابة. شعرت حينئذ برعشة في جسدي، واستعدت ذكريات اللحظة التي أُصبت فيها، ولكن كان عليّ أن أتغلب على خوفي وأواصل مهمتي في نقل الحقيقة.

اليوم، أرى أن الصورة التي ألتقطها ليست مجرد عمل مهني، بل هي رسالة أوصلها إلى العالم لتوثيق جرائم الاحتلال بحق شعبنا. قبل أن أكون صحفيا، أنا فلسطيني، أعاني الاحتلال وويلاته وإمكان توسّعه وتأبّده الغاشم، وهذا ما يحفزني للاستمرار في عملي والإصرار في الوقت ذاته على أدائه بأعلى مستوى من المهنية؛ تلك المهنيّة التي أدركت أن الصحفي الفلسطيني يصوغ معانيها من جديد، وهو يتعرّض لأشكال التنكيل والاستهداف والقتل كافة، في قطاع غزة تحديدا، وكذا في الضفة الغربية والقدس، من دون أن يكون لذلك أثر على كيفية تعاطي الصحافة الغربية السائدة مع كيان الاحتلال، ومدى التغطية اللازمة لتلك الجرائم المباشرة، ولكني مع ذلك أدركت أن ترك الميدان كليّا سيؤثر على زملائي ومعنوياتهم، وربما يدفع بعضهم إلى التراجع في لحظة ما، وعندما عدت إلى التغطية ورأيت الفرحة في وجوه زملائي، شعرت بأن هدف الاحتلال في الترويع والقمع لم يتحقق، وكان ذلك نجاحا بسيطا شعرنا به في الميدان.

غير أن الانتهاكات أصبحت جزءا من حياتنا اليومية. في كل تغطية، نضع في حساباتنا إمكانية التعرض للاعتداء المباشر والجسيم، وأن علينا أن

نكون حذرين في كل خطوة وحركة، بل وفي كل كلمة. لقد أصبح الصحفي الفلسطيني اليوم يفكر ألف مرة في أي كلمة يقولها أو أي صورة يلتقطها؛ فحتى في حال السفر، هنالك توقيف واستجواب وملاحقة، ومن ثَم فعلينا التفكير في العواقب والتصرف بحكمة، وضمن شروط قمعيّة شديدة التقييد وكذلك شديدة الإرهاق ماديا ونفسيا.

عدت إلى الميدان تدريجيا، وكان في ذهني أنني لن أعود إلى تغطية الأخبار الميدانية على نحو كامل، ولكن اللحظة التي غيرت كل شيء كانت قبل حرب "سيف القدس" عام 2021، أي عندما اندلعت المواجهات في المسجد الأقصى. كنت هناك، وفي لحظة غير واعية منّي، وجدت نفسي ألتقط الصور وأبث الأحداث على صفحتي في فيسبوك. تفاجأت من التفاعل الكبير، وبدأت المحطات الإعلامية ترسل لي رسائل تطلب مني الاستمرار في التغطية. رغم الخطر الشديد، وجدت نفسي أعود إلى مهنتي على نحو كامل، تقريبا.

كان يوم 7 أكتوبر لحظة فارقة أخرى وكبرى في حياتي، مثلما كانت في حياة كثيرين سواي. استيقظت نحو الساعة السادسة والنصف صباحا على أصوات صفارات الإنذار والانفجارات. كانت الصواريخ تتساقط على بيت لحم والمناطق القريبة من القدس. بدأت تصلنا صور من المناطق المحيطة، مشاهد وكأنها من فيلم خيالي. لم يكن في وسع أحد تصديق ما يحدث، وكانت الصور مؤثرة وقوية وغير مسبوقة. بالنسبة إلي، أنا المواطن الفلسطيني الرازح تحت الاحتلال، كانت لحظات تحمل شعورا بين الفخر بإمكان الخروج من القهر الذي سيطر على القطاع سنوات طويلة، والخوف الشديد مما سيعقب ما حصل. أما بصفتي الصحفية المهنية، فقد طغى شعور الخوف؛ الخوف من الدمار والقتل الذي لا يتورّع الاحتلال عنه في مثل هذه الظروف. كنا نعلم

يقينا أن مجازر بشعة ستُرتكب بحق الفلسطينيين في قطاع غزة المحاصر، وأن بطش الاحتلال سيتوسّع في الضفة أيضا. في الأيام الأولى من الحرب، كان همّي -بصفتي صحفيا فلسطينيا في الضفة الغربية- هو عدم التركيز على الانتهاكات التي تحصل في قطاع غزة فقط، بل أيضا كشف ما يجري تزامنا مع حرب الإبادة هنا في الضفة من اعتقالات وانتهاكات وقتل واعتداءات. لقد حوّل الاحتلال الضفة الغربية إلى سجن كبير؛ أغلق الطرق، ووضع حواجز على مداخل المدن والقرى، وكان التنقل بين المدن مغامرة قد تكلف الشخص حياته.

في صباح 16 تشرين الأول/أكتوبر، نحو الساعة الثالثة والنصف فجرا، حاصرت قوة خاصة منزلي. وضعوا متفجرات على الباب، وعندما طلبت منهم فتحه بهدوء لأن هناك أطفالا ونساء في الداخل، فجّروه. دخلوا المنزل وقيّدوني، ثم أخذوني إلى الحمام. حاولت التحدث مع الضابط المسؤول قائلا له: "أخبرني بما تريد، سأعطيك ما تحتاجه من دون تكسير أو تدمير"، ولكنه لم يهتم. قال لي: "لن نضربك هنا، ولكننا سنتفاهم بالخارج". أخبرني أنهم سيعتقلونني بتهمة "التحريض على دولة إسرائيل". حين سألته كيف يمكن أن أكون محرضا وأنا صحفي أنقل ما يحدث، قال لي: "ما تنقله يزعجنا"، وأخبرني بوضوح: "سنريك ماذا يعني أن تكون صحفيا".

أخذوني إلى الخارج، وبدؤوا في إهانتي بألفاظ نابية وتهديدات، حتى وصلنا إلى مركباتهم العسكرية. شعرت بخوف شديد، خصوصا عندما اندلعت مواجهات في المخيم. كانوا يطلقون النار على نحو جنوني، والجنود الذين أمسكوا بي كانوا يوجهون أسلحتهم نحو الشباب الفلسطينيين، كأنهم كانوا ينتظرون فرصة لقتلي تحت ستار الاشتباكات.

وصلنا إلى معسكر "عتصيون"[7] نحو الساعة الرابعة صباحا، وهناك تسلمني ضابط لإدارة المعتقل. قبل أن يسلموني، قال لي: "اشكر الله أنك وصلت هنا على قيد الحياة". ثم نُقلت إلى غرفة التحقيق، حيث فُتّشت تفتيشا عاريا، ثم أدخلوني إلى زنزانة. في صباح اليوم التالي، نادوا عليّ أنا ومجموعة من المعتقلين. كان المعتقَل يفتقر إلى أدنى مقومات الحياة؛ الطعام كان سيئا جدا، يوضع في وعاء كبير ويقدم للمعتقلين جميعهم بطريقة مهينة. من كان يستطيع أن يأكل من هذا الطعام كان يفعل ذلك بسبب الجوع الشديد فقط.

في اليوم التالي، نقلوني إلى سجن "مجدو"[8] بعد رحلة طويلة استغرقت خمس ساعات في سيارة النقل المعروفة بـ"البوسطة"، حيث كنت مكبل اليدين والقدمين. كانت الظروف داخل السيارة مزرية؛ الكراسي الحديدية غير مريحة، والشتائم مستمرة على طوال الطريق.

عند وصولنا إلى السجن، تعرضنا للضرب من جديد في أثناء نزولنا من السيارة، ثم خضعنا لتفتيش عارٍ مرة أخرى. في كل مرحلة كنت أعتقد أن الضرب قد انتهى؛ إذ لم يعد ثمّة ما يمكن احتماله من الضرب، ولكنهم كانوا يستمرون في الإهانة والاعتداء. في لحظة معينة، فقدت الوعي بعد تعرضي لضرب شديد على الرأس. عندما أفقت، وجدت نفسي في غرفة مع ضباط من استخبارات السجن، ثم نقلوني إلى القسم 8.

---

[10] مخرج ومنتج وصحفي فلسطيني من قطاع غزّة

[7] وهو معسكر تحقيق ومعتقل يقع بين الخليل وبيت لحم جنوب الضفة الغربية المحتلة، بالقرب من المجمع الاستيطاني (غوش عصيون)، تحتجز فيه إسرائيل مئات الأسرى في ظروف كارثية وغير إنسانية، من ضمنها التعذيب والاقتحام المتكرر فضلاً عن التجويع وإجبار الأسرى على تناول الطعام الفاسد

[8] يقع في منطقة مرج بني عامر ويتبع منطقة حيفا، وقد خصص المعتقل للأسرى الأمنيين الفلسطينيين منذ العام 1988 إبان الانتفاضة الأولى، ويعتبر الآن أحد السجون الإسرائيلية التي تشهد عمليات تعذيب ممنهجة بحقّ الأسرى

كانت هذه التجربة واحدة من أصعب المراحل التي مررت بها في حياتي. لقد فقدت السيطرة على جسدي كاملا، ولم أكن قادرا على التحرك. كل ما كان يدور في ذهني هو أنني على وشك الموت، ولم يكن لدي أي أمل في النجاة. عندما وصلت إلى القسم 8، وجدت مجموعة من المعتقلين يجلسون في الظلام إذ كانت الكهرباء مقطوعة عنهم. قالوا لي إنهم يعيشون في هذا الظلام منذ بداية الحرب، وإن الكهرباء تُعاد لساعتين فقط في اليوم.

كل ما كان يدور في ذهني هو النجاة من هذه المعاناة والبقاء على قيد الحياة بأي طريقة ممكنة.

كان معي قميصان وجاكيت عند باب السجن، وعند التفتيش العاري لم يصادروا تلك الملابس، بل تعمدوا إهانتي بجعلي أضعها بيدي في سطل أو حاوية قمامة. عندما وصلت إلى الغرفة، سمحوا لي بالراحة قليلا، فنمت من فوري من شدة التعب؛ إذ كنت قد قضيت أكثر من 12 ساعة بلا طعام أو شراب، متعرضا للضرب والإهانة والتهديد. كان نوما كالموت، أو هربا منه.

استيقظت صباحا على عملية عدّ الأسرى التي كانت تجري تقريبا في الخامسة والنصف أو السادسة صباحا. أيقظني زملائي الأسرى بصعوبة، وبعد ذلك تعرفت إليهم. بدا عليّ الإرهاق الشديد، وسألتهم إن كان من الممكن أن أحصل على دواء، وأخبروني أنه يمكنني سؤال المرض عند العدّ. وعند التعداد الثاني، عند الساعة العاشرة والنصف صباحا تقريبا، سألت الممرض عن أدويتي، فأخبرني أن الطبيب سيأتي ويقدم لي الدواء. بقيت على تلك الحال أربعة أيام، أسأل الممرض في كل عدّ عن أدويتي وعن إمكانية رؤية الطبيب، ولكن بلا جدوى.

في تلك الأيام، كانت هناك تفتيشات مستمرة، ولكن الضرب العنيف داخل الغرف لم يكن قد بدأ بعد على أشدّه. في صباح اليوم الرابع، نادوا عليّ وأخبروني أنه سيجري نقلي من دون أن يوضحوا السبب. فوجئت بأنهم أعادوني إلى منطقة باب السجن، حيث قُيّدت بالأصفاد في اليدين والقدمين، ووضعوني في سيارة البوسطة. أخبرونا أننا ذاهبون إلى الاستجواب في سجن "عوفر"، وكانت المسافة إليه من سجن "مجدو" تستغرق نحو ثلاث ساعات. طوال الطريق، تعرضنا للضرب المهين والمؤلم بالأيدي، وعند دخولنا السيارة الحديدية، راحوا يدفعون برؤوسنا نحو الأبواب، ما أدى إلى إصابات بالغة.

عندما وصلنا إلى سجن "عوفر"، أخضعوني لاستجواب قصير جدا لم تتجاوز مدته عشر دقائق. كان المحقق غاضبا ومهددا، وبدأ توجيه أسئلة مستفزة. سألني: "هل أنت سعيد بما حدث في 7 أكتوبر؟" أجبته بأنّه لا أحد يفرح للقتل في ذاته (مع أنّ الحرب الجارية ومُجريات التعذيب أظهرت نماذج تكاد لا تحصى من السعادة المازوخيةّ لدى المحتلّ بآلام الفلسطينيين). استمر المحقّق في إهانتي وشتمي، وهددني بالاغتصاب والضرب المبرح. كانت نبرته مليئة بالتهديد ومحاولة الترويع، وفي النهاية طلب مني التوقيع على أوراق لم أقرأها. من شدة الإرباك والجلبة والخوف من تزايد الضرب ومضاعفته، وافقتُ ووقعت من دون الاطلاع على محتوى تلك الأوراق.

بعد الاستجواب، أعادونا إلى سجن "مجدو"، ووصلنا نحو الساعة الخامسة أو السادسة مساءً. كنا مرهقين جدا ولم نكن قد تناولنا أي شيء من الطعام طوال اليوم. عند وصولنا، خضعنا للتفتيش العاري مرة أخرى وتعرضنا للضرب، وعندما دخلت إلى الغرفة، وجدت الشباب منهكين أيضا. لاحظت أن نصف الأغراض التي كانت موجودة في الغرفة قد صودرت، بما في ذلك الكراسي وبعض الأدوات الكهربائية.

في الأيام التالية، نقلت من جديد إلى جلسة المحكمة عبر الفيديو. وُجهت لي تهمة التحريض. تأجلت المحكمة عدة مرات، وفي إحدى الجلسات، أمر القاضي بإعطائي الدواء ومقابلة الطبيب بعد أن شرحت له حالتي الصحية ومعاناتي من مرض السكري، ولكن الأمور لم تتحسن؛ إذ أعطوني دواءً غير مناسب لحالتي، وكنت أعاني من آلام شديدة في الرأس وضعف النظر، خصوصا بعدما صودرت نظارتي. عندما اعترضت على الدواء وأخبرتهم بأنه ليس الدواء المناسب، سخروا مني. كانوا يفعلون أي شيء من شأنه الإمعان في إهانة الأسير وتذكيره بدونيّته في نظرهم، والتلويح بأن حياته برمّتها، فضلا عن كرامته، ليست حاضرة أصلا في اعتبارهم.

في الجلسة الثانية للمحكمة، لم يتمالك القاضي نفسه من التعبير عن السخرية ببعض الأدلة التي قُدّمت ضدي، ومنها فيديو قصير نشرته على وسائل التواصل الاجتماعي، وقال إن هذا الفيديو لا يشكل دليلا على أي تحريض. رغم ذلك، مُدّد اعتقالي وحُوّلت إلى الاعتقال الإداري لمدة ستة أشهر.

الحياة داخل السجن كانت صعبة جدا؛ الطعام كان سيئا جدا؛ إذ كانت الوجبات الثلاث تقدم دفعة واحدة في نهاية اليوم، وكانت الكمية قليلة جدا ولا تكفي لشخص واحد، ولكننا كنا نضطر إلى تقاسمها بين عشرة أو أكثر، من شدّة الجوع.

في يوم متأخرٍ من شهر تشرين أول/أكتوبر داهمت وحدة اقتحام الأقسام وصادرت كل شيء من الغرف، بما في ذلك الأغطية والملابس. تركونا بلا أحذية ولا ملابس كافية لنواجه برد الشتاء القارس. استمر هذا الوضع لعدة أشهر حتى تمكن المحامي من رفع قضية لتحسين الأوضاع، وبعد ذلك حصلت على بعض الملابس والأغطية.

في النهاية، نُقلت إلى سجن "النقب"[9] في منتصف نيسان/أبريل 2024. كانت الرحلة إلى هناك صعبة جدا استغرقت ست ساعات في سيارة البوسطة، وعند وصولنا تعرضنا للضرب مرة أخرى. بعد التفتيش العاري، أدخلونا إلى القسم 22، حيث كانت الأوضاع أسوأ مما كنت أتخيل؛ الغرفة مكتظة بالمعتقلين، ومعظمهم يعانون من أمراض جلدية بسبب سوء النظافة. كنا نفتقد أدنى مقومات الحياة، ولم يكن هناك سوى قليل من الطعام أو الأغطية لمواجهة البرد الذي كان يتسلل إلى العظام مع شدّة ضعف أجسامنا وذبولها.

تفشّت الأمراض الجلديّة المعدية بين الأسرى. فور دخولي إلى القسم 22، وجدت نفسي في غرفة تضم تسعة أسرى آخرين، ليكون العدد الإجمالي عشرة، جميعهم مصابون بأعراض أمراض جلديّة شديدة الأذى، ولم تُعِر إدارة السجن أي اهتمام لعلاج المصابين بها ووقف انتشارها في السجن كلّه. بدت كل حالة مختلفة عن الأخرى، ولم يكن هناك أي علاج، وأدّت مواجهة تلك الأمراض وأعراضها إلى خلق حالة نفسيّة مدمّرة بين الأسرى. بُعيدَ دخولي الغرفة، حذروني الشباب وقالوا لي: "انتبه، نحن مصابون بمرض جلدي". لم نفهم تماما طبيعة هذا المرض، ولكن الأسرى استخلصوا من تجاربهم الشخصية وتجارب الآخرين أن الأمراض الجلدية تنتشر بسرعة في السجون بسبب نقص النظافة في مثل هذه الظروف.

سمحوا لي بالنوم على السرير العلوي لأقلل من احتمالية احتكاكي المباشر بهم قدر الإمكان. كانت الغرفة صغيرة جدا، وكان هناك سريران مزدوجان فكان ينام أربعة أسرى على الأسرة، بينما ينام بقيتهم على الفرشات الموزعة على الأرض.

---

[9] سجن النقب الصحراوي، معتقل إسرائيلي موجود في صحراء النقب يقع على بعد 45 كم إلى الجنوب الغربي من بئر السبع، وهو أكبر مركز احتجاز إسرائيلي من حيث المساحة. وثقت تقارير حقوقية عديدة تعرّض الأسرى الفلسطينيين فيه إلى "جرائم تعذيب ممنهجة"، من بينهم 1200 على الأقل من قطاع غزّة منذ اجتياحه

بعد عشرة أيام من إقامتي في تلك الغرفة، أصابني التهاب بدأ في إصبع قدمي الكبير، ثمّ امتد إلى القدم كاملة وصعد إلى الساق. صار الوضع لا يُطاق، ولم أعد قادرا على الوقوف أو المشي. تدهورت حالتي النفسية سريعا، ولا سيما أنني أراقب حال الأسرى الأكبر سنا المحكومين بسنوات طويلة تتراوح بين 18 و30 عاما، وكان بعضهم قضى أكثر من عشرين سنة في السجن. كان من الصعب أن أرى أولئك الأسرى ثم أشعر بالعجز أمامهم وأنا سيفرج عني بعد شهرين، في حين أنهم سيثوون بعدي في السجن سنوات طويلة.

تورّمت قدمي كثيرا، وكنت أطلب كل يوم الذهاب إلى الطبيب أو الحصول على مسكنات للألم، ولكن من دون جدوى. الأوضاع الصحية داخل السجن كانت مأساوية؛ فقد كان هناك أسرى يعانون من قروح مفتوحة يخرج منها القيح، ومع ذلك لم يحصلوا على أي علاج. كان الشعور السائد بأن السجّانين ينتظرون موتنا، أو أنّهم يتلذّذون بهذا النوع من التعذيب العام الممنهج، وهم يرون أجساد الفلسطينيين تذوي وتتلاشى وتمرض أمام أعينهم. كان سلوكا غير غريب عن المحتل، ولكنه مع ذلك بلغ مستويات لم يسبق أن سمعنا عنها فضلا عن رؤيتها واختبارها على مدى شهور عديدة، بلا تهم ولا محاكمة عادلة، وبلا تفريق بين صحفي وغيره.

بعد أسبوعين تقريبا، تمكّن المحامي من زيارتي، فأخبرته بحالتي وشرحت له ما يحدث معي. لاحظ أنني غير قادر على السير فعلا، فسارع إلى تقديم اعتراض، وبعد خمسة أيام نقلوني أخيرا إلى العيادة، فعاينني الطبيب وذُهل من شدّة الالتهاب وأثره. حصلت على الدواء؛ مرهم وبعض المسكنات، فتحسنت حالتي قليلا. مع ذلك، ظلت الظروف التي عشتها في سجن النقب وأنواع التنكيل التي لحقت بي وشهدتها لدى الأسرى تختلف عن كل ما سمعته سابقا عن هذا المكان، المقفر تماما من الإنسانية ومن الأمل، إلا الأمل الذي كنت أستقيه من الأسرى القدامى الصامدين، رغم معاناتهم الشديدة.

ومثل اعتقالي المفاجئ على خلفية عملي الصحفي، كان الإفراج عني مفاجئا أيضا؛ فلم أكن يوم خروجي من السجن أعرف مسبقا عن الموعد تحديدا. كلّ ما فهمته قبل ذلك اليوم هو أن إخلاء سراحي سيحصل في أي يوم من شهر تموز/يوليو، ولكن بسبب التشويش على الكلمات مع المحامي، لم أتمكن من التأكد من التاريخ. في يوم الإفراج، استيقظت فجأة عندما جاء السجان وأخبرني: "جهّز حالك، ستخرج اليوم".

لم أتمكن حتى من توديع زملائي الأسرى، وتلك كانت سياسة يتبعها الاحتلال لإضعاف الروح المعنوية بيننا. بعد عدة ساعات من الانتظار وأنا معصوب العينين ومقيد اليدين والقدمين، أُفرج عني عند حاجز الظاهرية.

لحظة الإفراج تلك، على حاجتي إليها وطول انتظاري لها، كانت أصعب من كل ما مررت به في السجن؛ فقد كنت أحلم بلحظة عناق الأهل واحتضانهم: أمّي وزوجتي وأطفالي، ولكن المرض الجلديّ الذي حلّ بجسمي في السجن حال دون ذلك وحرمني مما كنت في أشدّ الحاجة إليه يومئذ. لم أحتضنهم، بل لم يكن في وسعي الاقتراب كثيرا منهم لئلا أنقل إليهم العدوى. كانت تلك لحظة مؤلمة جدا ضاعفت القهر، وجعلتني أشعر بأن تجربة السجن الظالم لم تنتهِ بعد. نُقلت إلى المستشفى، حيث أجريت الفحوصات اللازمة وشُخّصت بعدة أمراض، منها الجرب والنقرس، وذلك بسبب نوعية الطعام الرديئة في السجن.

استمر علاجي فترة طويلة، وما زلت حتى الآن أتعالج من بعض الأمراض وآثار السجن. رغم كل الظروف الصعبة، فلا يزال الأسرى يتمتعون بمعنويات عالية، متحدين العزلة التي يعيشونها وانقطاعهم التام عن العالم الخارجي. كذلك لا يزال صحفيون وصحفيات يقبعون في سجون الاحتلال، تلاشى الاهتمام

الضعيف بهم أصلا، رغم أنّ تصعيد المطالبات بالإفراج الفوريّ عنهم من طرف المجتمع الصحفي المحلي والعربي والعالميّ أولويّة قصوى، في ظل استمرار العدوان الإسرائيلي الشامل على الفلسطينيين في أماكن وجودهم كافة، في الضفة الغربية والقدس، واستمرار حرب الإبادة الشعواء على قطاع غزّة، التي تشهد واحدة من أكبر المجازر التي عرفها التاريخ الحديث، وراح فيها عشرات آلاف الشهداء، منهم زهاء 175 صحفيا وصحفيّة، استهدفهم الاحتلال وأهلهم مباشرة، ولا يزال يسعى، عبثا، إلى إطفاء مزيد من عيون الصحفيين وإسكات أصواتهم جميعا.



الصحافة في غزّة.. الإنسان أولا

يوسف فارس



يوسف فارس

صحفي ومراسل فلسطيني من قطاع غزّة، أسهم في نقل وقائع الحرب وتوثيق عدد من الجرائم الإسرائيلية في شمال ووسط غزّة.

12

الصحافة في غزّة.. الإنسان أولا

يوسف فارس

تكمن صعوبة الكتابة عن التجربة المهنية في أننا في خضم حرب مستمرة، لا أحد في وسعه التكهن بموعد نهايتها. وعليه، فمن المحتمل أننا لم نعش بعد أسوأ ما فيها، على أساس أننا نُجمع على أن أجمل ما في الحروب هو انتهاؤها. دعوني أقر بداية، بأنني لم أعش مثل أهوال هذه الحرب طوال 15 عاما من العمل في مهنة الصحافة، تخللتها 4 حروب كبيرة ونحو 25 معركة ومواجهة بين الحروب، وعامان من مسيرات العودة على الحدود الشرقية للقطاع. كذلك لم أعش مثلها على الصعيد الشخصي أيضا، وأنا الفلسطيني الغزي الذي ولد في هذه المدينة وعاش، ولم يغادرها سوى مرتين لمدة لم تتجاوز الـ 70 يوما. على حد ما أذكر، فإن روسيا العظمى لم تسمِّ حربها المستمرة منذ أكثر من عامين مع أوكرانيا حربا، بل عملية كبيرة، أما في غزة، فنحن حيال دولة نووية أعلنت في السابع من أكتوبر الحرب الصريحة، على مدينة ظلت الأمم المتحدة والمؤسسات الدولية تصنفها حتى في سنوات سِلمها على أنها "لن تكون صالحة للحياة"؛ مدينة صغيرة بلا بنية تحتية ولا ملاجئ ولا مناطق آمنة، وتكتظ بمليونين وربع مليون إنسان، يُحشد للهجوم عليها 500 ألف من الجنود، ومئات الدبابات والآليات والمدرعات والطائرات المسيّرة وأنظمة الرقابة والتتبع والذكاء الاصطناعي.

وأمام التوحش والتعبئة العامة والدعم الغربي والأمريكي المطلق، كان مقبولا، من وجهة نظري، للمرة الأولى في حياتي المهنية، أن أهذب اندفاعي

قليلا؛ لذا، لم ألبس صبيحة ذلك اليوم سترتي الصحفية لأهرع إلى التغطية، كان عليّ أن أستغل الساعات التي تسبق الإفاقة الإسرائيلية من صدمة الحدث الكبير، وأعدّ نفسي لما هو قادم، وأول تلك الأولويات تأمين العائلة ونقلها إلى مكان نعتقد أنه آمن، ثم تأمين ما يمكن من معدات، من بطاريات وأجهزة باور بانك (جهاز شحن) وشرائح إنترنت ووقود للسيارة ومكان للمبيت.

لست أذكر، ونحن نغلق العام الأول للحرب، كيف مضت تلك الفترة. رسخ في ذاكرتي كثير من المواقف: ليلة هددوا البناية التي نقلت إليها زوجتي وأولادي بالقصف، وهرعت في الساعة الـ 3 فجرا إلى إجلائهم، ثم قصفوا المنزل المجاور لمنزل أهلي واستشهد 15 من الجيران وأصيب والدي، وبعد ذلك قصفوا مسجدا في محيط المنزل الذي نقلت إليه زوجتي وأولادي، واضطررت إلى إجلائهم من جديد إلى مكان آخر.

أدركت في الأيام العشرين الأولى من الشهر الأول، كم سيكون صعبا أن تكون شاهدا وضحية في الآن ذاته، وعشت الصراع الذي يعيشه كل مؤتمن على رسالة ومهنة. كنت أعيش أعلى مستويات التقصير والعجز؛ أن تكتفي بكتابة التقارير والمتابعة الإخبارية من المنزل بينما حجم الأحداث الميدانية الكبير بحاجة إلى كل العيون والكاميرات والأقلام. بصيغة أدق، كنا أمام أهوال كبيرة ورجال مترددين.

في وقت لاحق، أدركت أن الأسوأ لم يحل بعد؛ إذ بدأت الحملة البرية الكبرى على شمال القطاع، وقضى 17 شهيدا من عائلتي في مواقع مختلفة، ولم يكن بوسعي -وأنا أقيس المسافة بين الموت وعائلتي بالسنتيمتر إلى الحد الذي وصلنا معه إلى المبيت في الشارع- سوى نقلهم إلى ما كان يسمى "المنطقة

الآمنة" في مدينة رفح جنوب القطاع، على أن أبقى في الشمال الذي خلا تقريبا من 90% من الكوادر الصحفية. وهنا، بدأ العمل.

وحتى أكون صريحا، لقد ترك الشهر الأول من الحرب في نفسي كثيرا من القروح، وحين نزلت إلى الميدان للقاء بالضحايا ونقل الصور، تملكني ذلك الشعور الذي يعيشه الزملاء جميعهم: "إننا نحكي قصتنا بأفواه وعيون متعددة". هذه المرة، لم تعطِ إسرائيل أحدا بطاقة استثناء من الموت؛ صحفيون، أطباء، رجال إسعاف وإغاثة، وعاملون في مؤسسات دولية وإغاثية محلية... جميعهم كانوا هدفا مشروعا.

سيكون عليك أن تعمل فقط لكي تؤدي الأمانة، بل أن تبذل جهدا في تجويد أدائك على النحو الذي لا يحوّل الضحايا الذين تنتمي إليهم، إلى أرقام باردة، والكرامة الإنسانية إلى محتوى للعرض. وأمام هول المجازر والجنون الإسرائيلي في استباحة كل شيء، كان منطقيا أن تطرح كثيرا من الأسئلة عن اتجاهات التغطية وزوايا المعالجة. وأولى تلك الإشكاليات، هي الخط العام في تغطية الحرب؛ إذ إن الوصول إلى المستوى الموضوعي المنصف يقتضي البحث عن مقاربة دقيقة بين ثنائيتَي البطل الخارق والضحية المهزومة؛ لأن الإفراط في أي اتجاه دون الآخر ينطوي على كثير من الغبن والتعمية على الواقع.

تحيل المساحة الرمادية بين اللونين على البحث عن مفردات جديدة سيظهر فيها البطل متعبا ومدمى ومضحيا وحزينا في كثير من الأحيان، لكنه كريم وعزيز ويرفض الإذعان والاستسلام. كذلك ستحتل الضحية، والحال هذه، المساحة الأكبر من الصورة، بكل التفاصيل المحيطة بحياتها الصعبة، مع التشديد على أن هؤلاء ليسوا ضحايا فيضان أو زلزال طبيعي أو بركان، إنما هم أصحاب قضية سياسية ومَظلَمة تاريخية، يُصب عليهم العقاب من أكبر

آلة توحش وإجرام في المنطقة. وعند التوقف على مشهد النزوح من شمال القطاع إلى جنوبه، ثم معسكرات الخيام الكبيرة، ستقف أمام معضلة الأسئلة المهنية شديدة الحساسية؛ ذلك أن عدونا لديه القدرة دائما على إعادة إنتاج الجريمة، بل صنع المشهد ذاته قبل ستة وسبعين عاما؛ فهل من الصواب أن نتحدث عن نكبة جديدة في العام 2023 ونحن من بادرنا إلى توفير أسبابها؟

إن أصعب الاستحقاقات المهنية أمام حرب كهذه، ليس تأمين المتطلبات اللوجستية، ولا انتقاء الألفاظ وطريقة عرض حكايات الضحايا، بقدر ما هو اجتراح خط عام يؤطر هذه الحرب في سياق التاريخ والحاضر والمستقبل، ويبرز حقيقة شعب لم يُعطَ فرصة ليعيش الاستقرار الحقيقي والحياة الهانئة الكريمة منذ هُجر من أرضه في العام 1948، وأُجبر على العيش في واقع يتحكم فيه الاحتلال حتى بالنفس الذي يدخل إلى رئتيه، ثم وصل إلى مرحلة الاستئصال والاقتلاع على يدي حكومة يمينية متطرفة ترى أنها حصلت على فرصة تاريخية لكي تحسم الوجود الفلسطيني، جغرافيا ورواية ومقدسات على نحو ناجز.

لعل قراءة الأحداث من هذه الزاوية، منحتني القدرة -وأنا الشاهد والضحية- على اجتراح صبغة خاصة في التغطية، تشمل توظيف أفضل السياقات والأنماط الصحفية، واستغلال الوسائل والمنصات المتاحة للعرض كافة، في إظهار صورة الفلسطيني الذي يحب الحياة ويشتهي أن يعيشها كما يجب أن تُعاش، والذي، في الوقت نفسه، يقاتل ويموت في سبيل قضية محقة أمام عدو لا أخلاق لديه. وفي هذا السياق، كانت القصة الإنسانية هي اللون الذي يمكن بواسطته الخروج من الحيز الاعتيادي الأولي لمهمة الصحافة، وهي نقل صورة الحدث، وتقديم الإحصاءات والإجابة عن الأسئلة الفضولية التي لأجلها خلق الخبر.

في وقت باكر من عمر الحرب، رأيت أن الاكتفاء بسرد الأرقام سيكون باردا، إذا لم تنفخ في كل واحدة منها روح التفاصيل، وأننا، بالقصة الصحفية، نحرر الضحايا من قائمة الأرقام الطويلة، ونكشف الجوانب التي تعطيهم حقهم في البقاء والتداول والتعاطف والاستقرار في عقول المتلقين وقلوبهم الذين سيتحولون بذلك من مشاهدين للحدث، إلى متفاعلين معه. كذلك فإن هذا المنحى يخرج بالتغطية من جانب التكرار إلى التجديد؛ على اعتبار أن كل ضحية، شهيد أو جريح مبتور الأطراف أو صاحب مصلحة تجارية دُمرت أو طموح مبدد، هو حكاية مستقلة بحد ذاتها، لها بداية وذروة مملوءة بالدهشة، ونهاية مفتوحة لا يضع الموت والخراب نقطة في آخر سطرها. وهنا، تتحول القصص التي أخذت حقها في العرض المهني الاحترافي والسرد المدروس بعناية، إلى أيقونات ذات فرادة وحضور مستدام، وليست جزءا من الشريط البصري والمعلوماتي الذي غدا مع مرور الوقت، عبئا حتى على المتلقين، ومحتوى غير مرغوب فيه.

والحقيقة أني لا أراهن على ما تراه العين وتسمعه الأذن وتستهلكه الجوارح على طريقة التمرير السريع في مواقع التواصل الاجتماعي، إنما ما تتوقف عنده القواسم الإنسانية المشتركة بين بطل القصة والصحفي والمتلقي، وما يلبي البعد السياسي الذي لا بد من مراعاته دائما؛ لأن وجود الاحتلال يمثل مشكلة شخصية لكل الفلسطينيين، وليس لحزب بعينه وجماعة يريد الاحتلال تحميلها عبء الإبادة. وتحضر في ذهني، في هذا السياق، حكاية الحاجة عقيلة السكني، السيدة التي ولدت في عام النكبة، وتقاطعت كل محطة من عمرها مع الأحداث الوطنية الكبرى؛ فقد نسف جيش الاحتلال منزل عائلتها في مخيم جباليا حينما بلغت من العمر 16 عاما، وفي صبيحة يوم زفافها، أخفى عنها ذووها سقوط شقيقها حسين في أحداث "أيلول الأسود" عام 1970، ثم في مطلع الانتفاضة الثانية عام 2000، استشهد نجلها خليل، وأصيب نجلها الأصغر حسين، وفي هذه الحرب، فقدت خمسة من أبنائها

وبقيت وحيدة ترعى 26 طفلا يتيما. إن قصة كهذه، بكل ما فيها من خلفيات وأحداث وزخم يربط الماضي بالحاضر، تشكل واحدة من الأمثلة الحية التي تجسد سرديتنا التاريخية. أما أم فوزي وشاح، فهي أمٌّ لأربعة أطفال قضوا في قصف استهدف بيتهم في حي تل الزعتر في مخيم جباليا، في نهاية الشهر الثالث من الحرب. لم تفلح محاولاتها التي استمرت خمسة شهور في إقناع زوجها، والد الشهداء، بالعدول عن قراره الشخصي الصرف بالثأر، ليقضي "أبو فوزي" خلال تصديه لجيش الاحتلال خلال العملية البرية الثانية التي استهدفت مخيم جباليا في أيار/مايو من العام الجاري. هذه القصص ومثلها المئات، تسد في حال عرضها على نحو احترافي ومهني مدروس، ثغرة السردية التي اشتغل الاحتلال طوال شهور الحرب على ردمها برواياته الزائفة.

إن التحدي الذي واجهني في صناعة البصمة والنمط، لا يرتبط فقط بظروف الحرب القاسية، إنما بحواجز مهنية وأخلاقية لا بد من مراعاتها بما لا يتجاوز دوري الصحفي المهني. المشكلة في قصتنا هنا، أننا لا نستطيع أن نكون محايدين إزاء كرامة الناس وخصوصياتهم ومشاعرهم؛ فمثلا ليس مسموحا للصحفي أن يعبر عن مشاعرَ عجز ضيفُه وبطل قصته عن التعبير عنها، وإن كان يشاركه تجربة الفقد والجوع، ويحس بكل الانفعالات التي يعيشها؛ إذ تفرض المهنية أن نجيد طرح الأسئلة ورصد التفاصيل الدقيقة التي من شأنها أن تصنع القواسم المشتركة بين من يحكي ومن يروي ومن يشاهد. إنها وظيفة ومسؤولية صعبة، ولكن نتاجاتها تشبه أن تهدم "الجدار الرابع" بين أبطال الحكاية والجمهور، وتحول على طريقة المسرحي الألماني الشهير، برتولت بريخت، المشاهد من متلقٍّ إلى متفاعل وعنصر مساند في صناعة القصة ونقلها والزيادة عليها من خلال إضافة انعكاساته النفسية الناشئة من التفاعل معها.

لقد وجدتُ أن العمل الصحفي المرتبط بالنمط المؤسساتي في كتابة التقارير والقصص وعرضها وتصويرها لن يكون كافيا لعرض الانطباع الشخصي والمساحات الشعورية المشتركة مع أبطال القصص. وعليه، كان لا بد من اجتراح نمط جديد في الكتابة، أو لنقل، إن المواقف والمشاهدات اليومية هي التي صنعت نمط الكتابة والعرض على مواقع التواصل الاجتماعي، الذي أخذ منحى مستقلا بذاته يوما بعد آخر، وجدت فيه أنه من الممكن في مساحتك الشخصية أن تعرض القصة وأبطالها مع انطباعك الشعوري، وما أثارته فيك من تفاعل، وهو نمط يفرض توظيف أهم أدوات الصحافة في تحري أعلى مستويات الدقة في استقصاء التفاصيل، واستخدام أكثر الألفاظ الفصيحة قربا من العامية، بما يسهم في توصيل الفكرة إلى الشريحة الأكبر من المتلقين، وإعطائهم فرصة لكي يضيفوا إليها من خلال وصف ما أحدثته القصص المرفقة بالصور من تأثير في دواخلهم. ورافق تلك القصص اليومية ما ينجز للمؤسسات التلفزيونية والصحف التي أعمل لصالحها، من تقارير.

دعوني أقر بأن هذا النمط من العمل لم يكن مخططا له ولا مدروسا ولا جاء نتيجة قرار، إنما صنعته التجربة وجوّدته غزارة الأحداث وكثافة الأبطال. إن التعمق في هذا المنحى يعيد إظهار وجوه الضحايا التي سلبهم إياها الخبر العاجل، ويقدم صورتهم وصوتهم ومشاعرهم ومشاعرنا تجاههم. لا، بل أكثر من ذلك؛ يصنع للأبطال قصصا لا تتوقف عند حد النشر الأول عنها، إنما هي قصص مستدامة يجري تتبعها في أوقات لاحقة، ورصد التحولات التي أحدثها الفقد فيها، وحتى طريقة التغلب على الصدمة التي ترافقها. من ذلك مثلا، قصة الشاب حمزة أبو حليمة الذي نشر أحد الصحفيين المرافقين لجيش الاحتلال صورة له أثناء التحقيق، وهو عارٍ مدمى القدمين، يبادل الجندي الذي يقيد يديه خلف ظهره، نظرات حادة وأنفا مرفوعا عاليا. لقد طافت تلك الصورة، وقت نشرها مطلع العام الجاري، مواقع التواصل

الاجتماعي، وكان البحث عن تفاصيلها وظروفها، بل وإعادة محاكاتها، مهمّا على طريق تخليدها بوصفها أيقونة تتجاوز الحدث العابر. ومن ذلك أيضا، قصة والدة الطفل الشهيد المصاب بمتلازمة داون، محمد بهار، الذي نهش كلب أطلقه جنود الاحتلال لحمه داخل منزله في حي الشجاعية، وتُرك ينزف على مرأى جنود الاحتلال حتى الموت. وقد ظهرت حينئذ "أم جبريل" وهي تروي الحكاية القاسية بكل ما يعتمل في وجهها وصوتها من مشاعر القهر والانكسار. ثم بعد عدة شهور علمنا بأنها ستنظم كرنفالا (مهرجانا) لإسعاد الأطفال في ذكرى المولد النبوي، إهداءً لروح نجلها. لا تخلد إعادة عرض صورة جديدة لوالدة الشهيد، وهي ترتدي الثوب الفلسطيني الفلاحي، مبتسمة تغالب حزنها الكبير، صورتها وقصتها فحسب، بل تمنح الحكاية سمة الاستمرارية والتجدد، وتجعل حضورها في ذاكرة المتلقي أكثر ثباتا ورسوخا.

كذلك تتجلى الانعكاسات المهنية لتجربة الحرب، فيما هو أبعد من الأنماط وأساليب التغطية وتجويد النصوص والتصوير والعرض والأخلاقيات، وهو اكتشاف أهمية الصحافة وقيمتها ورسالتها، ليس من وجهة نظر سياسية فقط، إنما من وجهة نظر الضحايا أنفسهم؛ أولئك الذين أثبت الاحتكاك اليومي معهم، أنهم أحوج من الصحفي ذاته إلى نقل حكاياتهم وتخليدها. لقد صرخت بسمة الخزندار التي قضى نجلها في حادثة اغتيال الزميلين الصحفيين إسماعيل الغول ورامي الريفي في وجهي منفعلة؛ لأنهم كتبوا على جثمان ابنها الوحيد "شهيد مجهول"، قائلة: ابني مش شهيد مجهول، ابني مش أضرار جانبية، ابني مش رقم، ابني إله اسم، واسمه خالد سائد الشوا".

الفقد موجع، ولكن الغياب والتهميش هو الأكثر إيلاما ووجعا. يحتاج الناس إلى أن يتحدث الصحفيون عنهم، ويحكوا قصصهم، وينشروا صورهم على نحو مستمر. إن أبلغ ما يمكن أن تضيفه هذه الحرب من تجربة، هو أن

الصحفي يؤدي دور النقيض الدائم لفكرة الغياب، غياب الصورة والقصة والسردية والإحصائية، وأن الصراع الذي نعيشه مع الاحتلال اليوم، هو حلقة من مسلسل مستمر منذ 74 عاما، أبلغ انتصاراتنا فيه هو البقاء.

أخيرا، أنا ممتن لأبطال قصصي، الذين سمحوا لي أن أظهر إلى جانبهم، أن أدخل إلى عائلاتهم، وأن أزاحمهم أحيانا على البطولة، غير أن الحقيقة التي لا مراء فيها، أنهم هم من يصنعوننا، وأن دورنا البسيط المحدود، ينحصر في اكتشافهم. كذلك أنا ممتن أكثر لمعهد الجزيرة للإعلام، الذي يجيد دائما تحويل الفكرة العشوائية، إلى منهج يصلح ليكون مسارا أكاديميا، بل ويُخلَّد في كتب.

الصحافة
هي ما يصيبهم
بالجنون

همام حنتش



همام حنتش

صحفي فلسطيني مستقلّ من الضفّة الغربية يعمل لصالح عدد من وسائل الإعلام العربية والمحليّة. اعتقله الاحتلال في تشرين الثاني/نوفمبر ، على خلفية نشاطه الصحفي، واستمرّ اعتقاله تحت ظروف مروّعة لمدّة 310 أيام.

13

الصحافة هي ما يصيبهم بالجنون

همام حنتش

تجتمع علينا في هذه البلاد تُهمتان أساسيّتان: واحدة يتشارك بها الفلسطينيون جميعا، تتعلق بصمودهم في أرضهم، والأخرى خاصة بالجسم المهنيّ الصحفي، ذلك أن إسرائيل أعلنت حربا خاصّة وشرسة على الحقيقة، وعلى كلّ من يحاول الكشف بمهنية وموضوعية عنها؛ لذا فإن مصيري مثل كثيرين غيري في الضفة الغربية المحتلة، آل إلى تجربة اعتقال مريرة، سأوثّق في هذه الشهادة بعض فصولها.

اعتقلت في الرابع والعشرين من تشرين الأول/أكتوبر، نحو الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. يقولون إن ذاكرة الضحايا والصدمات دقيقة، ولكن همجية الاحتلال في هذه الفترة كانت تعني استحالة نسيان أي من تفصيل التنكيل الذي حاق بنا؛ فقد حاصرت قوات الاحتلال المنزل بعدد كبير من الجنود المسلحين، وكأنّي إرهابيّ أو قياديّ في فصيل ما، رغم أن أيّا من هذه الإجراءات لم يكن ضروريا على الإطلاق. اعتُقلت بكيفية متوحشة، تخللتها صنوف من الاعتداءات الجسدية غير الضرورية؛ إذ لم أقاوم الاعتقال ولم أرتكب أصلا ما يجعلني أتوقّع مثل هذه المعاملة الموغلة في الإهانة والترويع، ولكن التهمة الأساسية كما أشرت أعلاه، حاضرة، وهي في نظر الإسرائيلي كافية للقتل والتصفية، فضلا عن التعذيب والإهانة. وهكذا اقتادوني في جنح الليل لمسافة بعيدة عن المنزل، حيث كانت السيارات العسكرية مصطفة على الجانبين. وخلال هذه الفترة، تعرضت للضرب والركل، خصوصا داخل الجيب

العسكري الذي نقلوني فيه إلى معسكر "شيقف" في مستوطنة تحمل الاسم نفسه. في الجيب، وعلى طول الطريق، كنت ملقى على أرضية المركبة، وكانت أقدام الجنود فوقي.

عند وصولي إلى المعسكر، قُيِّدت وأخضعت لفحص طبي سريع من قبل الطبيب الموجود هناك، ثم ربطوني إلى سياج محيط بالمعسكر، وتُركت بالقرب من كلب حراسة كان يعوي بشراسة كلما اقترب مني. كنت مقيدا بطريقة مشابهة لوضعية "الشبح"[10]؛ إذ كانت يداي مرفوعتين إلى الأعلى ومربوطتين من الخلف. بقيت على هذه الحالة حتى طلوع الفجر، بعد ذلك نُقِلت إلى معسكر توقيف "عتصيون"، وهناك استمرت معاناتي مع صنوف متعددة من التنكيل والاعتداء العبثي؛ أي ذلك النوع من الاعتداء غير المدفوع بأي سبب سوى الحقد والوحشية والرغبة في كسر الإرادة الإنسانية.

في معسكر "عتصيون"، استقبلنا بعض الضباط الذين استجوبونا بطريقة مهينة. كل خطوة في السجن هي مفتاح للإهانة. كل تغيير في وضع الأسرى هو تغيير يهدف إلى كسرهم فقط والاستمتاع برؤيتهم يتعذبون بلا سبب. وهكذا حصل؛ تعرضنا للضرب الشديد، وجردونا من ملابسنا كليا. بعد ذلك، أُدخلنا إلى غرف التوقيف، حيث قضينا ليلتين في ظروف قاسية للغاية، وخلال هذه الفترة كانوا يجبروننا على الجلوس على الرُّكَب، ورفع أيدينا إلى الأعلى مع وضع رؤوسنا إلى الأسفل. أنا أسير سابق، ولي تجربة مع السجن، ولكن رغم ذلك صدمتني هذه المعاملة على المقاييس كافة؛ إذ لم أشهد من قبل ولم أسمع بمثل هذا النوع من المعاملة الفظيعة التي تحدث على نحوٍ متواصلٍ من جهة، وعامٍّ من جهة أخرى؛ أي إنّ أحدا من الأسرى لم يكن يُستثنى منها، أيا كانت

---

[10] تقييد يدي المعتقل بماسورة أو مربط في حائط بحيث يبقى المعتقل واقفا أو مقيدا إلى كرسي ولا يستطيع الحركة لفترات طويلة، وأحياناً يضع السجان كيساً من القماش على رأس الأسير، أو ينهال عليه بالضرب أو الاعتداء وهو بتلك الوضعيّة.

صفته. لذا فإنه من الغنيّ عن التأكيد في هذا السياق أنّ هويّتي الصحفيّة لم تكن حصنا لي بأي شكل من الأشكال، بل ربما كانت سببا لو تذكّر السجّان ذلك، في مضاعفة التنكيل وتشديد الإهانة.

ثم نُقلنا إلى سجن "عوفر"، وهناك أُحِلت إلى جهاز الشاباك للتحقيق. وُجهت لي تهمة التحريض وتغطية الأخبار المتعلقة بمعركة "طوفان الأقصى"، واعتبروا أن الأخبار التي كنت أنقلها تشكل تحريضا على الاحتلال. أمضيت في سجن "عوفر" نحو 15 يوما، وخلال تلك الفترة كانت وحدات القمع تدخل إلى الأقسام يوميا تقريبا، تقتحم الغرف وتجري عمليات تفتيش وضرب في منتصف الليل. كنا نستيقظ فجأة على أصواتهم وهم يقتحمون الغرف ويعدّوننا، وكانت المعاملة سيئة، بل فظيعة. حتّى الطعام، كما بات معروفا اليوم، كان جزءا أساسيا من العذاب في السجن: بيضة واحدة بالكاد تصلح للأكل من شكلها ولونها، مع حبة من الطماطم أو حبة خيار، وعلى الغداء بعض الأرز شبه المطبوخ، بمقدار ملعقتين وحسب، وقد يكون معها أحيانا القليل من الفاصولياء أو البازلاء أو الذرة، ثم أربع شرائح من الخبز. هذا كل شيء بالنسبة للطعام، وهو ما جعل أجساد الأسرى تذوب، حرفيا، بسبب سوء التغذية والتعذيب المستمر والحرمان من النوم.

سُحبت منا كل وسائل الاتصال بالعالم الخارجي؛ لم يكن لدينا أي راديو، ما جعلنا معزولين تماما عن الأخبار والمستجدات. كنا نتحدث فيما بيننا ونقول إن الحرب ستستمر لشهر واحد فقط، وكنا نراهن على هذا الاحتمال، ونقول لأنفسنا "لنصبر قليلا". ولكن الأمور استمرت لأشهر وأشهر.

بعد نحو 15 أو 20 يوما من الاحتجاز، جاءتنا وحدة القمع الخاصة، المعروفة باسم "يماز"، ودخلوا علينا الغرفة. من دون أي سبب مفهوم، خضعنا من

جديد للتفتيش العنيف العاري، ثم تعرضنا لجولة من الضرب. في ذلك اليوم، اقترب أحد السجانين مني ومعه كلبه المتوحّش هو الآخر، وكان يقربه مني كلما تحركت أو رفعت رأسي. فعلوا ذلك معي خصوصا في ذلك اليوم، وذلك ربما كان عقابا لي لأنني تحدثت معهم بنبرة متحدّية، فقرروا تلقيني درسا. كان منظر الكلب وصوته واقترابه مني يبثّ في داخلي رعبا من نوع مختلف. أرهبني احتمال أن يطلقوا عليّ الكلب أو ينفلت منهم، خصوصا أنني حُشرت في زاوية ولم يكن هنالك أي إمكان لفعل أي شيء، بينما كان السجانون يضحكون ويسخرون، وقد استمر هذا الترويع العبثي باستخدام الكلب لمدة نصف ساعة تقريبا.

في اليوم التالي، تم تجميعنا ونُقِلنا إلى معتقل "النقب". كانت هذه النقلة قاسية؛ أول ما أُخرِجنا، سُلمنا إلى وحدة "النحشون"، وهي المسؤولة عن نقل الأسرى بين السجون[11]. كبلوا أيدينا وأرجلنا بقسوة شديدة، ووضعونا في العربات ووزعونا فيها على نحو يتيح استمرار الاعتداء علينا. في أثناء الاعتداء علينا، طلبوا مني أن أقول "عام إسرائيل حي"، أي "يحيا شعب إسرائيل"، ولكني رفضت بالتأكيد، فانهالوا علي بالضرب، وكان أحدهم يدوس على رقبتي بينما ظل يضربني على ضلوعي حتى تسبب لي في كسرين بالأضلاع، وهو ما ضاعف الألم أضعافا عديدة، ورغم ذلك كان الضابط يأمر الجندي بضربي على ناحية القلب. كذلك استمروا في إهانتي بالألفاظ النابية. كلما أتذكّر أنني صحفي، وأنه قد يكون لي حق أو اعتبار ما، تهوي الضربة على ناحية من جسمي فتذكّرني بالتهمة الأساسية السابقة على أي تعريف لنا تحت الاحتلال، وهي أنني فلسطينيّ. هذه الهوية لدى الإسرائيلي تُهمة وجناية يسقط معها

---

[11] وحدة خاصّة مهمّتها الأساسية نقل الأسرى بين السجون أو بين السجون والمحاكم. تم إطلاق أيدي هذه الوحدة ضد الأسرى الفلسطينيين منذ بدء الحرب على قطاع غزة. كما تتّهم هذه الوحدة، حتى قبل السابع من أكتوبر، بارتكاب اعتداءات جنسيّة ضد أسرى فلسطينيين، من بينهم أسرى قاصرون.

أي اعتبار، والدليل على ذلك هو أنّ كل أسير آخر معنا في عربة النقل تعرض لصنوف الاعتداء والإهانة نفسها، أيا كان وضعه أو عمره أو صفته.

عندما وصلنا إلى سجن "النقب"، كانت في استقبالنا وحدة "الكيتر" سيئة السمعة[12]: وجوه ملثمة كليا، أنزلونا من السيارة واحدا تلو الآخر، وبدأت وحدة "النحشون" في ضربنا، تماما كما فعلوا في "عوفر"، ولكن هذه المرة علنيا وفي ساحة مفتوحة. كان هناك ممر ضيق، عرضه نحو ثلاثة أمتار، وتركوا علينا الكلاب البوليسية، بينما كنا مكبلين لا نستطيع المقاومة. هجم عليّ أحد الكلاب فطرحني أرضا بطبيعة الحال، وصرت عاجزا عن أي مقاومة. كان الكلب مكمما بكمامة حديدية، ولكنّه كان يضربني بكمامته على وجهي وصَدري، وكان الألم لا يُحتمل، وعلاوة على ذلك كان لعابه يسيل عليّ وهو يعوي، ما زاد من هول الموقف وبشاعته.

بعد ذلك، كانوا يأمرونني بالوقوف بطريقة مربكة، ولكنني تمكنت في نهاية المطاف من الوصول إلى غرفة انتظار صغيرة، حشروا فيها نحو أربعين شخصا. كنا مكدسين تماما، لا نستطيع الحركة. بعد قليل، فتحوا الباب، وأمرونا بالجلوس على رُكَبنا ووجوهنا باتجاه الحائط، وأيدينا على رؤوسنا.

دخل علينا أفراد وحدة "الكيتر" والسجانون وهم يصرخون بطريقة هستيرية: "أهلا بكم في جهنم!"، وبدؤوا ضربنا بالعصي والدباسات. كنت أسمع صرخات الأسرى وهم يتعرضون للضرب المبرح على رؤوسهم وأكتافهم، وعندما جاء دوري شعرت كأنهم يدوسون على رأسي، وكنت أتمنى أن تنشق الأرض وتبتلعني من شدة الألم والإذلال.

---

[12] يطلق عليها الأسرى "وحدة الموت"، وهي وحدة أخرى متخصّصة باقتحام معتقلات الأِسرى وقمعهم، يكون أفرادها مدجّجين بالأسلحة ويرهبون الأسرى أثناء عمليات العدّ والتفتيش والاقتحام.

بعد ذلك راحوا ينادون علينا واحدا تلو الآخر، وكلما غادر أحد الأسرى كنا نسمع صوت صراخه، فنفهم أنه تعرض للضرب المبرح. كنا نقول لبعضنا: "دورك جاي"، وندرك أنه سيواجه الضرب القاسي. عندما جاء دوري، أدخلوني إلى غرفة تُسمى "المخلول"[13]، وهي غرفة تابعة لإدارة السجن، حيث يُفتّش الأسرى ويجري التحكم في الكاميرات والاتصالات. دخلت إلى الغرفة، وطلبوا مني أن أخلع ملابسي كليا، وكان الوضع مكشوفا ولم يتركوا لي سوى البقاء عاريا تماما، بينما كنت أسمع أصوات الأسرى الآخرين وهم يصرخون في الغرف المجاورة. كان هذا نمطا متكررا من الاعتداءات ذات الطبيعة الجنسية، التي تمعن في إذلال الأسرى وتنزع عنهم كرامتهم، في انتهاك مطلق وكامل للقوانين والأعراف كافة.

في مرحلة التفتيش العاري، تعرضت لجولة جديدة من الضرب، ومن دون أي حديث أو سؤال؛ كان ضربا أعمى بهدف الضرب وحسب. التف حولي خمسة من الجنود، وكنت في وسطهم، واستخدموا العصي الحديدية متناوبين على ضربي، وألحقوا بي آلاما ورضوضا شديدة. عندما قلت لهم إنني مريض وأعاني من آلام في ظهري، تجاهلوا كلامي بل وزادوا في حدة الضرب. شعرت في لحظات عديدة أنني أودع الحياة، فبدأت أتشهّد، كان ذلك الحلّ الوحيد، وقد خلق في نفسي شيئا من المعنى أمام هذا التوحّش الذي بدا شيطانيا ومطلقا. استمروا في ضربي لمدة دقيقتين أو ثلاث دقائق متواصلة، شعرت أنّها نهار كامل، بالبساطير والعصي البلاستيكية والحديدية. تعرضت لكسر في الرأس، وسال الدم من رأسي وأنفي. سال دمي على دماء زملائي الذين تعرضوا للضرب قبلي؛ كانت مجزرة حقيقية، ولا تزال قائمة حتى اليوم في سجون الاحتلال، ولا يزال على الصحفيين وغيرهم واجب فضحها والدعوة إلى وضع حدّ لها.

---

[13] المخلول هو وحدة التحكم الرئيسية في أي سجن، يتضمن إدارة ومخابرات السجن، وفيه زنازين استقبال وتوزيع الأسرى، وزنازين عقابية، وفيه عيادة السجن وغرف تفتيش الأسرى، ووحدة مراقبة السجن.

بعد تلك الحفلة الدموية من الضرب، نقلونا إلى غرفة أخرى، وكنا جميعا مصابين. كان بعض الأسرى مصابين في أعينهم، وآخرون في وجوههم، وآخرون في أطرافهم. كان الدم لا يزال يسيل. عندما أدخلونا إلى الغرف، لم يكن هناك سوى فرشات قديمة، ولم تكن كافية للجميع. كانت الغرفة صغيرة، مساحتها 9 أمتار في 6 أمتار، ووضعوا فيها نحو 13 شخصا. كنا ننام على الأرض، لا نستطيع التحرك، ولا حتى النهوض إلى الأسرّة العلوية. لم يكن هناك ماء للاستحمام، وفوجئنا أن المياه كانت مقطوعة. بالنسبة لي، كانت المشكلة الأكبر هي لعاب الكلب الذي بقي على جسمي طوال اليوم ولم أتمكن من النوم بسببه وبسبب ما ظل يستدعيه من تلك اللحظات المروّعة. لم أتمكن من تنظيف نفسي إلا في اليوم التالي، عندما جاءت ساعة المياه التي كانت تُقطع طوال الوقت، وتأتي فقط لمدة ساعة واحدة يوميا.

بعد ذلك، بدأت رحلة جديدة وطويلة ومختلفة من العذاب. كلما أتى السجانون لعدّنا، كانوا يطلبون منا أن نضع رؤوسنا باتجاه الحائط وأن نجلس على ركبنا ونجعل أيدينا فوق رؤوسنا، وعند العدّ كانت تحضر وحدة "الكيتر" المختصة بالقمع. في بعض الأيام كانوا يلعبون ما يشبه لعبة "حدرة بدرة"، لاختيار الغرفة التي سيقع عليها العذاب. كانوا أحيانا يدخلون الغرف واحدة تلو الأخرى، وفي أحيان أخرى يختارون غرفة بعينها ويبدؤون تكسير كل ما فيها وضرب مَن فيها مِن دون سبب واضح.

كانوا يأتون تقريبا مرتين إلى ثلاث مرات في الأسبوع بعد انتهاء العدّ، يدخلون ويبدؤون طرح الأسماء، ثم يتبع ذلك عملية تكسير وضرب شديدة. في كل مرة كنا نخاف من فترة العدّ؛ لأننا كنا نعلم أنها ستكون مصحوبة بالضرب والتنكيل.

زيارة المحامين.. فرصة أخرى للتعذيب

عندما كان يستدعى أحد الأسرى لحضور جلسة مع المحامي، كان يخضع للتقييد بالأصفاد التي كانوا يشدونها بقوة على يديه حتى يشعر كأن يديه قد تنفصل إحداهما عن الأخرى فجأة. أما عندما يصل إلى مركز التحكم أو إدارة السجن، فيبدأ الضرب. يوضع الأسرى في غرف الانتظار، وهناك يتعرضون لجولة من الضرب المهين، غير آبهين بأنهم في صدد لقاء محاميهم. وقد بلغ الضرب السابق للقاء المحامين حدا مع الوقت أصبح فيه الشباب يفضلون معه عدم الخروج لحضور جلسات المحاكمة ومحاولة التنصل منها، والسبب هو أن الأسير يعلم أنه إذا أراد الخروج لرؤية المحامي، فسيكون عليه تحمل الضرب المبرح. كان الشباب يعودون ووجوههم وأجسادهم مليئة بالكدمات، وأيديهم تحمل علامات الأصفاد التي كانت تقطع الجلد، وكان الدم يسيل من أيديهم.

أما حين نحتاج إلى الذهاب إلى المحكمة، وكانت هي محكمة عوفر عادة، فكانت الجلسة تُعقَد عبر تقنية الفيديو. مدة الجلسة كانت لا تتجاوز خمس دقائق على أقصى تقدير، ولكننا كنّا من أجل تلك الجلسة السريعة ننتظر مكبلي الأيدي طوال اليوم، مدركين أن لا شيء لصالحنا سيصدر عن الاحتلال. كانوا يرغموننا على الانتظار مقيدي الأيدي مغمضي العيون، جاثين على ركبنا، ولم يكن مسموحا لنا أن نرفع رؤوسنا، حتى إذا حاول أحد منا أو أخطأ ورفع رأسه ناسيا، يدخل الجنود فيضربون الجميع. كان ذلك العقاب الجماعي وسيلة لإذلال الأسرى، وطريقة لإثارة الخلافات والمشكلات فيما بينهم؛ إذ قد يرى أحدٌ في زميله أنّه المتسبب في جولة جديدة من عقاب يهيّأ إليه أنّه وقع لسبب ما.

الطعام أداة تعذيب!

أما الطعام في الأسر خلال هذه الفترة فكان مقداره لا يكفي إلا شخصا واحدا، ولكنه يقدم لعشرة أسرى. كنا نضطر إلى تقسيم ما يكفي الواحد، أو بالكاد يكفيه، فيما بيننا، فكان نصيب الواحد منا ملعقتين أو ثلاثا، أو شرحتين من الخيار أو الجزر. في بعض الأيام كنا نحصل على علبة لبنة صغيرة بحجم ملعقة، وحتى الخبز كانت له رائحة سيئة تشبه رائحة النقانق أو الملفوف الفاسد، فكان لا يمكن أكله.

عمد بعض الشباب إلى جمع الطعام على مدار الأسبوع ليأكلوه يوم الجمعة مرّة واحدة سعيا للشعور بالشبع ولو مرّة واحدة في الأسبوع، ولكن أحيانا كان يفسد الطعام، وهو ما يؤدي إلى مشكلات أكبر؛ مثل التسمم وآلام المعدة الفظيعة، ولكن في إحدى المرات جمعت أنا حصتي من اللبن لمدة أسبوع كامل، فصارت لدي سبع علب، وتخيّلت أنني سأقيم "عرسا وطنيا" يوم الجمعة، وهذا تعبير كنا نستخدمه للدلالة على الاحتفال البسيط الذي نقيمه عندما نجمع كمية كافية من الطعام. كنّا نفعل المستحيل من أجل لحظة تكسر توحّش الأسر مثل هذه، ولكن فسد اللبن الذي جمعته، فلم نستطع أكله. كانت تلك كارثة على وجهين؛ فقد حرمنا أنفسنا من الطعام أسبوعا كاملا، فخسرناه كلّه، ثم خسرنا تلك اللحظة السريعة الهانئة من انتصار ما رغم تعنت السجّان وإفراطه في تعذيبنا الجمعي. شعرنا جميعنا بالحزن الشديد يومئذ.

تلك كانت تجربة واحدة في السجن، وعلى فظاعة تفاصيلها التي عشتها ولا تزال آثارها قابعة في داخلي حتى اليوم، فإنها ليست الأفظع، ولا تزال قصص الأسرى في سجون الاحتلال طيّ التعتيم والنسيان إلى حدّ كبير.



تغطية فلسطين بعد 7 أكتوبر

مصطفى خواجا



مصطفى خواجا

مراسل وصحفي مستقل من رام الله، الضفة الغربية. اعتقله جيش الاحتلال في 16 تشرين الأول/ أكتوبر 2023، بعد اقتحام منزله وتخريبه وترويع من فيه، وظل معتقلاً لمدة 10 أشهر على خلفيّة نشاطه الصحفي والإعلامي. أفرِج عن مصطفى خواجا في آب/أغسطس 2024.

14

تغطية فلسطين بعد 7 أكتوبر

مصطفى خواجا

في السادس عشر من تشرين الأول/أكتوبر للعام 2023، استيقظت وزوجتي عند الساعة الثالثة فجرا على صوت عالٍ وعنيف ناتج عن محاولة خلع باب بيتنا بأدوات مخصصة لذلك من قبل جيش الاحتلال الإسرائيلي. ورغم مخاطبتي للجنود بأني قادم لفتح الباب، فقد استمروا في المحاولة، فخلعوا الباب. كانت زوجتي بجانبي، وجّه جنود الاحتلال الأسلحة صوبنا، وتقدموا باتجاهنا قليلا وسألوني عن اسمي فأجبتهم، حينئذ طلبوا من زوجتي إحضار بطاقة هويتي الشخصية وجهاز الهاتف النقال الخاص بي، ثم طلبوا إحضار كل من في البيت، فأجبتهم بأن مَن في البيت أطفال، وأحدهم مصاب بالتوحد، وهو ابني أحمد (تسع سنوات) وشقيقته لين (أربع سنوات).

في هذه الأثناء كنت قلقا جدا من أن يستيقظ أبنائي، وخصوصا أحمد لخصوصية حالته، وبالتأكيد الشعور نفسه كان لدى زوجتي.

وعند إحضار بطاقة الهوية وتشخيصي من قبل الجنود، أخبرني الجنود بأنني معتقل وسأذهب معهم. في تلك الأثناء، أحضرت زوجتي -التي رغم صعوبة الموقف أخذت تشد من أزري- دوائي؛ إذ كنت أعاني من مرض بالمعدة. رفض الجنود أن أدخل إلى غرفة نومي لتبديل ملابسي، فأحضرت لي الملابس وارتديتها أمام الجنود ثم تقدم أحدهم نحوي وأخذ نظارتي الطبية ووضعها في كيس مع دوائي، وعصَبَ عينيّ وقيّد يديّ في مربط بلاستيكي للخلف. اقتادوني خارج

المنزل، وفي ممر منزلنا الخارجي ضربني أحد الجنود على رأسي ثم خفضَه إلى الأمام، وحَنى ظهري.

بعد ذلك طلب مني الجنود الصعود إلى الجيب العسكري وأنا معصوب العينين ومقيّد اليدين إلى الخلف، ثم ألقوني أرضا على ظهري داخل المركبة العسكرية وصعدوا وأصبحت ملقى بين أرجلهم، وانطلقت القوة العسكرية المكونة من نحو ست مركبات عسكرية من أمام بيتي.

نُقِلت الى معسكر يتبع للاحتلال قرب قرية رنتيس غرب مدينة رام الله. في الطريق إلى المعسكر سكب أحد الجنود قهوة ساخنة تحتي وأنا ملقى على الأرض ومقيّد للخلف ومعصوب العينيين، وفي المعسكر أنزلني الجنود من الجيب العسكري ووضعوني على الأرض مع استمرار تقييدي للخلف وعَصْب عينيّ، وكل جندي يمر كان يسهم في شتمي وضربي، ولكن إحدى الضربات كانت قاسية جدا عندما لكمني أحد الجنود على وجهي وبالتحديد على أسفل عيني اليسرى. حينئذ شعرت بدوران وعدم تركيز، وصرخت بصوتٍ عالٍ وطلبت رؤية طبيب، ولكن من دون جدوى. طلبت من الجنود أن يفكوا يدي لأصلي الفجر، فرد أحد الجنود- بالإنجليزية- أن "الله خارج الخدمة" ولم يسمحوا لي بالصلاة. وبعد شروق الشمس جاء اثنان من الجنود واقتادوني إلى غرفة مع استمرار تقييدي وعَصْب عيني. استنتجت أنها غرفة تُقدَّم فيها الإسعافات الأولية وأن المناوب فيها هو طبيب يتبع لجيش الاحتلال، سألني باللغة العبرية عن وضعي الصحي وطبيعة حالتي الصحية وعما إذا كنت أعاني من أمراض معينة، فأخبرته بكل ما أعاني منه، وبالضربة التي تعرضت لها، وتبين أن الضربة تسببت في جرح ونزف قليل من الدم على خدي الأيسر.

بعد الانتهاء من هذه المرحلة، اقتادوني نحو حافلة كبيرة ثم نقلوني إلى معسكر (عصيون) الذي يقع جنوب الضفة الغربية.

هناك أنزلوني من الباص وكان برفقتي الأسير مجد نافع من قريتي، وقد اعتُقِل معي في الليلة نفسها، وأجبرونا على الجلوس على الأرض بعد إنزالنا من الحافلة أمام المعسكر مع استمرار تقييد الأيدي للخلف وعَصب الأعين. استمر هذا الحال حتى وقت المغرب، وطوال تلك الفترة، لم يسمح لنا بالصلاة ولا باستخدام المرحاض، وكان ممنوعا أن نبدل جلستنا؛ إذ كانت الجلسة التي يريدها جنود الاحتلال هي جلسة الصلاة ذاتها، ولكن المتعب أكثر أن الأرضية التي أجلسونا عليها مليئة بالحصى ما سبب لنا آلاما شديدة.

مع حلول المساء، أدخلوني إلى المعسكر وفتشوني بدقة، وراح أحد الجنود يشتم قيادات في المقاومة الفلسطينية. وأخيرا فيما يتعلق باليوم الأول من الاعتقال، دخلنا إلى إحدى الغرف في معسكر (عصيون)، ومكثت ليلة هناك برفقة تسعة أسرى حتى صباح اليوم التالي؛ وهو يوم الثلاثاء السابع عشر من تشرين الأول/ أكتوبر، حين أخرجوني في هذا اليوم برفقة العشرات من الأسرى من المعسكر إلى سجن مجدّو بعد الاعتداء علينا.

باختصار شديد، كانت ليلة الاعتقال الأولى ثقيلة وقاسية؛ من ناحية بسبب الاعتداء الجسدي عليّ، ومن ناحية أخرى لتركي بيتي وزوجتي وطفلي المصاب بالتوحد فجأة ومن دون سابق إنذار والتفكير فيهم وفي البيت وتخيّل ماذا فعل الجنود بعد اقتيادي لخارج المنزل. أسئلة كثيرة تجول في خاطرك وأنت مقيد ومعصوب العينيين، ولا إجابة لديك. كانت ساعات شعرت بأنها أيام وأسابيع طويلة.

الدخول إلى سجن مجدّو

وصلنا عبر البوسطة (سيارة نقل الأسرى) إلى سجن مجدّو يوم الثلاثاء 17 تشرين الأول/أكتوبر 2023 بطريقة همجية لم تخلُ من اعتداءات جسدية.

أنزلتنا وحدة ”النحشون“؛ وهي وحدة مختصة بنقل الأسرى من سجن إلى آخر ومن السجون إلى المحاكم العسكرية وبالعكس.

هناك فُتّشنا تفتيشا دقيقا، ثم وجدت نفسي في ساحة مليئة بالأسرى الجالسين على الأرض رافعين أيديهم إلى الأعلى ويعتدي سجانو السجن عليهم ويضربونهم ويشتمونهم، تعرضت للاعتداء على وجهي وأنحاء جسدي، ثم أجبرني السجانون على الجلوس كبقية الأسرى، وتعرضت كغيري لعدد من اللكمات والضرب بالأرجل على ظهري. بعد ذلك، أُدخلتُ -عندما حان دوري- إلى غرفة صغيرة؛ أجلسوني على كرسي ومن خلفي علم الاحتلال، والتقطوا لي صورة شخصية ومن خلفي العلم.

بعد ذلك خرجت من تلك الغرفة إلى غرفة أخرى كان في داخلها ضابطان من استخبارات السجون وجها لي عدة أسئلة أهمها عن عملي الصحفي وهل أحرّض على "إسرائيل" وأروّج للمقاومة الفلسطينية، فأجبت بأني أعمل صحفيا مهنيا وأمارس دوري بما تمليه معايير المهنة ومتطلباتها.

سألاني عن حساباتي على مواقع التواصل الاجتماعي وتحديدا إنستغرام وتيك توك. أجبتهما بأنه أن لا حسابات لي في هذه المواقع، فتمتما فيما بينهما كأن إجابتي لم تقنعهما، ثم نادى أحدهم سَجّانا وطلب منه نقلي إلى القسم 5. قبل ذلك، عرضني السجان على مسعف كان يجلس على طاولة في الساحة ذاتها التي يتعرض فيها الأسرى للضرب بصورة جماعية، وسألني عن أمراض أعاني منها، ووقفت على ميزان كان بجانبه، فدوّن وزني ثم أعطى إشارة للسجان بأنه انتهى مني.

في أثناء اقتيادي إلى القسم وأنا مقيد اليدين، جرى الاعتداء عليّ من ثلاثة

سجانين على طول الطريق التي امتدت لنحو خمس دقائق، وعند وصولنا إلى مدخل القسم ضربني أحد السجانين بعصا حديدية على رجليّ تركت آثارا لفترة طويلة.

عندما أخبرت ضابط استخبارات السجن بأنني صحفي، لم يُعط أي اهتمام، بل لحِظت استهزاءه بذلك من خلال نظراته، وفي هذه الأثناء طلبت من ضابط الاستخبارات نظارتي الطبية التي أخذها الجنود مني في أثناء خروجنا من بيتي، فرد باستهزاء أن لا داعي لها!

القسم 5

كانت الظروف في القسم 5 بسجن مجدو قاسية جدا، كما هي في بقية أقسام السجن؛ حيث الاقتحامات لغرف الأسرى والاعتداء عليهم، وحيث يوضع أكثر من عشرة أسرى في غرفة مخصصة لستة أسرى فقط، ما يضطر عددا من الأسرى إلى النوم على الأرض.

مكثت في الغرفة 11 في القسم 5 مدة شهر. سحب السجانون كل مقتنيات الغرفة من أدوات كهربائية، وطعام كان الأسرى قد اشتروه قبل بدء الحرب، كذلك صادروا الملابس والأحذية، ومنعوا مواد النظافة الشخصية ومواد تنظيف الغرفة، رغم أن عدد الأسرى فيها بلغ خمسة عشر أسيرا، فصار الوضع لا يطاق في المكان، ولا سيما أن أياما كثيرة كانت تنقضي من دون السماح لنا بالخروج للاستحمام.

في أحد الأيام، جاء السجانون وطلبوا منا القدوم نحو الباب من أجل تقييدنا قبل فتح الباب (كانوا يقيدون الأسرى وهم داخل غرفهم من خلال فتحة مخصصة لذلك في كل باب). بعد ذلك، وبلغة تهديدية، طلبوا منا خلع

الأحذية وعدم ارتداء أكثر من بنطال وبلوزة، ثم أخرجونا من الغرفة نحو الحمامات تحت سيل من الشتائم، وعند وصولنا إلى الحمامات أجبرونا على الجلوس أرضا، ثم بدأ السجانون ضربنا بطريقة عنيفة وهم يشتمون القيادي في حماس يحي السنوار، مع توجيه ألفاظ نابية شديدة البذاءة لنا. كان الهدف واضحا؛ وهو تجريدنا من مقتنياتنا وضرب كرامتنا جميعا بأقذر طريقة ممكنة وبلا أي قيود.

على الصعيد الطبي، ظللت أطلب من الممرض على نحو شبه يومي دوائي الذي جلبته من المنزل أو أن يوفر لي البديل، ولكنني واجهت الرفض بلا استثناء، كذلك طلبت نظارتي الطبية الموجودة في الأمانات، ولكن بلا جدوى.
في أثناء أحد التنقلات العديدة التي كانت إدارة السجن تجريها بين الفترة والأخرى، بهدف حرمان الأسير من أي شعور بالاستقرار ولو في مكان سجنه، توجّه السجّان إلى أحد الزملاء الصحفيين، وعند سؤاله عن تهمته أجابه بأنه صحفي، وما إن نطق تلك الكلمة حتى انهال عليه بالضرب المبرح، ثم نال الضرب عددا آخر من الأسرى. وقد كان من بين الأسرى الصحفيين معي في القسم نفسه الزميل صبري جبريل، ونزل كذلك في السجن نفسه (سجن مجدّو) الزميلان نواف العامر، ومعاذ عمارنة الذي سبق أن فقد إحدى عينيه في أثناء عمله بعد إصابة برصاص الاحتلال عام 2019.

الاعتداءات في السجن.. خطّ زمني من الضرب والإهانة

• في يوم دخولي إلى سجن مجدّو 17 تشرين أول/أكتوبر، تعرضت للضرب في ساحة صغيرة وضعوا فيها عشرات الأسرى، وكان الضرب لكمات على أنحاء الجسم وأمام بقية الأسرى، وقد ضُرِبتُ بالأرجل على منطقة أسفل الظهر في أثناء جلوسي على الأرض ورفع يدي إلى الأعلى.

• في أثناء نقلي من مدخل السجن للقسم 5، جرى الاعتداء عليّ على مدار الوقت خلال النقل من طرف ثلاثة سجانين، وعند مدخل القسم أيضا ضُربت بعصا حديدية على رجليّ تركت آثارا لمدة أسابيع.

• في 20 تشرين الأول، وكان يوم جمعة، نُقِلتُ مع عشرات الأسرى إلى سجن عوفر من أجل الاستجواب ثم أرجعوني إلى سجن مجدّو، وفي هذا اليوم تعرضنا للضرب في أثناء النقل.

• في 30 تشرين الأول، خرجت من القسم 5 برفقة عدد من الأسرى لعرضنا على المحكمة عبر الفيديو. وضعونا في زنزانة جماعية خارج الأقسام بانتظار دور كلّ منا للمحاكمة، وفي أثناء وجودنا فيها، تعرض أحد الأسرى الصغار في السن (لم يتجاوز 18 عاما) للضرب ما أدى إلى كسور في جسده، وكانت إحدى الضابطات تطالب السجانين بمزيد من الضرب.

• في 7 تشرين الثاني/نوفمبر، أي بعد شهر من بدء الحرب، تعرض القسم الذي كنت فيه لتفتيش شمل الغرف كافة، وعند وصول السجانين إلى غرفتنا قيدونا وأخرجونا من الغرفة نحو الحمامات الخاصة بالاستحمام بعد أن أجبرونا على خلع أحذيتنا. هناك بدأت حفلة من الاعتداء علينا بصورة همجية، وقد رافق الضرب شتائم بذيئة تمس شرف الإنسان وكرامته، مع شتم قيادات في المقاومة الفلسطينية.

• بعد شهر من مكوثي في القسم 5، استدعيت ومجموعة من الأسرى بعد تقييدنا للخلف وإجبارنا على الانحناء وخفض رؤوسنا، ثمّ نُقِلنا إلى قسم آخر هو القسم 8.

هناك، أذكر أن أحد الأسرى كان يؤذن لصلاة الظهر، فدخل السجانون إليه واقتادوه إلى زنزانة انفرادية وانهالوا عليه بالضرب هناك، ثم أعادوه إلى القسم في حالة يرثى لها، وكانت الرضوض تغطي جسده.

منذ أول يوم في الحرب، منعت خطبة الجمعة وصلاتها، ولاحقا مُنِع الأذان وصودرت الساعات اليدوية.

شهود الشهادة

لعل من أصعب المحطات التي مررت بها خلال رحلة اعتقالي التي امتدت عشرة أشهر خلال الحرب على غزة، هو استشهاد الأسير عمر دراغمة الذي كان معي في القسم نفسه. عندما ساءت حالته الصحية وظهرت عليه أعراض جلطة قلبية أخذ الشبان ينادون بصوت عالٍ على السجان المناوب، الذي ماطل في الرد حتى مضت نحو 15 دقيقة. حينئذ طلبوا منه إحضار مسعف أو طبيب على وجه السرعة، وعندما جاء المسعف، وبعد مماطلة وتأخير، أخرجوه مشيا على الأقدام بعد تقييده، ولم نعرف إن كانوا قد قدموا إليه أي دعم أو مساعدة. انتظرنا حتى اليوم التالي، ووصل خبر استشهاده. لا يمكن للكلمات أن تصف مدى القهر الذي هيمن على القسم ساعتئذ، وهو قهر ضاعفه الشعور بالعجز؛ إذ كان يستحيل التعبير عن أي احتجاج أو غضب.

ما أصعب أن تشهد موت إنسان كان بالإمكان إنقاذه! تعاملت مع تلك الحادثة بصعوبة بالغة، ولا تزال تدخلني تلك الأيام إبان استشهاد الأسير دراغمة في حالة نفسية صعبة مثل معظم الأسرى، ولكن ربما تضاعفت فيها نظرتي الصحفية إلى الأمور والقضايا من حولي. لقد فكرت كثيرا بالشهيد ومسار حياته، وفكّرت بأهله قبل استشهاده وبعد ذلك: كيف سيستقبلون

الخبر؟ وكيف ستكون حال نجله "حمزة" الذي كان معنا في السجن ذاته ولكن في قسم آخر؟ غير أني أيضا رحت أفكر في أهلي، وكيف سيستقبلون هم خبر استشهاد أسير في السجن نفسه الذي أقبع فيه؟ وكيف ستفجعهم تلك الأخبار في ظل انقطاع الاتصالات بين الأسير وأهله ومنع الزيارات وانقطاع أي وسيلة اتصال؟ لقد كان وقع الخبر مرعبا فعلا لدى أهالي الأسرى جميعهم، بمن فيهم أهلي، وهذا ما أتيح لي معرفته بعد تحرري.

منذ اعتقالي بتاريخ 16 تشرين أول/أكتوبر 2023، لم أعلم ما الوجهة القانونية لقضيتي والتهمة التي سيوجهها الاحتلال لي في المحاكم العسكرية التابعة له حتى تاريخ 30 من ذلك الشهر. يومئذ، أي بعد نحو أسبوعين من اعتقالي، استدعاني السجانون وقيدوني، وأخرجوني بهدف عرضي على المحكمة.

داخل غرفة قريبة من مدخل القسم 5 الذي كنت فيه، أدخلني اثنان من السجانين وطلبا مني الجلوس على كرسي أمامه شاشة حاسوب. جلست وتبين لي أني أمام محكمة عوفر العسكرية وأن التواصل سيكون عبر شبكة الإنترنت. حضر المحامي الذي وكلته العائلة للدفاع عني، وحينئذ أخبرني للمرة الأولى أنه قد صدر بحقي اعتقال إداري لمدة ستة أشهر. والاعتقال الإداري يصدر بقرار من ضابط المخابرات الإسرائيلية في المنطقة التي أسكن فيها، والمحكمة هي إجراء شكلي لا طائل من ورائه، وقد كانت هذه الجلسة هي الوحيدة لي منذ اعتقالي وحتى ستة أشهر؛ إذ لم أعرض على محكمة بعدها إلا بعد تجديد اعتقالي الإداري أربعة أشهر في شهر نيسان/أبريل من العام 2024.

النقل إلى سجن شطّة

في الرابع عشر من كانون الأول/ديسمبر نُقلت مع عشرين أسيرا من سجن مجدّو إلى سجن شطّة.

قبل الحرب على غزة، كانت إدارات سجون الاحتلال تُخبر الأسرى بنيتها نقلهم من سجن إلى آخر قبل يوم أو أكثر من عملية النقل، ومن ثَمّ يكون الأسير على علم بالوجهة التي سيتوجه إليها، ويُسمح له بأخذ مقتنياته من ملابس وأغراض شخصية وصور لأفراد عائلته وحتى الكتب لو أراد وغير ذلك.

كل هذا انتهى منذ السابع من أكتوبر الذي تغيرت معه طريقة نقل الأسرى؛ إذ يحضر السجان إلى غرفة الأسير ويناديه ويقيد يديه إلى الخلف وينقله إلى زنزانة جماعية عند مدخل السجن ثم ينقله في سيارة نقل الأسرى "البوسطة" إلى سجن آخر لا يعرفه الأسير.

وهذا ما حصل معي في 14 كانون أول/ ديسمبر 2023، عندما حضر سجانون إلى غرفة رقم 2 في القسم 8 بسجن مجدّو حيث كنت موجودا رفقة عشرة أسرى آخرين. طلبوا منا الحضور إلى باب الغرفة لتقييدنا بصورة عاجلة، فنقلوني وأسرى آخرين من القسم نفسه إلى مدخل السجن، وهناك التقينا مع عدد من الأسرى من بقية أقسام سجن مجدّو، وبدأنا بالسؤال عن السجن الذي يمكن أن نُنقل إليه. بعض الأسرى سمعوا السجانين وهم يتهامسون بينهم أن الوجهة ستكون نحو سجن شطّة.

ركبنا في سيارة نقل الأسرى "البوسطة" بعد تفتيشنا تفتيشا دقيقا والاعتداء على بعضنا في أثناء دخولنا إلى سيارة النقل، وانطلقت السيارة حتى وصلنا إلى مدخل سجن شطّة الذي لا يبعد كثيرا عن سجن مجدّو؛ إذ استغرقت الطريق 40 دقيقة أو أقل قليلا.

ما إن وصلنا، وقبل إنزالنا من سيارة "البوسطة"، حتى سمعنا أصواتا عالية لنباح كلاب. كان صوتا مخيفا، ولا سيما مع عدم قدرة الأسرى على رؤية أي شيء. كل شيء مع انعدام الرؤية ومعرفة طبيعة السجّان، يكون متوقعا.

بدأ السجانون إنزالنا من سيارة البوسطة ونقلنا إلى زنزانة جماعية عند مدخل سجن شطّة، وبالتأكيد ونحن مقيدون ومجبرون على الانحناء؛ بمعنى أننا مرغمون على طأطأة رؤوسنا إلى درجة لا نكون معها قادرين على رؤية ما هو أمامنا. خلال هذه العملية، تعرض كل واحد منا في أثناء دخوله إلى الزنزانة الجماعية للضرب بأقدام السجانين الذين كانوا بانتظارنا، وذلك قبل أن يدخلوا علينا ويرغمونا ونحن لا نزال مقيدين على الجلوس أرضا كي تتسنّى لهم مواصلة الضرب في أثناء توجيه شتى أصناف الشتائم البذيئة بحقنا وحقّ كل عزيز علينا.

من المواقف التي لا يمكن لي أن أنساها، أن أحد الأسرى -وهو من بلدة جبع في محافظة جنين- ونتيجة للضرب المبرح الذي ظهر أنّه تركّز على الجزء العلوي من جسده، فقد وعيه. بدأنا الصراخ على السجانين حتى ينقلوه إلى عيادة السجن، ولكن النداء وقع على آذان صمّاء تماما، ولم يستجيبوا لطلب إسعافه. ظل الرجل على تلك الحال، حتى استعاد شيئا من وعيه، وقد أثّرت فينا كثيرا رؤيته والاستماع إليه لحظتئذ، وهو يوصينا بصوت متهدّج من شدّة الألم برعاية أطفاله في حال استشهد وفقد حياته. كانت تلك واحدة من أشدّ اللحظات صعوبة في أول ساعات في الزنزانة الجماعية.

كان الضرب نشاطا مستمرا حين بدؤوا باستدعائنا لإخراجنا من الجماعية، حان دوري، فتعرضت لجولة من الضرب أمام الزنزانة، ثم اقتادني سجانان عبر ممر طويل بعد تقييد يدي للخلف وإرغامي على الانحناء المذل والمؤلم الذي بلغ حدا يفوق الاحتمال، فكان يضيق نفسي وأجدني وقد سقطت على الأرض من شدّة الألم، وقد حصل ذلك مرتين على الأقل. وصلت إلى القسم الجديد في السجن، وهو قسم افتتح في 3 كانون أول/ ديسمبر 2023، أي قبل أحد عشر يوما من دخولي، وهو القسم الوحيد للأسرى الفلسطينيين السياسيين، وبقية أقسام السجن مخصصة للأسرى المدنيين.

الدخول إلى قسم 7 في سجن شطّة

وصلت إلى باب القسم في حالة يرثى لها، نتيجة للضرب المبرح الذي تعرضت له عند مدخل السجن وسوء الوضعية التي نُقلت بها عبر الممرات الداخلية للسجن وصولا إلى مدخل القسم 7 . عند مدخل القسم صفعني أحد السجانين على وجهي صفعة جعلتني أشعر بالدوار وعدم القدرة على الرؤية بشكل واضح، ثم وبفعل الضرب في الطريق إلى القسم وانحناء جسدي إلى الأمام دخلت في حالة مهينة للغاية. عند مدخل القسم، وفي داخل إحدى الغرف، أدخلوني فإذا بطبيب يرتدي زي السجانين يجلس خلف شاشة الكمبيوتر، يسألني ما إذا كنت أعاني من أمراض معينة، فأجبته عن مشكلة في معدتي وأني أحضرت الدواء معي ولكن الجنود ألقوه في القمامة. وعدني بتأمين الدواء وإرساله إلى غرفتي، وهو ما لم يحصل قطّ بطبيعة الحال. كنت أجد صعوبة في الحفاظ على بنطالي متماسكا على خصري، فعرفت أني فقدت بعض الوزن، ولكن المفاجأة كانت عند صعودي على الميزان في "العيادة"، واكتشافي بأني خسرت عشرين كغم خلال شهرين فقط قضيتهما في سجن مجدّو!

فيما يتعلق بالظروف المعيشية في سجن شطّة واختلافه عن سجن مجدّو، تفاجأت بنوعية الأسرى في شطّة؛ إذ علمت وبعد دخولي إلى غرفتي (غرفة رقم 7) ووجدت فيها ستة أسرى منهم أسيران محكومان بالمؤبد، أن عددا من الأسرى المحكومين بالمؤبد موجودون في القسم، وعلى رأسهم أقدم أسير سياسي في العالم وعميد الأسرى الفلسطينيين والعرب نائل البرغوثي، إضافة إلى قيادات في الحركة الأسيرة كعبد الله البرغوثي[14] وبلال البرغوثي ومحمد عرمان وغيرهم.

---

[14] عبد الله البرغوثي (52 عاماً)، أسير في السجون الإسرائيلية، وهو أحد أبرز قيادات كتائب القسام الجناح العسكري لحركة حماس، ومن قادة المقاومة البارزين في انتفاضة الأقصى الثانية التي اندلعت عام 2000. يقضي حاليا حكما من أعظم الأحكام في التاريخ، وذلك بالسجن المؤبد 67 مرة، إضافة إلى خمسة آلاف ومئتي (5200) عام.

تفاجأت بطريقة عدّ السجناء في السجن الجديد؛ ففي مجدّو كان يتم ذلك ونحن واقفون في آخر الغرفة وكنا ننظر إلى ضابط العدد والسجانين في أثناء العد. أمّا في سجن شطّة فالعد يحصل ونحن جالسون على الأرض ووجوهنا باتجاه الحائط وظهرنا إلى مدخل الغرفة التي يقف عندها ضابط العدد، وأيدينا فوق رؤوسنا. كذلك فإن التفتيشات واقتحام الغرف والاعتداء علينا كانت تحصل على وتيرة أعلى في شطّة، وكانوا لا يطفئون الإنارة في الليل، وقد حرمت من النوم بلا إضاءة مدة ثمانية أشهر متتالية. أمّا الأذان فممنوع نهائيا في شطّة، وصلاة الجمعة ممنوعة كذلك، وطوال 10 أشهر لم أصلّ الجمعة، وحُرمت من الاستماع إلى الأذان طيلة ثمانية أشهر.

لم تختلف المعاملة بصفتي صحفيا عن بقية الأسرى في القسم، بل ربما زاد ذلك في شدّة فظاعة المعاملة أحيانا؛ ففي 14 آذار/مارس 2024، تعرضت لاعتداء من السجانين في أثناء تفتيش غرفتنا، وكنت مقيدا إلى الخلف. ضربني أحدهم على رجلي فوقعت أرضا، ومنذ ذلك التاريخ حتى بعد خروجي من السجن بشهر، ما زلت أصلي على كرسي ولا أقوى على ثني ركبتي، وما زلت أخضع للعلاج.

العلاج والحرمان من النظارة الطبية

منذ اعتقالي، أخبرت الضابط الذي أشرف على عملية اعتقالي بأنني أعاني من مشكلات هضمية ولدي دواء لعلاج ذلك. عند دخولي سجن مجدّو وعند انتقالي لسجن شطّة أخبرت "الطبيب" بمرضي والدواء الذي أتناوله، ولكن لم يفد ذلك في شيء. بعد الاعتداء عليّ في 14 آذار/ مارس وتضرر ركبتي وعجزي عن أداء الصلاة إلا جالسا، أخبرت المسعف الذي كان يوزع بعض المسكنات على غرف الأسرى بأنني أعاني من أوجاع ومشكلات عدة في ركبتي، ثم أخبرت

الطبيب بذلك بعدما طالبت مرارا وتكرارا بزيارته، فأخبرني بحاجتي لعملية جراحية في الركبة، ولكنه رغم ذلك اكتفى بإعطائي مسكن آلام وظللت على تلك الحال الصعبة حتى تحرري.

ولعل حرماني من نظارتي الطبية منذ بداية اعتقالي في 16 تشرين أول/أكتوبر وحتى الأول من أيار/مايو كان من أشدّ الأمور صعوبة عليّ؛ فأنا أعاني من ضعف في الرؤية وقصر البصر، ورغم أني ألححت في طلب استعادتها كلما تكلمت مع ضباط السجن ومع المسعف الذي كان يوزع الأدوية على الأسرى (قبل قرار منع توزيعها)، ومع بعض السجانين، فإن ذلك كله كان بلا نتيجة. ثم طلبتها من القاضي خلال جلسة محاكمة لتثبيت تمديد اعتقالي للمرة الثانية بتاريخ 25 نيسان/ أبريل، وتدخّل المحامي الذي طالب القاضي بإعطائي نظارتي الموجودة في الأمانات والتي لا تحتاج لا إلى قرار رسمي ولا إلى أي عناء فهي موجودة في السجن نفسه الذي أنزل فيه.

كانت تلك الفترة التي امتدت لستة أشهر ونصف من اعتقالي هي الأصعب قبل حصولي على النظارة الطبية؛ إذ عانيت خلالها على الدوام من الدوار والصداع، علما بأنني أعتمد على النظارة الطبية منذ عشرين عاما.

صعُب علي أيضا انقطاعي التام عن الأخبار سواء الشخصية أو العامة، وخصوصا المرتبطة بالحرب. شعرت بمرارة الصحفي وهو محروم تماما من كل معلومة وخبر وتطوّر، بعد أن كان يدمن متابعة التفاصيل كافة محليا وإقليميا وعالميا، ولا سيما في سياق الحرب. كذلك فإن حرماني من معرفة أي خبر عن أهلي على مدى أشهر مديدة كان له أثر نفسي سلبي شديد عليّ؛ فوالداي من جهة يعانيان من أمراض قلبية، أما ابني البكر أحمد (9 سنوات) فمصاب بالتوحد. وبين أحمد وأسرتي ووالديّ المريضين، سيطرت على ذهني كثير من

الأفكار، ولا سيما أنني كنت متابعا لحالة ابني وكنت أتابع معه جلساته في مراكز التأهيل وأرافقه بعناية إلى الأماكن العامة لكي يلعب، فأنا أفهم احتياجاته جيدا وأعرف طريقة التعامل معه.

صحيحٌ أن هذا جزء وحسب من المعاناة التي قاسيتها بصفتي الإنسانية والمهنية خلال أشهر السجن، ولكن هذه التفاصيل التي تمسّ أسرتي –وخصوصا ابني أحمد- والتفكير فيها وأنا بعيد عنهم كانت هي الأشدّ عليّ؛ فقد كنت في كثير من الأحيان أجلس على "برشي"[15]، أتمدد وأغطي وجهي وأبدأ بالتخيل وكأني مع أحمد متذكرا بعض المواقف معه. في تلك اللحظات الخاصة كنت لا أطيق أن يتحدث معي أو يقاطعني أحد، وكنت أفضل أن أبقى في فسحة التأمل تلك وكأنني أذهب إلى خارج أسوار السجن، وأنا أستعيد بعض المواقف بيني وبين أبنائي ومع أهلي وعائلتي وأصدقائي.

في بعض الأحيان، كانت مخابرات الاحتلال تستدعي بعض الأسرى للمقابلة في معسكر عوفر، وعند استدعاء الأسير للقاء ضابط المخابرات المكلف بمنطقة سكن الأسير، فإنه يمر بمجمع يتجمع فيه الأسرى من معظم سجون الاحتلال وذلك في مدينة الرملة، ويُعرف هذا التجمع بـ"معبار الرملة"، وفيه يلتقي الأسرى الجدد بالقدامى وفيه يتناقل الأسرى آخر الأخبار فيما بينهم. كان ذلك "غرفة أخبار" الأسرى الوحيدة في تلك الفترة.

ذات يوم، استدعي أسير من قسمنا لمقابلة ضابط مخابرات منطقته وذلك في معسكر عوفر، وعند وصوله إلى "تجمع الرملة" التقى هناك بأسرى من سجون لا تزال فيها أجهزة راديو لم يستطع الاحتلال مصادرتها بعد، فأخبروه

---

[15] هو سرير من حديد يخصص للأسير بقصد استخدامه للنوم والجلوس، عليه عادة قطعة إسفنج رقيقة جداً مغطاة بثوب من القماش. منذ السابع من أكتوبر لا يحصل كل أسير على برش، بل ينام عدد كبير منهم على فرشات رقيقة على الأرض مباشرة بسبب الاكتظاظ الكبير في السجون.

باغتيال صالح العاروري، نائب رئيس المكتب السياسي لحركة حماس. حين عاد ذلك الأسير إلى القسم نقل إلينا الخبر الذي مضى عليه وقتئذ ثلاثة أسابيع على الأقل، ما ترك أثرا بالغا في نفوس بعض الأسرى، ولا سيما الذين عايشوا الشيخ العاروري في السجن. كذلك وصلنا لاحقا خبر استشهاد رئيس حركة حماس إسماعيل هنية بالطريقة ذاتها.

الحقيقة أن وصول مثل تلك الأخبار بعد وقوعها بفترة ليست قصيرة أشعرني بالقهر؛ فأنا الذي كنت أنشر الأخبار قبل معرفة الناس بها، وأعرف من الأخبار وتفاصيلها وسياقاتها وكواليسها ما قد يجهله عموم الناس، وأنا اليوم أتلقى أخبارا كهذه بعد أسابيع من وقوعها. كان هذا الانقطاع عن العمل والتعامل الحقيقي مع الأخبار مرهقا غاية الإرهاق بالنسبة إليّ، ويثير شعورا من قهر خاص، ولا سيما مع تداعي الأسئلة الافتراضية في ذهني، من دون أن يكون لديّ تصور لما هو واقع على الأرض. هذه الحالة كانت تصيبني بضيق قد يكون الأقسى عليّ باعتبار صفتي المهنية، وعلى نحو يزيد أضعافا عن الآخرين.

الطعام.. بل قلة الطعام

تحدثت بنزعتي الصحفيّة مع عشرات الأسرى ممن التقيتهم وكانوا داخل السجن عند بدء الحرب، وكان موضوع الحرمان الغذائي موضع اتفاق بين الجميع؛ فإبان السابع من أكتوبر، اقتحمت وحدات السجون القمعية غرف الجميع وصادروا كل ما فيها، ولم يتركوا مواد غذائية ولا معلبات ولا زيت زيتون ولا غيرها إلا وصادروه. أما "الكنتينا"، وهي أشبه بالكافتيريا التي كان الأسرى يشترون احتياجاتهم منها، فقد دهمتها إدارات سجون الاحتلال وصادرت كل ما فيها.

أمام تلك الحالة، لم يعد أمام الأسرى إلا الطعام الذي توفره إدارة السجن، وهو رديء أصلا، ولكن ازدادت رداءته مثلما تناقصت كمّياته. لقد أمضيت عشرة أشهر في السجن خلال الحرب، وكان فطوري كل يوم ما يعادل ملعقة ونصف من اللبنة مع نصف خيارة أو نصف حبة بندورة. في أحيان متفرقة كانوا يوزعون حبة فلفل حلو واحدة يتقاسمها ثلاثة أسرى، وفي يوم السبت فقط يصبح الفطور مكونا من شريحتي جبنة صفراء وعلبة لبن صغيرة لكل أسير إضافة إلى عدد من حبات الزيتون، أما الغداء والعشاء فيتكونان من صحنين من الأرز للغرفة ومثلهما من الشوربة (حمص حب، عدس، فاصولياء) وصحن من الخضار؛ إما أن يكون ملفوفا أو شمندر أو فلفل حلو، وهذا كله لزنزانة يقبع فيها نحو عشرة أسرى، أحيانا أكثر وأحيانا أقل، وهذا يتبع للتنقلات التي كانت تجريها إدارة السجون. وخلال خمسة أيام من الأسبوع، تُوزع بيضة لكل أسير خلال وجبة العشاء.

ولكن الكمّية ليست وحدها المعضلة، بل نوعية الطعام أيضا؛ فالأرز حين يصل لا يكون ناضجا، خصوصا في مجدّو، أما الشوربات فتخلو تماما من الملح. كذلك مُنِع عن الأسرى أي مشروب ساخن، ومُنعت الفاكهة قطعا، إضافة إلى الحلويات وأي صنف يشتمل على سكر. هكذا ومع مرور الأشهر بت ألحظ على نفسي وعلى الأسرى عموما عدم القدرة على المشي وعلى الحركة بحيوية ونشاط؛ إذ كنا في الساعة التي يُسمَح لنا فيها بالخروج من الغرفة للاستحمام، نستغل الفرصة في ساحة القسم ونمشي في جزء من الساحة التي يُسمح لنا بالمشي فيها، ولكن أضحى الواحد منا غير قادر حتى على ذلك.

وصار التندّر سائدا بيننا فيما يخصّ الأوزان؛ ذلك أن ملامحنا كانت تتغير بسرعة بسبب هبوط الوزن، وقد خسر الأسرى عشرات الكيلوغرامات من

أوزانهم، وهنا أتحدث عن معظم من عشت معهم في سجن شطّة، لم يمر عليّ أسير لم يخسر من وزنه؛ فبعض الأسرى خسر 20 كيلوغراما وآخرون 30، أما أنا فهبط وزني نحو 37 كيلوغراما، وقد عانيت وما أزال جراء ذلك.

مجموع هذه الظروف من الضعف الجسديّ مع قلة الغذاء الجيد وسوء أوضاع الغرف وعدم تنظيفها، خلَقَ بيئة لانتشار الأمراض بين الأسرى؛ فقد انتشر مرض السكابيوس (الجرب)[16]، وعرّضني ذلك لخطر ضاعف من مأساة السجن.

ففي منتصف شهر تموز/يوليو مع ارتفاع درجات الحرارة، أصيب أحد الأسرى في الغرفة التي كنت فيها (وهي الغرفة رقم 3 في القسم 7 في سجن شطّة) بحكة لا تفارقه على مدار الوقت، ثم بدأ ظهور نتوءات على أنحاء جسده، وما إن انقضت ثلاثة أيام حتى أصيبت معظم الغرفة بالأعراض ذاتها. تحدثنا مع السجانين وقالوا إنهم سوف يحضرون الطبيب، ولكنهم فرضوا علينا إغلاقا ومنعوا احتكاكنا بالأسرى الآخرين، ولكن الطبيب حضر بعد بضعة أيام، وتحدث معنا من بعد من دون معاينة لأجسادنا، في دليل جديد على عدم إقامتهم أي اعتبار لقيمتها، إلا فيما قد يؤثّر عليهم على المستوى العمليّاتي. وصلتنا من إدارة السجن مراهم لمواجهة الحالة بعد أن رجّح طبيب السجن الذي تحدث معنا -عن بعد- أن تكون الأعراض هي ذاتها أعراض مرض السكابيوس. مع ذلك، سمحوا لنا بالاستحمام في المكان نفسه الذي يستحم فيه بقية الأسرى من بقية الغرف، رغم خطورة انتشار المرض.

---

[16] مرض الجرب –سكابيوس- وينتشر بشكل واسع بين الأسرى الفلسطينيين في كافة سجون الاحتلال، نتيجة جملة إجراءات عقابية فرضتها إدارة السجون الإسرائيلية منذ السابع من أكتوبر 2023. تشمل هذه الإجراءات الحرمان من أبسط الحقوق الإنسانية، مثل الحق في الاستحمام والحصول على المياه، إضافة إلى سحب كافة مستلزمات النظافة الشخصية، وعدم السماح للأسرى بالحلاقة، وحرمانهم من اقتناء الملابس.

الضرب ومزيد من الضرب

لعل أسوأ ما في سجون الاحتلال فترة الحرب التي أمضيت فيها عشرة أشهر هو ضرب الأسرى والاعتداء عليهم وشتمهم المتواصل، ودونما مسوّغ أو ذنب أو مخالفة لقوانين السجن. ومثل ذلك قسوة وإمعانا في الإهانة ينطبق على سلوك الاحتلال في مداهمة الغرف أو الزنازين وزرع هاجس مداهمتها لدى الأسرى في أي وقت؛ لمضاعفة العذاب الواقع عليهم وإنهاكهم نفسيا إلى أبعد مستوى ممكن. وقد حصل فعلا أن اقتحم السجانون غرفنا وخربوها وقيدونا في كل الأوقات التي نتوقعها ولا نتوقعها؛ صباحا، ومساء، وفجرا، وفي منتصف الليل، وفي أوقات الفطور في شهر رمضان، وخلال قيام ليلة القدر، وفي أيام الجمع. لم يكن ثمة شيء يحول دون ذلك في غُرف السجّان الإسرائيلي بعد السابع من أكتوبر.

لقد كانت من أقسى اللحظات التي عشتها وأنا أضطر إلى الاستماع لأصوات أسير يصرخ وهو يتعرض للضرب المبرح. تتكرر تلك الأصوات في ذهني، أسمعها قادمة من الغرفة 3، ومرّة من الغرفة 1؛ حيث اقتحمت وحدة من وحدات القمع وبدؤوا ضرب الأسرى وكانت الغرفة فيها كبار سن. في واحدة من تلك المداهمات كُسرت إحدى أضلاع الأسير عبد الله البرغوثي، وكُسر أنف الأسير ليلي أبو رجيلة[17]، وكلاهما من الأسرى المحكومين بالمؤبد.

---

[17] اعتقل الأسير ليلي أبو رجيلة عام 2006 وحكم بالسجن المؤبد. حرمته سلطات الاحتلال من رؤية ابنه الرضيع "أيّوب"، كما منعت الابن من اللقاء بأبيه رغم المحاولات المتكرّرة. اعتقل الابن أيضاً عام 2021، وفي العام التالي سمح له الاحتلال بلقاء بأبيه داخل السجن. وثّق ليلي أبو رجيلة ذلك اللقاء في شهادة نقلها إلى محاميته فقال:
"التقيت ابني أيوب بزنزانة في سجن "الجلمة"، سمعت دقات قلب ابني لأول مرة في حياتي، ألبسته جواربه، أطعمته بيدي، نمت بجانبه، شربنا شاياً سوية ولأول مرة بحياتي.. قطفت ثمرة 17 عاماً بهذا اللقاء.. كان أيّوب أجمل مما حلمت، شاب لطيف، هادئ واع، كلامه حلو، فعندما اعتقلت كان عمره 25 يوماً، عاش بعيداً عن أبيه وأنا بعيداً عنه، هو يبحث عن أبيه وأنا أبحث عن ابني... وصلت قبله فقمت بتنظيف الزنزانة وعند الساعة 11:30 فتح الباب، دخل وحضنني بقوة ورفعني عن الأرض وهذا كسر حاجز 17 عاماً مضت، حاولت ان لا أُضيّع ولا دقيقة، فتحدثنا طوال الليل وعندما تعب سمحت له بالنوم 3 ساعات وأنا بقيت بجانبه اتأمل ملامحه، وعندما أيقظته ركب على ظهري كالطفل.. الساعة الثامنة والثلث صباحاً فُتح باب الزنزانة وجاء الضابط ليعلمني أنهم جاءوا لأخذ أيوب، اختفى من أمامي وشعرت أنهم انتزعوا قطعة من قلبي وأخذوه... لقاء انتظرته 17 عاماً ليُختزل بـ 20 ساعة فقط".

كذلك الخروج لجلسات المحاكم لم يكن بالأمر السهل؛ كنت قد ذكرت أن مجرد الخروج من القِسم يعني رجحان احتمال التعرض للضرب، وهذا ما حصل معي في إحدى جلسات المحاكمة، وتحديدا في 25 نيسان/ أبريل 2024.

خرجت بأمر السجان من أجل حضور جلسة محكمة، وحينئذ كان الاحتلال قد جدد اعتقالي الإداري بعد انتهاء الشهور الستة الأولى، بواقع أربعة أشهر جديدة. بعد كل تجديد من المفترض أن تُعرض على المحكمة، محكمة التثبيت، أي تثبيت حكم الإداري الذي يصدره ضابط منطقتك في مخابرات الاحتلال الإسرائيلي. خرجت من غرفتي يومئذ وقيدوا يديّ من الخلف وعصبوا عيني طبعا، كذلك قيدوا قدميّ. وعند وصولي إلى الغرفة التي تقع على مقربة من قسمنا (القسم 7) أدخلني السجانون وفكوا العصابة عن عينيّ، وأبقوا على يديّ مقيدتين إلى الخلف وكذلك أبقوا على تقييد قدميّ، ثم أُجلست على كرسي أمام شاشة حاسوب. تحدثت عبر الفيديو مع المحامي وكان في محكمة عوفر، فأخبرني بتجديد اعتقالي لمدة أربعة أشهر بعد قضائي ستة أشهر، وطلب مني أن أتحدث وأعلق على قرار التجديد، فقلت فورا إني أعمل في مجال الصحافة ولا أعلم الذنب الذي اقترفته كي أدخل السجن رغم عدم وجود تهمة واضحة ولا أدلة تسوّغ استمرار اعتقالي، وقلت إن ذلك ظلم كبير يقع علي وعلى غيري. تلك الجلسة لم تستغرق سوى دقيقتين، نقل إليّ فيها المحامي سلاما من زوجتي ووالديّ وأخبرني أن عائلتي بخير وأنها تريد الاطمئنان عليّ خصوصا بعد ورود أنباء عن كسور في يديّ. نفيت ذلك الخبر للمحامي وقلت له "طمئن الأهل وأنا بخير ومعنوياتي عالية"، وعند ذلك انتهت الجلسة. عصَب السجان عيني مجددا واقتادني إلى القسم، وعندما دخلت إلى القسم فإذا بوحدة من وحدات السجن تفتش غرفة رقم 8 في القسم وتعتدي على من فيها من أسرى، وسرعان ما جاء ضابط تلك الوحدة واقترب مني وضربني على وجهي، ثم جاء أحد السجانين وهو مقنّع وبدأ يضربني على رأسي وعلى

رقبتي بيديه وبرجله على أنحاء جسدي. بعد تلك الجولة من الضرب فكوا العصابة عن عيني ودفعوني بقوة داخل غرفتي.

قبل تحرري بيوم تحدثت مع عدد من الأسرى أصحاب المؤبد بشأن رسائلهم لذويهم، فلا يوجد وسائل تواصل مع الأهل طيلة فترة الحرب إلا ما ندر، وحرية أحد الأسرى كانت فرصة للأسرى لإيصال رسائلهم لعائلاتهم. بعض الأسرى كلفني بتقبيل ابنه الوحيد والقول له إن هذه القبل نيابة عن والدك، وبعض الأسرى كلفني بنقل رسالة لزوجته مفادها أن تشتري لابن أحد الشهداء من أقاربه هدية معتبرة وأن تقدمها له نيابة عن الأسير المحكوم بالمؤبد. آخر طلب مني أن أبارك لوالده بعودته سالما من الحج وأن أبارك لشقيقه الذي نجح في الثانوية العامة، وأسير آخر طلب أن أبارك لشقيقته التي عقدت قرانها في أثناء وجوده في السجن. أحد الأسرى- وهو من الأسرى الجدد لكنه حُكم بالمؤبد- لم يكن طلبه سوى أن أبلغ والدته بأنه أتم حفظ جزء عمّ وأنّه أتم دورة في أحكام تجويد القرآن الكريم، وآخر أراد أن ينقل وصية لأبنائه بالحفاظ على جدهم ورعايته. رسائل بسيطة وأمنيات طيّبة، أثارت في نفسي كثيرا من الأسى والحزن لحجم المأساة والحالة التي وصل إليها الأسرى في سجون الاحتلال، خصوصا بعد السابع من أكتوبر.

أحد الأسرى في السجن ظلّ يقول، محقا، إنّه من لم يعتقل في سجون الاحتلال خلال الحرب هذه، فلا يقل إنه اعتقل في سجون الاحتلال، وذلك للدلالة على مدى التغيّر في وحشيّة السجن خلال هذه الأشهر. ما ينطبق على الأسرى انطبق على الصحفيّ، وربما أكثر. فمن لم يغطّ فلسطين صحفيا خلال هذه الحرب المدفوعة بالإبادة، فيصعب أن يُقَال إنّه قد غطّى فلسطين!



عبء الشهادة الصحفيّة في زمن الإبادة

مرح الوادية



مرح الوادية

صحفية فلسطينية من قطاع غزة، تعمل في غرفة الأخبار الرقمية بشبكة الجزيرة، مسؤولةً عن منصات «الجزيرة فلسطين» ومنتجة للقصص الإنسانية المصورة والمكتوبة لصالح عدد من المواقع العربية.

15

عبء الشهادة الصحفيّة في زمن الإبادة

مرح الوادية

كانت ليلة دامية، لا تشبه الصبح أبدا، بل لا تمت بصلة لأشعة الشمس التي تسللت عبر النافذة عنوة، لتخبرنا أننا ها هنا أحياء في يوم جديد من أيام الحرب على غزة.

على الفرشة الرقيقة المهترئة التي لا يزيد عرضها على 80 سنتيمترا، سمعتُ طقطقة عظامي، قلبتُ جسدي إلى الجهة الثانية حيث وجه طفلي عمر ابن الأربع سنوات، وهو غارق في النوم بعد أهوال "القيامة" التي عاشها على وقع القصف الذي هزّ المنطقة.

يشاركني عمر هذه الفرشة منذ أشهر؛ فالبيت الذي نزحتُ إليه برفقة زوجي، احتمل معنا عددا آخر من أفراد العائلة، وكلنا كنا معا ننشد الأمان، أو نفكّر بأننا إذا متنا، فسنموت معا.

لأول مرة أنظر إلى المرآة منذ وقت طويل. لقد فقدتُ 12 كيلوجراما من وزني على الأقل، وبدا وجهي شاحبا ملأته البثور، وتسلطت عليّ الشمس لتحرق جلدي: من يهتم بالشكل في هذه الظرفية، وأنا أتأمل في وجع الآخرين وقهرهم؟

الناس في غزة يُقدّرون كثيرا عملنا نحن الصحفيين، يقولون إننا "فرسان الحقيقة"، وبعضهم يصفنا بـ"الجنود في أرض المعركة"! تشكل هذه الشهادات

عبئا أكثر منها "إطراء"، ولا سيما أننا نفقد كل يوم زميلا أو زميلة بقصفٍ إسرائيلي مباشر وغير مباشر، داخل مواقع التغطية وفي المنازل وفي سيارات البث والخيام.

في زمن الإبادة، لم تستهدف إسرائيل المكاتب الصحفية فحسب، بل منعت دخول الصحفيين الأجانب، منعت دخول المعدات اللازمة للعمل من أدوات تصوير ومعدات سلامة مهنية، ثم نجد أنفسنا في مواجهة أمر الخيارات: الاستمرار بلا شارات صحافة، بلا خوذ وبلا دروع، بلا حقوق يتغنى بها العالم ونحن الذين تأكدنا تماما أنها شعارات تتردد في زمن سلطة الأقوى.

بالمناسبة، ماذا فعل القانون الدولي لشيرين أبو عاقلة التي اغتيلت بدم بارد قبل هذه الحرب بأشهر طويلة؟ ماذا فعل لياسر مرتجى الذي قُنص في مسيرات العودة قبل أعوام؟ هل نعوّل على أن يفعل شيئا لرشدي السرّاج وإسماعيل الغول هذه المرة؟ بالتأكيد لا.

في ظل الإبادة، تحول الصحفيون الفلسطينيون من العمل في مكاتب إلى نصب الخيام بوصفها غرف تحرير بديلة. هواتفنا أصبحت كاميراتنا المفضلة، ومن كان يملك سيارة، تركها منذورة للغبار أو بين ركام الحرب بسبب انقطاع الوقود. الآن، نتنقل بعربات تجرها الدواب أو في سيارات أجرة تعمل على زيت الطهي، الذي تكدس دخانه في صدورنا. ملابسنا مشبعة برائحة الجثث، وآذاننا مثقلة بصراخ المفجوعين. كم مرة صبّ من فقدوا أحباءهم غضبهم علينا، يسألوننا "أين العالم؟" ونحن نتمتم بمرارة "عار على العالم."

نحن لسنا قادمين من كوكب آخر، بل نعيش المعاناة ذاتها. نموت كما يموتون، نعاني من الجوع وفقدان الوزن، وملابسنا فضفاضة لأن لا بدائل لدينا. ومع ذلك، نستمر؛ لأن كشف الحقيقة هو رسالتنا وواجبنا.

يشيّع الناس شهداءهم وموتى الأمراض المختلفة بين جنبات الحصار الإسرائيلي المطبق، بينما نسير نحن أمامهم نرفع عدساتنا، ونشيع مئات الجنازات التي تُدفن في قلوبنا، نكتم أوجاعنا وندوس عليها؛ فلا فرصة للانهيار، والأحداث جنونية ومتلاحقة.

في بداية الحرب، اعتقدت أنني محظوظة لأنني غادرت منزلي أحمل معداتي ومعدات زوجي، مستعدة لتوثيق كل ما يحدث، ولكن سرعان ما تحول هذا الشعور إلى لعنة. كل يوم، يخونني الميكروفون! بعد كل قصة إنسانية أرويها، قصة حياة دمرتها مجازر إسرائيل، وكلما شعرت أنني منحت هذه القصة صوتا يستحقه، كأن الهاتف نفسه يصرخ في وجهي: "كفى! كيف تحتملين كل هذا الألم؟ "وعندما أنتهي وأراجع التسجيل، أصطدم بالحقيقة المرة: مقابلة تجاوزت الساعة، وضاع فيها الصوت... خذلني الميكروفون مرة أخرى، كأنه يتآمر مع الواقع القاسي لإسكات الحقيقة!

كان الميكروفون يبدو ممتازا في التجربة، وكذلك في البداية، لكنه يقطع الصوت عن صاحبه في المنتصف. حين تكون الشخصية قد اندمجت، وعشت معها أصغر التفاصيل أسأل: هل من مانع لإعادة تسجيل القصة؟ بعضهم يتفهّم، وآخرون يقبلون على مضض، وبعضهم يؤجلونه إلى يوم لاحق. أتفهم ذلك وأنا أشعر بخجل كبير، ثم احتراما للمشاعر التي أرفض أن تكون لمجرد إنجاز مادة، أنسحب بهدوءٍ لمن أشعر أنه ليس بمقدورهم الإعادة.

تكرر الأمر مرات عديدة، وكنت أجد نفسي في كل مرة أقاوم رغبة عارمة في تحطيم الميكروفون على الأرض من شدة غضبي، ولكنه العوز. هذا العوز الذي جعلني "أطبطب" على ميكروفون لا تتجاوز قيمته 30 دولارا، متمسكة به كي أستمر في عملي؛ فلا معدات متاحة، ولا بدائل، ولا مجال للاستسلام. كان هو الأداة الوحيدة بين يدي، وكنت أُقنع نفسي بالصبر.. ومزيد من الصبر.

أتساءل بيني وبين نفسي دائما: كيف كنت أصل أنا وزوجي المصور الصحفي أنس أبو دية إلى كل مواقع التصوير التي عملنا بها في جنوب قطاع غزة؟! في البريج، والنصيرات، ودير البلح، والقرارة، وبني سهيلا، وخزاعة، وعبسان، و"ميراج"، ورفح، وفي أحياء الجنينة والشابورة وحي تل السلطان!

كيف سرنا تحت المطر حين لم يكن بإمكاننا توفير مظلة، وحتى إن توفرت فهل ستحمينا من المطر الغزير في مدينةٍ تفتح أبواب سمائها رحبة لاستقبال الأرواح وهدير الطائرات؟ كم أكره الطائرات ومخترعها.

في أثناء حرب الإبادة، حاولت الدوس على كل ما يسعى لسحقنا، لم أعد أخاف من أن أدعس على قذيفة لم تنفجر هنا أو هناك، ولكنني اكتشفت أن هذه الشجاعة ليست "كلام في لحظة أسى". عندما لاحقتنا طائرة "كواد كابتر" في الساعات الأولى من انسحاب الجيش الإسرائيلي من مدينة خانيونس، في الأسبوع الأول من أبريل/ نيسان لعام 2024، بعد اجتياح بري، وعمليات قتال استمرت أربعة أشهر متواصلة، اكتشفتُ هذه الحقيقة.

خانيونس، كيف يمكن أن نصف ما حلّ بها؟ هل نقول إن زلزالا ضربها؟ سيكون في ذلك ظلم للطبيعة حتى في أقسى لحظات غضبها! إسرائيل فعلت أكثر من ذلك. كان المشهد في المدينة مرعبا، ثقيلا على القلب والعين. خلت الشوارع من البشر تماما، بينما كانت بعض الجثث المتحللة ملقاة على الأرض، ولم يسلم منزل واحد –من دون أدنى مبالغة– من القصف. القصف بدا وكأنه فعل انتقامي أعمى، جنوني، لا يمت بصلة لأي حديث عن "أهداف عسكرية" كما تدّعي إسرائيل دائما.

كنا ثلاثة، أنا وأنس والسائق الذي تعرفنا إليه صدفة وشجعنا على الدخول إلى المنطقة. نزلنا من السيارة، نستكشف المكان الذي ظننا أننا لم ندخله في حياتنا

من شدة التدمير، رفعنا هواتفنا لنوثق المشاهد، حتى باغتتنا طائرة مسيّرة أطلقت نيرانها صوبنا. لم نعرف وجهة للركض، كل واحد منّا ركض باتجاه مختلف حتى ابتعدَت، ثم عدنا إلى منطقة نسميها تجاوزا "آمنة"، بعد أن لمحنا أناسا بها.

وجدنا أسرة تحاول لملمة ما تستطيع انتزاعه من تحت ركام منزلها، سرنا نحوها وبادلنا بعض النساء التحية. وبعد الاطمئنان عليهن، سألتُ إحداهن إذا ما كانت توافق على إجراء مقابلة صحفية ولكنها رفضت، قالت لي حرفيا: "حوصرنا في هذا المنزل من قبل الجيش لأيام، ناشدنا العالم كله، ناشدنا الصليب الأحمر وكل المؤسسات الإغاثية، ناشدنا الصحفيين وكل وسائل الإعلام، لم نر منكم أحدا لينقذنا! خرجنا بمعجزة، من لم يكن معنا حينئذ لا نريده اليوم. مرحبا بك بكل صفاتك، إلا بصفتك صحفية! لا أهلا ولا سهلا، لا بالصحفيين ولا بكل العاملين في مجال الإغاثة أيضا".

شعرت بالعجز، فوق الضغط الذي يجثم على قلبي. اكتفيتُ بالصمت، فلا معنى للكلام هنا، ثم انسحبت بهدوء. أذكرها في كل يوم تصلنا فيه مناشدات من عائلات محاصرة، أحمل ذنبها ويعود العجز ليدفن نفسه في قلبي مجددا، كيف صرتَ مقبرة جماعية يا قلبي؟ أتساءل دائما.

وللمسيّرات "الكواد كابتر" قصة أخرى؛ أذكر ليلة من ليالي الغارات العنيفة على خانيونس، حين كنت في مرحلة نزوح قد تكون "الرابعة". شعرت أن التعب قد أسقطني على الأرض رغما عني، وغفوت لنصف ساعة، ثم استيقظت على صوت أكثر رعبا: هواء عاصف طار بالستارة وكشف عورة النافذة التي تحطم زجاجها بفعل القصف العنيف. وفي تلك اللحظة، رأيتها، المسيّرة التي كانت تراقب المنزل، تدور حوله كوحش مفترس. كانت تُصدر أصواتا مرعبة أفزعتنا

جميعا. اعتلتني رغبة جامحة في التقاط صورة لها، ولكنني كنتُ أدرك تماما أن هذه اللحظة قد تكون -على الأغلب- آخر لحظات حياتي.

في المنزل المقابل، كان زوجي ومعه رجال آخرون من العائلة نفسها يفترشون الأرض على السطح ويلتحفون السماء، بعد أن تركوا الشقة لنا نتدبر فيها أمرنا نحن النساء. مرَّ غراب الموت من فوقهم، ونعق! تلك المُسيّرة وجدت أجسادا مستلقية، كلهم أغمضوا عيونهم، ونطقوا الشهادتين. أخبرني زوجي أنهم تظاهروا بأنهم جثث، حتى مضت في طريقها تبعثر الموت في بقعة أخرى.
في اليوم التالي، روينا ما حدث لزملائنا الذين كانوا ينامون بالخيام، شاركونا تجاربهم وفزعهم، أحدهم قال إنها "زارت" منزل عائلته وأجرت جولة فيه بينما هم ممدّدون على الأرض حتى غادرت، وإحداهن قالت إن أطفالها لاموها لأنها صحفية ظنّا منهم أنها تبحث عن الصحفيين لقتلهم "فهم الذين يفضحون ما تفعل إسرائيل"!، وكأن إسرائيل باتت تأبه أصلا بهذه "الفضائح"! علّقتُ بسخرية حينئذ.

في خيمة الصحفيات التي أقامتها مؤسسة "فلسطينيات" حيث تستقر صديقتي وزميلتي شروق شاهين، مراسلة تلفزيون سوريا، كنت أجد ملجئي، ليس للبكاء، بل لمشاركة الحزن -وإن كنا أغلب الأوقات– نأوي إلى الصمت.

نعرف بعضنا جيدا. لم يكن هناك داع للحديث ونحن الغارقتان في مآسي الناس جراء التغطية. نتذكر سلسبيل وملاك ومحمد وصابرين، أبطال قصصنا وضحايا الإبادة.

نكسر الصمت أحيانا بذكرى أكل نظيف تناولناه في غزة، منازلنا ورائحة ملابسنا. نضحك على أشكالنا وملامح البؤس التي رُسمت على وجوهنا، ونؤكد أننا لم نعد نأبه.

نحكي عن "الفرص" في الحرب، كيف تُنتَزع الفرص؟ كيف صار من السهل على أي إنسان زيادة عدد متابعيه؟! كيف يلهث بعضهم من أجل حسابه الشخصي على حساب جودة المواد الإعلامية ودماء الضحايا؟! كيف صار عدد المتابعين "يرفع" من قدر الصحفي ويمنح له فرصة قد يستحقها غيره؟! هذه أيضا -يا للأسف- صارت تقاس بمستوى "بطولي"، حتى وإن كانت المنشورات تتنافى تماما مع ما صرعونا به على مدار عقود وسموه بـ"أخلاقيات العمل الإعلامي".

كنا في يوم حافلٍ من تغطية القصص الإنسانية في مخيمات النزوح، عدتُ وزوجي أنس منهكينِ ولم نستطع الوصول إلى خيمة الجزيرة من أجل رفع المواد المصورة وإرسالها للمونتاج. قررنا العودة إلى المنزل، وهنا استغرق منا الأمر نحو ساعتين بسبب عدم توفر المواصلات في غزة، تجعل الحرب الصحفي يتقبل فكرة أنه ليس من الضروري أن يكون على دراية بكل ما يحدث حوله، حتى وإن كان قريبا من الأحداث. عندما تقطع إسرائيل الاتصالات والإنترنت، يصبح من المستحيل معرفة مواقع الضربات التي نسمعها إلا صدفة. وأحيانا، نكتشف بعد فوات الأوان أن تلك الضربات كانت تستهدف قلوبنا. مثلا، عندما علمتُ باستشهاد الزميل سامر أبو دقة، مصور قناة الجزيرة، في الخامس عشر من ديسمبر/ كانون الأول 2023، كان ذلك بمحض الصدفة.

عبر شاشة تلفزيون صغيرة في ركن شارع، كان ضوؤها ساطعا وسط عتمة مريبة جراء انقطاع الكهرباء، كُتب الخبر في الشريط الأحمر الذي بدا واضحا وضوح الشمس: استشهاد الزميل سامر أبو دقة وإصابة مراسل قناة الجزيرة وائل الدحدوح.

فركتُ عيني وظننت بأني أعاني من غباش بسبب المشي بين ركام المنازل ودخان القصف، رغم وضوح الصورة، تجمدت أطرافي وقرأت الخبر مرارا وأنا أشهق لدرجة أن بعض الرجال من حولنا ظنوا أنه فرد من عائلتي.

لم أبك. دموعي كانت قد جفّت، قلبي مفطور من الألم، ولكنني في هذه المرة لم أُجد التعبير، حتى أنت يا سامر؟ حتى أنت قتلوك! الوسيم المحب للحياة، الذي كان يحلم بلقاء أسرته خارج البلاد، قتلته إسرائيل أمام أعين العالم كله، بينما تصر الجزيرة على أن تواصل رسالتها.

كل نصوص "الثناء" التي تنشر تقديرا لجهود الصحفيين والصحفيات العاملين والعاملات في حرب الإبادة التي تشنها إسرائيل على قطاع غزة، "بائسة" -بنظري أنا على الأقل- في وقتٍ لم تعد الكلمة فيه تساوي شيئا بقدر احتياجنا إلى الفعل! بقدر احتياجنا لمقومات استمرار التغطية والمواصلة، بحاجة إلى المعدات، بحاجة إلى الملابس، بحاجة إلى "الكوبونات" التي تصلنا بعد جهود مضنية ووقوف في طوابير طويلة وإذلال.

"في الفقد، نعجز عن مواساة بعضنا. ندور حول أنفسنا وكأن الشيب قد غزا شعورنا، نتأمل السماء في صمت إلى أن يباغتنا سؤال من عابري الطريق الذين يعرفون أننا صحفيون: "مطولة الحرب؟ إيش الأخبار عندكم؟". خصوصا أولئك الذين يسكنون الخيام المحيطة بخيام الصحفيين، يتجمعون حولنا في محاولة لانتزاع الأخبار التي تُبث للعالم، وهم الأكثر اهتماما بها؛ فليس لديهم شاشات أو راديو أو إنترنت، فيصبح كل ما يهمهم هو أن يعرفوا ماذا يحدث.
في الحقيقة، لم يكن "الثناء" الذي تلقيناه منذ بدء الحرب سوى ضربات قاسية تدفعنا إلى تقبل ما يحدث. لم يرَ العالم فينا سوى أدوات تُستخدم لتلبية متطلبات التغطية، رغم إيماننا العميق برسالتنا. ورغم أن العالم يصفق لجهودنا ويروّج لقصصنا، فإنه توقع منا أن نتولى الأمور الأخرى جميعها: البحث عن الطعام، والعثور على خيام تحمينا، وتأمين الملابس والأحذية، وجمع الحطب لإشعال النار وإعداد الطعام. وهذا ما جعلنا أول من يستيقظ وآخر من ينام، نواصل العمل في صمت ومرارة.



الفاعلية الثقافية في مواجهة الإبادة الجذرية

حمزة العقرباوي



حمزة العقرباوي

صحفي فلسطيني من الضفة الغربية وباحث مختصّ بالتراث الشعبي والذاكرة الوطنية الفلسطينية. كتب للعديد من المواقع والمجلّات العربية، من بينها مجلة "الدراسات الفلسطينية" وموقع "الجزيرة نت" و"ألترا فلسطين" و"متراس".

16

الفاعلية الثقافية
في مواجهة الإبادة الجذرية

حمزة العقرباوي

فرضت حرب الإبادة الجذرية التي يتعرض لها المجتمع الفلسطيني بشكل مكثف منذ السابع من أكتوبر 2023 وخصوصا في قطاع غزة، دورا جديدا ملقى على عاتق الفاعلين والمتتبعين للحالة الفلسطينية تغطية إعلامية ورصدا وتوثيقا؛ فما يحدُث من توحش استعماري غير مسبوق، يُحدِث تغييرا جوهريا في طبيعة المجتمع ويخرّب بنيته ويصدّع أسس استقراره، وحين يردم الماضي ويخرب الحاضر، سيترتب على ذلك تغيير في شكل المجتمع وطبيعة مستقبله.

لذا، كنت كاتبا صحفيا وفاعلا ثقافيا يهتم بتوثيق إرث فلسطين وحكاية شعبها وهويتهم التراثية، أمام أحداث كبيرة تجري كل يوم بل كل لحظة، الأمر الذي لا يمكن التعامل معه من منطق العمل المعتاد الذي نبدأ من خلاله التوثيق وجمع الحكايات بعد انتهاء الحرب؛ فتسارع الأحداث وضخامتها دفعانا إلى العمل من اللحظة الأولى في توثيق جزئي للإحاطة بالحد الأدنى من حكايات الناس وقصصهم اليومية، وهو توثيق لم يكن بهدف الأرشفة والمَتحَفة، ولكن كان إجابة عن تساؤل ذاتي: أين علي أن أكون في هذه المعركة؟ وما الدور الذي يمكنني أن أقدمه في حرب مفصلية في تاريخ قضيتنا؟!

غزة: المتابعة والتوثيق اليومي

خلال الشهور الأولى من حرب الإبادة، كان علي -بوصفي مهتما بالتوثيق والأرشفة- أن أتتبع يوميا عدة عناوين ترد في وسائل الإعلام بحكم أني مقيم في الضفة الغربية، وأشاهد المجزرة المفتوحة في غزة وأتابعها عبر الوسائل الإعلامية، سواء أكانت مرئية كالجزيرة أو عبر منصات التواصل الاجتماعي التي ينشط عليها صحفيون وناشطون من غزة ينقلون الأحداث أولا بأول. ولأنني لا أعمل في مجال التغطية الصحفية العاجلة، ولا أريد أن أعيد نقل ما يتم تغطيته وبثه، فقد كان تركيزي في المتابعة والتوثيق مختلفا نوعا ما؛ فقد كنت أبحث عن الحكاية داخل الخبر الصحفي، وأفتش عن القصة المباشرة المكثفة التي ترد في التغطية الإعلامية.

عن أي حكاية أبحث بين الركام والأشلاء في غزة؟

كان البث المتواصل للمجازر في غزة على ما فيه من وجع وألم وفقد ودماء غير مسبوق، يحمل شيئا من القصص الإنسانية والرسائل القوية التي تعبر عن حال أهل القطاع، وكانت تخرج من أفواه المكلومين والجرحى وذويهم كلمات وجمل مكثفة المعنى بليغة الدلالة بحجم ألمهم ووجعهم. ومن ذلك قول الإعلامي وائل الدحدوح حين وقف ينظر إلى ابنه الصغير وعائلته حين قتلتهم الغارة الصهيونية: "بنتقموا منا في الأولاد.. معلش"، ومثلها قول الشيخ لأحدهم: "تعيطش خليك زلة"، ومثله قول فتاة عن أمها الشهيدة: "هذي إمي بعرفها من شعرها"، ومئات الجمل التي أحدثت أثرا في نفس من سمعها.

كان خلف كل مشهد كنا نراه ونسمعه من غزة حكايات وقصص مجبولة من لحم ودم، وكان هناك إرث من التجارب والحياة قتله الاحتلال بغارة، وكان

علينا أن ننتبه لذلك كله ونوثقه ببساطته، أو أن نأخذه عمن وثقه من كتاب وأدباء وناشطين فصاغوه حكاية متكاملة، ولطالما استعنت بالزملاء في غزة الذين يفيضون علينا من بحر الحكايات المليئة بالألم كلما حاولنا الاطمئنان عليهم.

كان التوثيق القصصي هو محور العمل الذي بدأت به، ولكن الأمر فاق القدرة الذاتية على الإحاطة بكل شيء حتى مع وجود متطوعين يحولون لك الفيديوهات والمشاهد المصورة؛ لأن العمل على تخزينها وتفريغها وتصنيفها يحتاج وقتا وجهدا أنت لا تملكه، ثم إن حجم ما يُبَث من مشاهد من غزة هو أمر مهول وكثيف لأن الجرح واسع، والاستهداف كبير، والعدو لا يتوقف عن تعمد القتل، ثم لما ظهرت مبادرات متنوعة توثق قصص الشهداء وحكايات المفقودين وغير ذلك، صار تركيزنا على القصة أو الجملة مركزة المعنى، فجمعنا مئات القصص والأقوال التي تخدم فكرتنا من هذا التوثيق، وعليك أن تفعل هذا مع مواصلة عملك البحثي والميداني في الضفة.

هل كان هناك شيء غير القصص والحكايات يمكن توثيقه؟ في الفترة الأولى من الحرب كان هناك يوميا ذكرٌ لكثير من التفاصيل المهمة التي كان علي توثيقها ورصدها، وخصوصا ما يرد في سياق التغطيات الميدانية والمباشرة، وقد حاولت خلال تلك الفترة نشر بعض ما يُجمَع على كثرته، ومن ذلك الحديث عن الأسلحة والقذائف التي يستخدمها جيش الاحتلال في استهدافه للمدنيين الفلسطينيين ومنازلهم، كذلك كنا نحاول أن نفهم تشكيلات جيش الاحتلال ومفاهيمه من خلال ما يُنشَر ويُبَثّ في الإعلام، ولم نُغفِل رصد أسلحة المقاومة الفلسطينية وتسمياتها ودلالة كل تسمية، ولكن الفعل الأساسي الذي كان يحتاج إلى قضاء وقت أطول كان يهدف إلى رصد المصطلحات التي استُخدمت للدلالة على الفعل والفاعلية في المعارك والمواجهة، وحاولنا أيضا البحث عما

يمكن وصفه بأنه مادة أولية لمعجم الاشتباك والمواجهة، ولم نُغفِل البحث فيما يرد في الإعلام وعلى لسان الناس عن الدلالات الشعبية للنصر والهزيمة.

وضمن الاهتمام بالرموز الفلسطينية التي تأخذ حيزا وحضورا في الإعلام، تتبعنا الخطابات والتفاعل معها تعليقا وهتافا ونصا ونكتة، ومن هؤلاء الرموز كان أبو عبيدة الذي أسطَرَتْه الجماهير وهتفت له بوصفه أيقونة فلسطينية، وقد حاولنا طوال الوقت البحث عن جغرافية المعركة ودلالة المكان الذي يُتداول بالإعلام بصورة مكثفة، قبل أن تتسع الرقعة لتشمل فلسطين ولبنان.

ومن الأمور التي لم يكن بالإمكان إغفالها في هذه الحرب، حصار الناس وتجويعهم، والضغط عليهم في قوتهم وطعامهم دفعا لهم للنزوح والاستسلام، فقد عانى أهل قطاع غزة -شماله وجنوبه- حالة صعبة من قلة الطعام والغذاء والموارد، وصار البحث عن بدائل لدفع الموت عنهم وعن أطفالهم شاغلهم اليومي؛ لذا كان من المهم أن تكون هناك مقابلات تتعلق بتوثيق بدائل الأكل وطرق إعداده وابتكاره، الأمر الذي كان صعبا في بداية حرب التجويع، ولكننا من خلال مجموعة من الأصدقاء في غزة تمكنا من إجراء عشرات المقابلات والتسجيلات الصوتية والنصوص المكتوبة التي حرص الناس فيها على توثيق تجربتهم ومعاناتهم الشخصية، وكانت لهذه المقابلات أهمية بالغة لأنها تحدثت عن مطبخ قطاع غزة قبل الحرب باستفاضة وذكرت أطعمتهم ومذاقاتها، ثم كان الحديث عن وجعهم وجُوعِهم وتحديات البقاء طوال سنة كاملة من الحرب.

عين على الضفة

في الضفة الغربية تجري حرب إبادة صامتة منذ سنوات، ويشن المستعمرون حربهم التوسعية في سرقة الأراضي وإقامة البؤر الاستعمارية، ويهاجمون القرى

ويقتلون أهلها، ويقطعون الطرق للاعتداء على الفلسطينيين، وقد كثفوا فعلهم بعد السابع من أكتوبر مستغلين حرب الإبادة في غزة والغطاء الموفر للاعتداءات والسرقة. وفي ظل تقطيع الطرق بين البلدان والمدن بمئات الحواجز، وإغلاق كثير من الطرق الرئيسة ومداخل البلدات والقرى، كان من المهم عدم الغياب عن المشهد، ولا سيما أني أنتمي إلى بلدة عقربا الواقعة في الجنوب الشرقي من مدينة نابلس، وهذه المنطقة تشهد حالة دائمة من الاعتداءات والقتل الممنهج؛ فقد حُرِمنا من قطف الزيتون في الموسم الفائت في تشرين الأول- تشرين الثاني 2023، وكان علينا خوض تحديات للوصول إلى الأرض لحراثتها وفلاحتها، بعد أن أُغلِقت كل الطرق الزراعية في محيط البلدة، ولم يطل الأمر حتى بدأنا نشهد حرب المستعمرين في البؤر الرعوية التي أقيمت على أطراف البلدة، فصودرت آلاف الدونمات الرعوية والزراعية، خصوصا في منطقة شفا الغور من أراضي خربة الطويل، وقد وثقنا سلسلة هجمات واعتداءات دفعت بلدتنا وحدها ثمنها بالدم حين قدمت ثلاثة شهداء من أبنائها، وكان علينا متابعة ما يجري في القرى المحيطة بنا، مثل قريتي حوارة وقصرة جنوب نابلس اللتين نالهما النصيب الأكبر من الاعتداءات في هذه الحرب.

خلال هذه الفترة كان علي التنقل لإجراء مقابلات وتوثيق ميداني مع المزارعين والمواطنين في مناطق مختلفة من الضفة الغربية، وكان التنقل لأجل التوثيق يعني المخاطرة على الطرق المستباحة، وكذلك المخاطرة في مواقع العمل التي تتعرض للاعتداءات المتكررة باعتبارها مناطق (ج) وتسعى المنظومة الاستعمارية إلى إخلائها وطرد سكانها بالقوة؛ ففي خربة يانون مثلا كان المختار راشد مرار يطلب منا أن نزوره أيام السبت فقط، وألا نطيل المكوث عنده، وألا نتجول بين البيوت أو نحمل كاميرات تصوير؛ لأن ذلك سيترتب عليه بعد دقائق من مغادرتنا اقتحام المستوطنين للخربة والاعتداء عليهم، الأمر الذي شهدناه عدة مرات في السنوات السابقة.

كذلك كان لدي فعل مهم مرتبط بجوهر عملي في التغطية الثقافية ورصد الأحداث وتوثيقها، وهذا العمل التطوعي كان في مدينة رام الله خصوصا، حيث شهدت المدينة حالة تضامن فاعل مع قطاع غزة في بداية الحرب عبر مسيرات ومظاهرات رافضة للعدوان ومنددة به، ثم بدأت تتراجع لتصبح مظاهرات موسمية ومتعلقة بالمجازر وجرائم الاغتيال، وقد بدأتُ منذ اليوم الأول للحرب بتغطية هذه المسيرات وتسجيل هتافاتها صوتيا، مستعينا بعدد من المتطوعين من الموثقين الميدانيين، ثم تطوع آخرون لتوثيق بعض الهتافات في مدن الضفة الغربية كنابلس وطولكرم وجنين، وهو الأمر الذي نعمل عليه حتى اليوم، ونحاول من خلاله أخذ التغطية الصحفية من زاوية التوثيق لكون الهتافات "وثيقة تاريخية" مهمة، وفيها تفاصيل كثيرة مرتبطة بمجريات الحرب ورموزها وأحداثها.

من الميدان إلى المسرح

التوثيق والتغطية الثقافية عمل مهم وضروري بالنسبة لنا؛ لأن الذاكرة الحية هي سلاحنا الذي نواجه به سياسة المحو والإبادة الجذرية ومحاولات العدو سرقة التراث وانتزاع الوجود، وكما كان يقول الكاتب سلمان ناطور: "ستأكلنا الضباع إن بقينا بلا ذاكرة"، ولأجل ذلك أجهد نفسي بهذا التوثيق متتبعا حكايات الناس وقصصهم وتراثهم، ولكن التوثيق بالنسبة لي لا يعني المَتحَفة ولا التغطية الصحفية المجردة للحدث والمكان، وليس هذا هدفي الأساسي من كل هذا الجهد، إنما هي الخطوة الأولى في عملي؛ ذلك أنني أوظف هذا الجهد بصفتي فنانا يقدم عروضا محكية، وباحثا يكتب وينشر عن الذاكرة والتراث، ودليلا سياحيا يقود مجموعات شبابية للتجول في البلاد، وهذه الحكايات والقصص والتوثيقات سيستفيد منها كثر من المشتغلين بهذه الحقول؛ إذ تتاح لهم لتكون مرجعا معرفيا ومصدرا غنيا يثري

أداءهم ومحتواهم، لأنها حكايات الناس وقصصهم وتجاربهم وذاكرتهم عن بلادهم وهويتهم وتراثهم.

في بداية هذه السنة 2024 أنهيت دراسة عن الأغوار الشمالية بعنوان (وادي المالح: ذاكرة الإنسان والمكان)، وهذا العمل البحثي الذي قام على جهد ميداني بُنِي أساسا على حكايات الناس ورواياتهم للأماكن المهددة بالاقتلاع في ظل هذه الحرب المسعورة، وكنت أنهيت قبل نهاية العام الماضي 2023 كتابا طُبع عن تجمعات فلسطينية تواجه وحش الاستعمار (الصمود المقاوم: تجمعات فلسطينية في مواجهة البيئة القسرية للتهجير) اعتمدت به الأسلوب الميداني ذاته من البحث والجمع وإجراء المقابلات. ومن المؤسف أن بعض هذه التجمعات التي تناولتها بحثا وتوثيقا في مناطق مختلفة من الضفة الغربية (كوادي المالح في الأغوار الشمالية، ومسافر يطا جنوب الضفة الغربية، ووادي السيق والمعرجات بين رام الله وأريحا) قد تعرضت للتهجير والاقتلاع بعد السابع من أكتوبر ولم تعد قائمة اليوم، وهذا ما يجعل لما نقدّمه من جهد ميداني أهمية ملحة، إضافة إلى أنه يأخذ عملنا الصحفي نحو التركيز البحثي والمعرفي، ما يخلق سردية معرفية نحتاج إليها في مواجهة سردية استعمارية تروج لتاريخ هذه المناطق التي تُسرَق بقوة السلاح ثم تُخلَق لها حكاية توراتية.

لكن الفعل الأهم فيما نقدمه -من وجهة نظري- كان إعادة بعث الحياة حَكيا وسردا لما نجمعه ونوثقه من قصص وحكايات يرويها الناس عن ألمهم وفقدهم في ظل حرب مشرعة الأبواب حتى اليوم؛ فالتوثيق ورصد القصص وتجميعها من الميدان ومن خلال منصات التواصل الاجتماعي وعبر البث المباشر للفضائيات ينبغي ألا يصبح عملا متحفيا ننجزه ونكدسه ونراكمه، ولا يُستفاد منه غالبا على نحو حقيقي، وإنما علينا العمل لإعادة هذه القصص وردها إلى الحياة من جديد؛ لأنها حكاية متصلة ببقاء شعب وحياة أمة، وفيها

رسالة ومضمون متصلان بقضيتنا الحية، ولعل فيما قال الشهيد رفعت العرعير -رحمه الله- في قصيدته الشهيرة رسالة تبين معنى ما نفعله: "إذا كان لا بد أن أموت، فلا بد أن تعيش أنت، لتروي حكايتي.. إذا كان لا بد أن أموت، فليأت موتي بالأمل، وليصبح حكاية".

وهذا ما عملنا عليه بجدية طوال عام من الحرب؛ إذ تحولت عشرات القصص والحكايات التي التقطت من بطن الحرب إلى عروض فنية وحكايات يرويها ويقدمها حكواتيون وحكواتيات من الضفة الغربية ومن دول العالم العربي، وركزنا في كل العروض الفنية على تقديم حكايات جديدة تسرد وجع غزة وما تتعرض له من إبادة وتوحش استعماري، وفي بعض العروض (كعرضي عمان وبغداد) تحدثنا عن قصص لشهادات توثق تجربة اللجوء عام 1948 إلى قطاع غزة، وكان عنوان عرض عمان في شباط/فبراير 2024 "خير يا طير"، الذي اختُتم بقراءة نصوص من غزة تروي حكايات شهداء قتلتهم المجازر الصهيونية.

وفي خطوة متقدمة من العمل على هذه النصوص التي تجمع وتُوثّق من غزة، حاولت مع فريق شبكة حكايا العربي (الأردن- مصر- فلسطين) إتاحة هذه القصص للمجموعات التي نعمل على تدريبها على فن الحكي؛ إذ نجرب هذه الحكايات الاجتماعية والإنسانية المرتبطة بجرحنا الكبير في غزة، فتكون بديلا عن الحكايات التراثية التقليدية التي يقدمها الحكواتيون؛ لأن لهذه الحكايات رسالة معاصرة تهم المستمع العربي. وقد قدمنا تدريبات وورش عمل متميزة المشاركين ومتنوعة الخبرات، كان منها ورشة في رام الله في تموز- آب بعنوان: (أنا الحكاية) وفي عمان تموز/أيلول بعنوان: (فن الحكي)، وقد حملت التدريبات في قصصها رسالة البقاء والحياة التي تجدر بأهل غزة.

واستكمالا لعملية السرد والحكي، وفي ظل سياسة المحو والإبادة التي يسعى من خلالها الاحتلال لاغتيال الوجود الفلسطيني وتدمير هويته، عبر استهداف المؤسسات الثقافية والمكتبات والأرشيف، وتدمير المواقع الأثرية والتاريخية، واغتيال الباحثين والأكاديميين والنخب، كان علي أن أتعامل مع هذا الأرشيف مثلا، من منظور مختلف يتجاوز التغطية الصحفية، ولا سيما أن الاحتلال بهذا الفعل يستهدف التاريخ الحي، والتاريخ كما يقال: يُنسى أو ينسى معظمه إن لم يُحكَ؛ لذا انتقيت بعض النصوص من المذكرات، مثل "الشمس تولد من الجبل" للأسير موسى الشيخ، ومجموعة من الرسائل الشخصية من أرشيف علي شعث، وأخذت قصاصات وصورا متفرقة من أرشيفات عائلية (صور مقاتل) وحُوّلت إلى عروض محكية، قُدّم بعضها في عمان ورام الله ضمن أنشطة حكايا.

سباحة عكس التيار

"قتل وملاحقة.. منع واعتقال"، بهذا يمكن وصف المشهد للعاملين في الحقل الإعلامي والميداني بعمومه في فلسطين؛ فلا يخفى على أي متابع أن العدو يبذل جهده لإسكات الصورة الحية واللقطة المؤثرة التي تبث من قطاع غزة، أو التي تعبر عما يجري في فلسطين من جرائم وتوحش، وما استهداف الصحفيين واغتيالهم في غزة، وإغلاق مكاتب فضائية الجزيرة في القدس ورام الله، واعتقال الناشطين والصحفيين في الضفة، إلا جزء من هذه المحاولة الحثيثة لكتم الصوت ومنع الصورة، وليس ذلك إلا لأجل ارتكاب المجازر بصمت، ومنع نقلها إلى العالم الذي بدأ يتشكل فيه رأي واع منتبه لخطورة هذا الاحتلال وضرورة وقف مجازر الإبادة الجذرية في غزة.

هذه الملاحقة والمنع تحتم علينا -بصفتنا مشتغلين وفاعلين في الحقل الثقافي ونتقاطع مع العمل الإعلامي ولنا إسهام في المشهد الفني في فلسطين ونشارك في فعاليات عربية وعالمية- أن نسبح عكس التيار؛ لأنها سباحة لا بد منها، وأن نقف كتفا إلى كتف مع الزملاء الذين يقاتلون بعدساتهم هذا الوحش، لنكثف معنى الصورة والكلمة التي تُلتَقط من الميدان، فتكون عملا فنيا ونصا مرئيا ومقروءا، وأن توظف هذه التغطيات بما فيها من قصص وحكايات بالطرق والوسائط الفنية المتنوعة لتخدم رسالتنا وقضيتنا العادلة، وبهذا يكون للرسالة التي يُدفع ثمنها دما وعمرا أثرٌ أعمق وبعد أبقى. وهذا ما أحرص أن أفعله قدر المستطاع في هذه الحرب التي تتسع ويزداد معها الوجع والفقد ومقدار الواجب والجهد.

ومن الجدير الإشارة إلى أن هذا الجهد المتعلق بالتوثيق على مدار عام، كان مدخلا لمشاركتي في مؤتمرات أفسحت المجال لأوراق تتعلق بحرب غزة، كان منها مؤتمر: فلسطين تفكر، وقد قدمت فيه ورقة بعنوان: "الثقافة الشعبية وأنماط التفكير فلسطينيا"، والمشاركة الثانية هي في مؤتمر: بيت لحم الدولي الثاني "الآثار والتراث الثقافي الفلسطيني: نحو حفظ تراثنا من الاستحواذ والتدمير"، وورقتي التي قدمتها لهذا المؤتمر بعنوان: "المطبخ الغزي: ثقافة الطعام ودوره في حفظ الذاكرة وصياغة الهوية الوطنية". وهاتان الورقتان البحثيتان هما بالاعتماد على ما يُسجّل ويُوثّق من مشاهدات متصلة بالمجتمع في ظل الحرب.

وختاما يمكن القول إن هذه الحرب على توحشها وما فيها من وجع وفقد وألم، أعادت تعريف ذاتي وقدمتني في سياق المواجهة الطبيعية مع هذا المحتل؛ إذ لا معنى لوجودنا في هذه البلاد في ظل بقاء المحتل، وصحيح أن

الأولوية بالنسبة لنا الآن أن تتوقف الحرب والموت الذي يصب على رؤوس الآمنين، ولكننا بصفتنا فاعلين ومنتمين لهذا الوطن نتطلع إلى غدٍ لا يكون فيه الاحتلال، فتنعم بلادنا والمنطقة بالراحة والأمان والسلام.



استباحة الإنسان في فلسطين.. شهادة صحفيّ

أمير أبو عرّام



أمير أبو عرّام

صحفي فلسطيني مستقلّ من الضفّة الغربية. في الخامس من تشرين الثاني/نوفمبر 2023 داهمت قوّات الاحتلال منزله في رام الله، واعتقلته ضمن حملة طالت عشرات الصحفيين والإعلاميين بعد السابع من أكتوبر. أُفرج عن أمير أبو عرام مطلع أيار/مايو 2024.

17

استباحة الإنسان في فلسطين..
شهادة صحفيّ

أمير أبو عرّام

مع مطلع هبة القدس في تشرين الأول/أكتوبر عام 2015، كنت أعد أول تقرير تلفزيوني لي في حياتي المهنية التي كانت في بداياتها آنذاك. لم يكن قد مضى على تخرجي في الجامعة سوى بضعة أشهر، وكان التقرير يتناول دور الحركات الطلابية في مقاومة الاحتلال. في أثناء تصوير التقرير تعرضنا لهجوم الجيش، ولم تحمنا عدة الصحفي من الملاحقة مع الشبان واستنشاق الغاز المسيل للدموع. من هنا كانت البداية الحقيقية لي في هذا الميدان في فلسطين، حيث الصحافة ضربٌ من المقاومة، أي إنّها بالنسبة للإسرائيلي ضربٌ من الإرهاب.

بعد عامين تماما، وفي فجر الثالث من تشرين الأول/أكتوبر عام 2017 استيقظت على صوت انفجار باب منزلي شمال رام الله، ولم تمض ثوانٍ قليلة حتى رأيت جنود الاحتلال على باب غرفتي يسحبونني من داخل سريري، ليبدأ الضرب والدفع والشتم من كل طرف، قبل اعتقالي، الذي حصل وكأنّ فيه إنجازا ما للجنود، مع أنّ المعتقل مدني، وصحفي.

كانت تلك ليلة أولى من أصل شهرين أمضيتهما بلا وجه حقّ ولا عدالة في الاعتقال، خضعت خلالهما لقرابة 20 جلسة تحقيق ومحكمة؛ إذ حُقّق معي في أثناء عرض حلقات البرنامج التلفزيوني الذي كنت أقدمه وجرت مراجعته

كلمة بكلمة. في أثناء العرض، كانوا يقفون عند بعض الكلمات مثل "شهيد" و"أسير" فيجردونها من سياقها، ويلوون ذلك السياق اعتباطيا من أجل تلفيق تهمة التحريض بحقّي، كذلك كانت المقابلات التي أجريتها مع أهالي الشهداء أو المواطنين الذين صادر الاحتلال بيوتهم وأراضيهم جزءا من الاتهام. أصدرت المحكمة نهاية تشرين الثاني/نوفمبر قرارا بالإفراج عني على أن تستمر محاكمتي من الخارج، وبعد سبعة أشهر من المحاكمة والجلسات المتكررة، حكمت محكمة الاحتلال علي بغرامة مالية والسجن لعام مع وقف التنفيذ، بتهمة التحريض.

كان ذلك الاعتقال حلقةً كدت أنساها من حياتي، رغم فجاعتها وحجم الإهانة التي تعرضت لها حينئذ، ولا سيما حين أفكّر بما كان يلزم لهويتي الصحفيّة أن تحقّق لي من شيءٍ من الحصانة، أو الدعم والمساندة من المجتمع الصحفي الدولي، أو إثارة ما يلزم من التنديد إزاء الجرائم الإسرائيلية المتكررة بحق الصحفيين، ولكن ما كادت تلك الحلقة من حياتي تُطوى، حتّى أتى المحتلّ ليخلع الباب نفسه، ويقرّر اعتقالي من جديد. حصل ذلك بعد سبعة أعوام، وفي تشرين الأول/أكتوبر أيضا؛ فمع إعلان الاحتلال الحرب علينا في فلسطين، بدأت تغطيتنا الشاملة والمكثفة، وكان العمل الميداني لتغطية الأحداث في الضفة الغربية من مسيرات وفعاليات ومواجهات يستمر أحيانا 20 ساعة متتالية، وكنا نعمل جنبا إلى جنب مع الوكالات المحلية والعالمية بصورة مهنية وشبه طبيعية.

خلال تلك المواجهات كنا نتعرض كالعادة للملاحقة ومنع العمل، وتعرضنا عدة مرات مع الصحفيين للاستهداف المباشر خلال المسيرات والمواجهات؛ إذ استُهدفنا بالرصاص والقنابل الغازية ولا سيما تلك التي كانت تُلقى فوق رؤوسنا مباشرة عبر الطائرات المسيّرة.

استمر عملي بين الميدان والمتابعات الإخبارية حتى فجر الخامس من تشرين الثاني/ نوفمبر، حين اقتحمت قوات الاحتلال منزلي وقررت اعتقالي لمدة ستة أشهر، لتكون هذه الأشهر بدقائقها وساعاتها وأيامها المظلمة هي أصعب أيام حياتي وأكثرها قسوة وصعوبة.

بعد لحظات من اقتحام بيتي كُبّلت يداي وغُمّي على عينيّ بقطعة قماش، وطلبت من الجنود الذين اقتحموا غرف المنزل السماح لي بتوديع أطفالي الثلاثة الذين ينامون في فراشهم، ولكنهم حرموني من ذلك واقتادوني من المنزل مشيا على الأقدام لعدة أمتار، قبل أن ألتقي مع مسؤول عسكري على مقربة من المنزل جاء ليخبرني عن اعتقالي ووقف عملي الإعلامي. وقفت حينئذ وأزال التغمية للحظات قليلة وقال رافعا كلتا كفيه: "خلص من اليوم فش صحافة".

اقتادني الجنود نحو الآليات العسكرية لينقلوني إلى نقطة عسكرية قريبة وليتجدد التحقيق الميداني معي على نحو سريع، وكانت المحادثة تدور حول عملي الإعلامي، وقيل لي : "أنت تصوّر المسيرات والفعاليات، وهذا الموضوع غير مقبول عنا، أنت تنقل مواد تشكل تحريضا". أخبرته أن هذا عملي الصحفي وأنا أمارسه مثل غيري من المراسلين الفلسطينيين والأجانب وحتى الإسرائيليين، ولكنه تدارك وأوقفني بقوله:"انت الآن رايح للسجن، وهناك بتفكر منيح بشغل الصحافة".

اقتادني الجنود من جديد إلى باص مليء بالجنود، فألقوني على الأرض فصرت بين أقدامهم، وبدأت المضايقات بالكلام ومحاولات إدخال قطعة طولية صغيرة في أذني ودفعها لتحدث ضررا. أشعرني الاحتلال منذ اللحظات الأولى باستباحة كاملة لجسدي، بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى، وهنا أنا لا

أضيف هذه العبارة كأسلوب بلاغيّ مبتذل، بل أودّ من القارئ أن يتذكّر أنّ الاحتلال، كما يستبيح الأرض، "يستبيح" أجساد الفلسطينيين، من دون أي حدّ وبلا أي رادع، وأنّ نزع الأنسنة بحسب العبارة التي باتت شائعة في وسائل الإعلام اليوم في سياق الحديث عن قطاع غزة، هو سلوك عام لدى المحتل الإسرائيلي، يجعله لا يرى في جسد الفلسطيني أي قيمة البتة؛ لذلك فإن كلمة "الاستباحة" مركزية في تجربة الاعتقال، ولا سيما منذ السابع من أكتوبر، وهو ما حصل في حالتي وحالات آلاف الأسرى القابعين في سجون الاحتلال.

بعد أقل من ساعة وصل الباص إلى أحد المعسكرات، أنزلوني منه مع أسير آخر، ووضعوني على الأرض تحت أشعة الشمس معصوب العينين مُكبل اليدين بقيود بلاستيكية، ثم بدأ مسلسل الشتم والصراخ مع كل جندي أو مستوطن يدخل من بوابة المعسكر، واستمر الحال قرابة ثماني ساعات قبل أن نُنقل بمركبة صغيرة إلى معسكر عتصيون شمال مدينة الخليل.

عند وصولنا إلى معسكر عتصيون التابع للجيش الاسرائيلي، كان قد مر على عملية اعتقالي قرابة 12 ساعة، لم أتناول في أثنائها لقمةً من طعام ولا حتى شربة ماء، كذلك مُنعنا من استخدام الحمام، بل مُنعنا أيضا من مجرّد النطق والحديث، أو التحرك لتحسين وضعية جلوسنا. كانت ساعات من عذاب شديد، ولكن ذلك لم يكن كل شيء.

يعتمد الاحتلال على المعسكر لحجز المعتقلين لمدد متفاوتة تبدأ من يومين وتصل أحيانا إلى شهرين، بغرض تنظيم دخولهم إلى السجون التابعة لمصلحة السجون الإسرائيلية. عند وصولنا إلى مدخل السجن أعادوا طرحنا مكبّلي الأيدي على الأرض، في ساحة مفتوحة، حيث بدأنا نسمع أصوات الأسرى الذين يتعرضون للضرب المبرّح. شعرت أنّني على باب جحيم أرضي، وأنني مقبل

على جولات من العذاب، سيسمع صوت صراخي فيها أسرى آخرون قادمون للتجربة نفسها. نقلوني بعد ذلك إلى غرفة داخلية للتفتيش، فطلبوا خلع ملابسي كلها. في أثناء ذلك، سجل أحد الجنود معلوماتي الشخصية وصادر هاتفي الذي كان الجنود قد طلبوه وفتشوا محتوياته بعد اعتقالي من البيت. بعد خروجي من الغرفة، فك الجنود قيودي، وأزالوا العصابة عن عيني، وفي أثناء نقلي إلى قسم الاعتقال رأيت شابّا مضرجا بدمائه، وقد تحول لون ملابسه الداخلية البيضاء إلى لون دمه الأحمر؛ إذ ظل الجنود يتناوبون بالاعتداء المستمر عليه.

أمضيت ثلاثة أيام في هذا المعسكر، لم أتناول خلالها الطعام هناك بسبب رداءته الفظيعة؛ فقد كان الجنود يأتون بما تبقى من الطعام، ويلقونه أرضا لأكثر من 70 معتقلا. الكلّ عاف الأكل إلا مضطرا لكي لا تخور قواه تماما. نوعية الطعام وشكله ولونه ورائحته، كل ذلك تعافه النفوس وترفضه. ما كان ثابتا لا يتبدّل في تلك الأيام كان الضرب والشتم والصراخ؛ في ساعات المساء كان الجنود يدخلون إلى القسم ويصرخون ويشتمون، وشهدت مرّة إخراج عدد من الأسرى وضربهم، في جولة شاركت بها مجنّدة راحت تشتم الذات الإلهية وتسهم بالضرب بالعصي على أبواب الغرف لمنعنا من النوم.

في صباح اليوم الذي أخبرونا فيه بدورنا للانتقال نحو سجن عوفر، جاءت وحدة النقل بين السجون، وبدؤوا تفتيشنا (من جديد، مع خلع الملابس كاملة، وبإنزال ما أمكن من الأذى فينا والاعتداءات والشتائم المهينة). نُقِلْنَا بمركبة "البوسطة" المغلقة تماما والخالية من النوافذ، ذات المقاعد الحديدية، وهي أشبه بقبور مؤقّتة يُوضَع فيها الأسرى لساعات طويلة مقيدي الأيدي.

بعد وصولنا إلى مدخل سجن عوفر تجددت الاعتداءات، فتعرضت للضرب من جنود وحدة النقل، وشدّوا الأصفاد علينا ما تسبب في تورم بالأيدي لعدة أيام لاحقة. كنا على موعد جديد مع التفتيش العاري، وصادرت إدارة السجن ملابسي وأعطوني ملابس السجن وهي عبارة عن بنطال وقميص باللون البني. لم يسمح لي بتغييرهما خلال مدة الاعتقال التي بلغت ستة أشهر، فكنت أستيقظ وأنام بهما، ولم أتمكن من غسلهما سوى بضع مرات فقط. ورغم بساطة هذا الانتهاك نسبيا مقارنة بصنوف الانتهاكات وأشكال التعذيب التي خضعنا لها في السجن، فإنّ أثر ذلك على كيان الأسير كان لا يوصف، فقد كان الشعور بالقذارة يمنع من الراحة ومن النوم، ويسبب آلاما جسدية ونفسية، كان مرعبا اضطرارُ التعوّد عليها. يعلم الإسرائيلي أننا شعب كريم، ويدرك وعينا بهذه الكرامة التي هي جوهر الإنسان، أيّا كان جنسه، وكان المحتلّ يسعى في كل هذه الممارسات، داخل السجن وخارجه، إلى كسرِ تشبّث الفلسطيني بهذه الكرامة، وهو ما كان يذكرنا باستمرار بأن هذا المحتل جاهل، وأن اندفاعه الدموي لإبادة الفلسطينيين نابعٌ من إدراكه لاستحالة تخليهم عن كرامتهم/أرضهم.

بدءا من منتصف تشرين الأول/أكتوبر 2023، قررت إدارة مصلحة السجون سحب الكهربائيات من داخل غرف السجون، وسحب الطعام الموجود في داخل الغرف والأقسام كليّا، كذلك صُودِرت الأغطية والملابس، ولم يتبق لكل أسير سوى بنطال وقميص وقطعة واحدة من الملابس الداخلية فقط.

لحظة دخولي إلى سجن عوفر قست وزني داخل جهاز في عيادة السجن التي لم أتمكن من العودة إليها لاحقا؛ بسبب منع العلاج للأسرى، وبعد الإفراج عني مطلع أيار/مايو 2024 تسنّى لي قياس وزني فتبين أنني فقدت 32 كيلوغراما بسبب الحرمان من الطعام والنوم.

في كل يوم كان يُقدّم لي طعام لا يكفي لإنسان، وكان الطعام يتكون من 50 غراما من اللبن أو اللبنة وخبز، وما مقداره 3 ملاعق من الرز مع بيضة وصنف أو صنفين من الخضار والبقوليات بكميات قليلة جدا، ما تسبب على مدار أشهر الاعتقال في فقدان الوزن السريع وحالات الإغماء والإرهاق التي كنت أعانيها كبقية الأسرى يوميا.

بعد أسبوع من الاعتقال، اسْتُدْعِيت للتحقيق في مركز الشرطة لتقديم لائحة اتهام، وعندما دخلت إلى غرفة التحقيق لم أُسْأَل عن أي شيء، وكان المحقق يصرخ ويشتم ويتعمد إهانتي، ووضع أمامي عدة أوراق مطبوعة فيها العشرات من الأسئلة التي كان يتلوها جواب لا، وطلب مني توقيعها، ودار جدال بأني إن لم أوقّعها فسيوقعها هو بدلا مني، وكانت الأسئلة عامة يتعلق بعضها بالنشاط الصحفي العام وصفحات على منصات التواصل الاجتماعي.

بعد إعادتنا إلى السجن، وفي الليلة نفسها، عُرِضْت على أول محكمة، أي بعد 8 أيام من اعتقالي، وأصدر القاضي حينئذ قرارا بتمديد اعتقالي لمدة لم أكن أعلمها لأني كنت أتابع المحكمة عن بعد من خلال تقنية الفيديو، ولكن المحامي قال لي إن هذه المحكمة مقدمة لإصدار قرار اعتقال إداري بحقي.

في التاسع عشر من تشرين الثاني/نوفمبر، أُخْرِجْت برفقة أكثر من 70 أسيرا من القسم نفسه الذي نوجَد فيه قرابة السادسة صباحا، جرى تقييدنا وتكبيلنا وتغمية عيوننا، ولم نكن نعلم أين نحن، وإلى أين نتجه، وسُلِّمْنا إلى وحدة النقل، لأعيش أصعب أيام حياتي إطلاقا؛ تعرضت يومئذ للضرب الشديد على أنحاء جسدي كله لعدة مرات متتالية ومتفرقة، وزُجِجْت داخل "البوسطة" في زنزانة مغلقة من دون منفسٍ للهواء مع خمسة أسرى حتى كاد يغمى علينا بعد أن فقدنا الأكسجين، وضُرِبْت في إحدى جولات الضرب بقطعة حديدية

على ظهري، ما أدى إلى أوجاع ما زلت أعاني منها حتى يومنا هذا، أي بعد انقضاء قرابة 10 أشهر.

يومئذ اسْتُدْعِيت لجلسة تحقيق، وكان الحديث يدور عن عملي الصحفي، وكانت الأسئلة تتعلق بعملي وكيف أعمل ومع مَن، تحدثت بما لدي من معلومات وهي معلومات معروفة للجميع بحكم أني صحفي أمارس مهنتي أمام العالم، ولكني تفاجأت أنه لا يوجد سبب واضح لاعتقالي، ولا توجد تهمة حقيقية، وبأن السبب الرئيس للاعتقال هو الحرب، وأنه من غير المرغوب وجودي في الخارج خوفا من نقل صورة ما يحدث للعالم.

تساءلت حينئذ عن الفرق بيني وبين الصحفيين الإسرائيليين الذين يعملون بالميدان ويراسلون قنواتهم، والصحفيين الأجانب الذين رافقوا جيش الاحتلال في عملياته داخل غزة، لماذا يُسمح لهؤلاء بالعمل براحة وتحت حماية الجيش، بينما أُمنع أنا وأعتَقل ويُزَجّ بي في السجن، ولكن من جديد لم أتلقّ أي إجابة واضحة، وتيقنت يومئذ من أن اعتقالي فقط كان انتقاميا، لترويع الصحفيين الفلسطينيين ومنعهم من نقل روايتهم.

في اليوم ذاته كانت محكمة الاحتلال قد أصدرت قرارها باعتقالي لمدة ستة أشهر اعتقالا إداريا، وذُيِّل القرار بالسبب الذي يقول إنني "خطِر على أمن المنطقة"، وهذا هو المبرر الدائم للاعتقال الإداري الذي يعانيه الفلسطينيون؛ إذ يُعْتَقَل الفلسطيني من دون سبب ويحاكم إداريا بقرار من الحاكم العسكري، ولا يحتاج هذا النوع من الاعتقال إلى تهمة، بل يُزَجّ بالأسير داخل المعتقل من دون أي تهمة، ومن دون أي تبعات على من اتخذوا تلك القرارات الجائرة.

بعد عشرة أيام عُرضت على محكمة جديدة، حينئذ طلبت الحديث مع القاضي، وهو ضابط عسكري إسرائيلي، وقلت له إني أريد معرفة سبب اعتقالي، ولماذا أنا موجود هنا، بينما يلزم أن أكون حرّا قريبا من عائلتي وأطفالي، وأمارس عملي كما شرّعت ذلك كل القوانين الدولية. أخبرته أيضا أني قدمت خلال الحرب مواد صحفية لوكالات أجنبية يوجَد مراسلون لها الآن مع جيش الاحتلال في غلاف غزة، ويعملون بحماية، ولكن هل مجرد كوني فلسطينيا فقط يكفي أساسا لاعتقالي ومنعي من العمل، رغم أني أحمل بطاقة الصحافة الدولية التي يُفترض أن تمنحني مثل أقراني الأجانب حق الحركة والعمل وفق المواثيق والمعاهدات الدولية. كانت تلك المقارنات تزيد علينا القهر؛ ذلك لأننا أيضا أصحاب الأرض أصلا، وينبغي أن نعيش حياة حرّة على اختلاف مهننا ومسالكنا، حياةً يتوقف فيها الاحتلال عن الجثوّ على صدورنا وصدور أبنائنا.

أصدرت المحكمة قرارا بتخفيض الحكم من ستة أشهر إلى ثلاثة أشهر. مع ذلك، وقبل انتهاء الأشهر الثلاثة تلك، أصدرت المحكمة العليا، وهي أعلى سلطة قضائية في دولة الاحتلال، قرارا بتجديد اعتقالي لمدة جديدة، وبذلك أتممت ستة أشهر داخل المعتقل.

خلال فترة الاعتقال، تعرضت للقمع بالنقل من قسم إلى آخر؛ إذ وُضِعْت في غرفة منعزلة لساعات طويلة قبل نقلي إلى غرفة أخرى، والسبب هو حملي لأوراق مكتوب عليها أرقام لأهالي الأسرى الذين كانوا يعيشون معي، وكنت أحملها لتقديمها للمحامي لكي يطمئن العائلات على أبنائها؛ إذ إننا لم نتمكن من التواصل مع عائلاتنا أو معرفة أخبارهم إلا من خلال زيارة المحامي، التي لم أتمكن من الحصول عليها إلا ثلاث مرات خلال فترة الاعتقال كاملة، وهو ما يعني أنني حُرمت من معرفة أي خبر عن زوجتي وأطفالي وأبي وأمي وإخوتي إلا خلال هذه الزيارات الثلاث، لتكون بقية الأيام جحيما بفقد أخبارهم والخوف

عليهم، ويُذكَر هنا أن كثيرا من الأسرى لم يتمكنوا أيضا من الحصول على زيارة للمحامي.

في صباح الجمعة الثالثة من رمضان عام 2024، استيقظنا على أصوات الصراخ والضرب على الأبواب؛ إذ اقتحمت قوات القمع القسم الذي كنت أوجد فيه، وبدأت بالاعتداء على الأسرى. في تلك اللحظة، استُهدفت الغرفة التي كنت فيها، واقتحمت قوة القمع المكان، ووجهوا الكلب المرافق لهم نحوي، فبدأ بمهاجمتي وضربي بعنف، ما تسبب لي برضوض في القفص الصدري، استمر ألمها لأيام طويلة. بعد أن انتهى الكلب من الاعتداء عليّ، بدأ السجانون يضربوننا بعنف، ووُضِعَت أغطيتنا داخل الحمام الصغير بهدف التضييق علينا وتحويل الغرف إلى أماكن لا تصلح للحياة، وهو كذلك إذ إن الغرفة التي كنت أعيش بها لا تتجاوز مساحتها 35 مترا مربعا مع الحمام الذي يوجَد في داخلها، ومع ذلك كان يعيش فيها 12 أسيرا يأكلون وينامون ويقضون 24 ساعة يوميا معا.

بعد انتهاء الحكم والإفراج عني مطلع أيار/مايو عام 2024، عدت أخيرا لكي أقبّل وأحضن عائلتي لأول مرة بعد هذه الفترة الطويلة من الغياب، انتشرت حينئذ كثير من المقاطع المصورة لتلك اللحظة الصعبة، التي تعود فيها لعائلتك بعد غياب غير مبرر، غياب بلا تهمة ولا حتى حاجة إلى التبرير، فضلا عن دفع الثمن والمحاسبة.

تركتُ لحظة خروجي من السجن عددا من زملائي الصحفيين الذين بقوا من خلفي، تحرر بعضهم لاحقا واعتُقل آخرون؛ إذ يعتقل الاحتلال اليوم عشرات الصحفيين في سجونه بتهمة عملهم الصحفي، ومعظمهم تحت بند الاعتقال الإداري، أو يُحاكم بعضهم بتهمة التحريض.

خلال كتابتي لهذه الشهادة بطلبٍ من الزملاء في مجلة الصحافة التي تصدر عن معهد الجزيرة للإعلام، التي وثقت فيها جزءا من تفاصيل رحلة اعتقالي في سجون الاحتلال بسبب عملي الصحفي، تفتحت لدي المواجعُ والآلام من هول تلك الفترة، واستعدت تفاصيل أخرى فظيعة فضلت عدم ذكرها لصعوبتها وعدم رغبتي في تذكرها ورؤيتها مكتوبة على نحو تفصيلي واضح، ولكن ظلت أسئلة عديدة تجول في خاطري بشأن واقع العمل الصحفي الفلسطيني الذي يعاني العاملون فيه على مختلف تخصصاتهم، في سياقٍ من الإرهاب والترهيب المركّب في سلوك الاحتلال الإسرائيلي، الذي يقع على أبناء شعبنا كافة منذ عقود طويلة، ولكنّه تضاعف وتفجّر فظاعةً ووحشيةً إبّان السابع من أكتوبر.

لقد نجوت خلال أعوام تسعة أمضيتها في العمل من عشرات المواقف التي كنت فيها عرضة للإصابة أو حتى للقتل؛ فقد تعرضنا وزملاؤنا لإطلاق النار من قوات الاحتلال مرات عديدة ومباشَرَة خلال تغطياتنا الصحفية في المواجهات أو عمليات الاقتحام للقرى والمدن، وتعرضنا مرات عديدة لمضايقات قطعان المستوطنين واعتداءاتهم، الذين كانوا يلاحقوننا لمنعنا من الوصول إلى التجمعات الفلسطينية المعزولة التي تتعرض للتهجير والتضييق. كنا رغم التضييق والمخاطرة نقطع مسافات طويلة التفافية للوصول إلى أماكن الحدث، ولا أنسى كيف سرنا في الجبال مشيا على الأقدام تحت أشعة الشمس الحارقة في الأغوار الفلسطينية للوصول إلى مناطق معزولة، لنجد أطفالا وشيوخا يبحثون عن مغيث، عمّن ينقل صوتهم وصورة معاناتهم إلى العالم، أو ليحصلوا على إشارة ما، بأنّ أحدا في هذا العالم لا يزال يسمع ويهتم للعدالة الإنسانية التي تُنتهك انتهاكا مطلقا في فلسطين المحتلة.

ربما كانت المعاناة صعبة ومريرة، ولكن آلاف الأشخاص الذين وصلنا إليهم سابقا، ونشرنا قصصهم ومعاناتهم، وتحدثنا عنهم في حلقاتنا وتقاريرنا المصورة والمكتوبة قد تمكنا من إيصال رسائلهم، ولا يزال هناك الآلاف وعشرات الآلاف ممن لا يزالون بانتظار من يُعلي صوتهم ويذكّر الاحتلال بأنّه لم ينتصر في حربه على الفلسطينيين، وأنّ قصّتهم وروايتهم المعجونة بالحق والعدالة، هي التي ستنتصر ولو بعد حين.







+974 44897666
institute@aljazeera.net
http://institute.aljazeera.net/ar